حبذا يوم الشعانين وما نلت فيه من نعيمٍ لو يدوم
إن أكن أعظمت أن همت به فالذي تركب من عذلي عظيم
لم اكن أول من سن الهوى فدع العذل فذا داءٍ قديم
وروى أبو الفرج بسنده إلى محمد بن جبيرٍ قال: كنا عند أبي عيسى بن الرشيد في زمن
ربيع وعندنا مخارق وعلويه وعبد الله بن العباس الربيعي و عبد الله بن الحارث بن بسخنر
ونحن مصطحبون في طارمةٍ مضروبةٍ على بستانه وقد تفتح فيه ورد وياسمين وشقائق
والسماء متغيمة غيماً مطبقاً وقد بدأت ترش رشاً ساكباً، فنحن في أكمل نشاطٍ وأحسن
يومٍ، إذ خرجت قيمة دار أبي عيسى فقالت: يا سيدي، قد جاءت عسالِيج، قال: تخرج
إلينا فليس بحضرتنا من تحتشمه. قال: فخرجت إلينا جاريةٌ شكلةٌ حلوةٌ حسنة العقل
والهيئة والأدب في يدها عودٌ فسلمت، وأمرها أبو عيسى بالجلوس فجلست. وغنى القوم
حتى انتهى الدور إليها، وظننا أنها لا تصنع شيئاً وخفنا أن تهابنا فتحصر، فغنت غناءً
حسناً مطرباً متقنا، لم تدع أحداً ممن حضر إلا غنت صوتاً من صنعته فأدته على غاية
الإحكام، فطربنا واستحسنا غناءها و خاطبناها بالاستحسان، وألح عبد الله بن العباس
من بيننا بالاقتراح عليها والمزاح معها والنظر إليها. فقال أبو عيسى: عشقتها وحياتي يا
عبد الله! فقال: لا والله يا سيدي وحياتك ما عشقتها، ولكن استملحت كل ما شاهدته
منها من منظرٍ وشكلٍ وعقلٍ وعشرةٍ وغناء. فقال له: ويحك! فهذا والله هو العشق
وسببه. ورب جدٍ جره اللعب. قال: وشربنا، فلما غلب النبيذ على عبد الله غنى
أهزاجاً قديمةً وحديثة، وغنى فيما بينها هزجاً في شعرٍ قاله فيها لوقته، فما فطن له إلا أبو
عيسى، وهو:

نطق المكتوم مني فبدا كم ترى المكتوم مني لا يضح
سحر عينيك إذا ما رنتا لم يدع ذا صبوةٍ أو يفتضح
ملكت قلباً فأمسى غلقاً عندها صباً بها لم يسترح
بجمالٍ وغناءٍ حسنٍ جل عن أن ينتقيه المقترح
أورث القلب هموماً ولقد كنت مسروراً بمرآه فرح
ولكم مغتبق هماً وقد باكر اللهو بكور المصطبح

فقال له أبو عيسى: فعلتها والله يا عبد الله، صح والله قولي لك في عساليج وأنت تكابر

حتى فضحك السكر. فجحد وقال: هذا غناءٌ كنت أرويه. فحلف أبو عيسى أنه ما قاله
وما غناه إلا في يومه، وقال له: احلف بحياتي أن الأمر ليس هو كذلك! فلم يفعل. فقال أبو
عيسى: والله لو كانت لي لوهبتها لك، ولكنها لآل يحيى ابن معاذ، ووالله إن باعوها
لأملكنك إياها ولو بكل ما املك! ووحياتي لتنصرفن قبلك إلى منزلك. ثم دعا بحافظتها
وخادماً من خدمه فوجه بها معهما إلى منزله. والتوى عبد الله قليلاً وتجلد ثم انصرف.
واتصل الأمر بينهما بعد ذلك فاشترتها عمته رقية بنت الفضل بن الربيع من آل يحيى بن
معاذ، وكانت عندهم حتى ماتت. قال: وقالت بذل الكبيرة لعبد الله بن العباس: قد بلغني
أنك عشقت جاريةً اسمها عساليج، فاعرضها علي، فإما أن عذرتك أو عذلتك، فوجه
إليها فحضرت، وقال لبذل: هذه هي يا سيدتي، فاسمعي وانظري ثم مريني بما شئت
أطعك. فأقبلت عليه عساليج وقالت: يا عبد الله، أتشاور في! فوالله ما شاورت فيك لما
حبتك. فقالت بذل: أحسنت والله يا صبية! ولو لم تحسني شيئاً ولا كانت فيك خصلةٌ
تحمد لوجب أن تعشقي لهذه الكلمة. ثم قالت لعبد الله: ما ضيعت، احتفظ بصاحبتك
هذه.
وقال حمدون بن إسماعيل: دخلت يوماً على عبد الله بن العباس الربيعي وخادمٌ له
يسقيه، وبيده عودٌ وهو يغني:

إذا اصطحبت ثلاثاً وكان عودي نديمي
والكأس تضحك ضحكاً من كف ظبيٍ رخيم
فما على طريقٌ لطارقات الهموم

فما رأيت احسن مما حكى حاله في غنائه ولا سمعت أحسن مما غنى.ومن صنعته
وشعره قوله

صدع البين والفؤادا إذ به الصائح نادى
بينما الأحباب مجمو عون إذ صاروا فرادى
فأتى بعضٌ بلاداً وأتى بعضٌ بلادا
كلما قلت تناهى حدثان الدهر زادا

أخبار وجه القرعة
هو أبو جعفر محمد بن حمزة بن نصير الوصيف مولى المنصور، ويلقب وجه القرعة، أحد

المغنين الحذاق الضراب الرواة. أخذ الغناء عن إبراهيم الموصلي وطبقته. وكان حسن
الأداء طيب الصوت لا علة فيه، إلا انه كان إذا غنى الهزج خاصةً خرج لا لسبب يعرف،
إلا أنه إن تعرض للحنين في جنس من الأجناس فلا يصح له البتة.
وروى أبو الفرج بسنده عن محمدٍ الهاشمي انه شهد إسحاق بن إبراهيم الموصلي عند
عمه هارون بن عيسى وعنده محمد بن الحسن بن مصعب، قال: فأتانا محمد بن حمزة وجه
القرعة، وكان شرس الأخلاق أبي النفس، وكان إذا سئل الغناء أباه، فإذا أمسك عنه كان
هو المبتدئ به، فأمسكنا عنه حتى طلب العود فأتي به فغنى:

مر بي سرب ظباء رائحاتٍ من قباء
زمراً نحو المصلى يتمشين حذائي
فتجاسرت وألقي ت سرابيل الحياء
وقديماً كان لهوي وفنوني بالنساء

قال: وكان يحسنه ويجيده، فجعل إسحاق يشرب ويستعيده حتى شرب ثلاثة أرطال، ثم
قال: أحسنت يا غلام! هذا الغناء لي وأنت تتقدمني فيه! ولا يخلق الغناء مادام مثلك
ينشأ فيه.
وقال أيضاً: كنا في البستان المعروف ببستان خالصٍ النصراني ببغداد، ومعنا محمدُ ابن
حمزة وجه القرعة وهو يغنينا:

يا دار أفقر رسمها بين المحصب والحجون
يا بشر إني فاعلمي والله مجتهداً يميني
ما إن صرمت حبالكم فصلي حبالي أو ذريني

فإذا برجلٍ راكبٍ على حمارٍ يؤمنا وهو يصيح: أحسنت والله! فقلنا اصعد إلينا كائناً
من كنت، فصعد وقال: لو منعتموني من الصعود لما امتنعت، ثم سفر اللثام عن وجهه فإذا
هو مخارق. فقال: يا أبا جعفر، اعد على صوتك فأعاده، وشرب رطلاً من شرابنا وقال:
لولا أني مدعو الخليفة لأقمت عندكم واستمعت هذا الغناء الذي هو أحسن من النزهة
غب المطر.
وله مع إسحاق بن إبراهيم ومخارق أخبارٌ شهدا له فيها بحسن الصنعة، وكفاه ذلك
فضلاً في صناعته.
أخبار محمد بن الحارث بن بسخنر
قال أبو الفرج الأصفهاني: هو من أهل الري، مولى المنصور، من ولد بهرام شوبين مرزبان

الري. قال: وهو مرتجلٌ قليل الصنعة حسن الغناء والنغم بقوةٍ وشجاً واقتدار شديد على
الغناء، وكان في زمانه أحد المعدودين في حسن الأدب وتمام المروءة وحسن الزي والآلة،
وكان عظيم التيه رفيع الهمة، وكانت له منزلةٌ عند المأمون.
قال محمد بن الحارث: كنت مع
المأمون وهو يريد بلاد الروم ومعه عدةٌ من المغنين، فجلس يوماً والمعتصم والعباس معه من
حيث لا نراهم وهم يسمعون غناءنا، فغنى المغنون جميعاً وغنيت هزجاً لإسماعيل بن
جامع، فبعث إلي المأمون بأصل شاهشفرم وقد لف أصله بمنديل حرير، فجاءني به الغلام
وقال: أعد الصوت، فأخذته وشممته وثبت فأعدته قائماً، ووضعت الأصل بين يدي
وشربت رطلاً وقلت للمغنين: حكم لي أمير المؤمنين بالحذق والغناء. فقالوا: وكيف؟
قلت: دفع إلي لواء الغناء من بينكم. فقالوا: ليست كما ذكرت، ولكن حياك إذ أطربته،
والرسول قائمٌ فانصرف بالخبر، فما لبث أن رجع إلي فقال: هو كما ذكرت.
قال أبو العنبس بن حمدون: كان محمد بن الحارث أحسن خلق الله شمائل وإشارةً إذا
غنى. وقال أحمد بن حمدون: صنع محمد بن الحارث هزجاً في هذا الشعر:

أمسيت عبداً مسترقاً أبكي الألى سكنوا دمشقا
أعطيتهم قلبي فمن يبقى بلا قلبٍ فأبقى!

وطرحه على المسدود الطنبوري فوقع له موقعاً حسناً، واستحسنه محمد منه فقال:
أتحب أن أهبه لك؟ قال: نعم، قال: قد فعلت. فكان المسدود يغنيه ويدعيه، وإنما هو
لمحمد بن الحارث.
قال محمد: لما قدم المأمون من خراسان لم يشتق مغنياً بمدينة السلام غيري. فبعث إلي
فكنت أنادمه سراً، ولم يظهر للندماء حتى ظفر بإبراهيم بن المهدي، فلما عفا عنه ظهر
للندماء.
ولمحمد بن الحارث شعر، منه قوله:

ومن ظن أن التيه من فضل قدره فإني رأيت التيه من صغر القدر
ولو كان ذا عزٍ ونفسٍ أبيةٍ لغض الغنى منه وعز عن الفقر
رأى نفسه لا تستقل بحقها فتاه لنقص النفس أو قلة الشكر

أخبار أحمد بن صدقة
قال أبو الفرج الأصفهاني: هو أحمد بن صدقة بن أبي صدقة. كان أبوه حجازياً مغنياً، قدم على الرشيد وغنى له. وقد ذكرنا أخباره في النوادر من كتابنا هذا، فلا حاجة بنا إلى إعادتها. وكان أبو أحمد طنبورياً محسناً مقدماً حاذقاً حسن الغناء محكم الصنعة.
قال: وله غناءٌ كثيرٌ في الأرمال والأهزاج وما يجري مجراها من غناء الطنبوريين. وكان ينزل الشام. ووصف للمتوكل فأمر بإحضاره، فقدم عليه فغناه، فاستحسن غناءه وأجزل صلته. واشتهاه الناس وكثر من يدعوه، فكسب بذلك أكثر مما كسبه مع المتوكل أضعافاً.
وروى أبو الفرج عن أحمد بن صدقة قال: اجتزت بخالد بن يزيد الكاتب، فقلت له:
أنشدني بيتين من شعرك حتى أغني فيهما. فقال: وأي حظٍ لي في ذلك! تأخذ أنت الجائزة وأحصل أنا على الإثم! فحلفت أني إن أخذت بشعره فائدةً جعلت له فيها حظاً، وأذكرت به الخليفة وسألته فيه. فقال: أما الحظ من جهتك فأنت أنذل من ذلك، ولكن عسى أن تفلح في مسئلة الخليفة، وأنشدني:
تقول سلا، فمن المدنف ومن عينه أبداً تذرف!
ومن قلبه قلقٌ خافقٌ عليك وأحشاؤه ترجف!
فلما جلس المأمون للشرب دعاني، وكان قد غضب على حظيةٍ له، فحضرت مع المغنين.
فلما طابت نفسه وجهت إليه بتفاحةٍ من عنبرٍ عليها مكتوبٌ بالذهب: يا سيدي سلوت، وما علم الله أني عرفت شيئاً من خبرهما. وانتهى الدور إلي فغنيت البيتين، فاحمر وجه المأمون وانقلبت عيناه وقال: يا بن الفاعلة، لك علي وعلى حرمي صاحب خبرٍ! فوثبت وقلت: يا سيدي، ما السبب؟ قال: من أين عرفت قصتي مع جاريتي حتى غنيت في معنى ما بيننا؟ فحلفت أني لم أعرف شيئاً من ذلك، وحدثته بحديثي مع خالد، فلما انتهيت إلى قوله: أنت أنذل من ذلك ضحك وقال: صدق، وعجب من هذا الاتفاق، وأمر لي بخمسة آلاف درهم ولخالدٍ بمثلها.
وروى عنه أيضاً قال: دخلت على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفةً جلبٌ

ورومياتٌ مزنراتٌ قد تزين بالديباج الرومي، وعلقن في أعناقهن صلباناً من الذهب، وفي
أيديهن الخوص والزيتون. فقال لي المأمون: ويلك يا أحمد! قد قلت في هؤلاء أبياتاً فغن بها،
ثم أنشدني:

ظباءٌ كالدنانير ملاحُ في المقاصير
جلاهن الشعانين علينا في الزنانير
وقد زرفن أصداغاً كأذناب الزرازير
وأقبلن بأوساطٍ كأوساط الزنابير

فحفظته وغنيته، فلم يزل يشرب والوصائف يرقصن بين يديه بأنواع الرقص من الدستبندا
إلى الإلي حتى سكر، وأمر لي بألف دينارٍ، وأمر بأن ينثر على الجواري ثلاثة آلاف دينارٍ،
فقبضت الألف ونثرت ثلاثة آلاف الدينار فانتهبتها معهن.
قال: ولم يزل أحمد بالعراق حتى بلغه موت بنيةً له بالشام، فشخص نحو منزله، وخرج عليه
الأعراب فأخذوا ما معه وقتلوه.

أخبار أبي حشيشة

قال أبو الفرج: أبو حشيشة لقبٌ غلب عليه، وهو محمد بن بني أمية، ويكنى أبا جعفر.
وكان أهله جميعاً متصلين بإبراهيم بن المهدي، وكان هو من بينهم يغني بالطنبور أحسن
الناس غناءً. وخدم جماعةً من الخلفاء، أولهم المأمون ومن بعده إلى المعتمد. قال: وكان
أكثر انقطاعه إلى أبي أحمد بن الرشيد أيام حياته. وكان أبوه وجده وأخواله كتاباً.
قال أحمد بن جعفر جحظة في ترجمة أبي حشيشة: وكان له صنعةٌ تقدم فيها كل طنبوريٍ
لا أحاشي أحداً في ذلك. قال: فمنها:

كأن هموم الناس في الأرض كلها علي وقلبي بينهم قلب واحد
ولي شاهدا عدلٍ سهادٌ وعبرةٌ وكم مدعٍ للحب من غير شاهد

قال جحظة: ورأيته بين يدي المعتمد على الله وقد غناه من شعر علي بن محمد ابن نصر:

حرمت بذل نوالك واسوءتا من فعالك!
لما ملكت وصالي آيستني من وصالك

فوهب لي مائتي دينار. قال: وغنى يوماً عند ابن المدبر بحضرة عريب، فقالت له:
أحسنت يا أبا جعفر! ولو عاش الشيخان ما قلت لهما هذا تعني علويه ومخارقاً.
وقال أبو الفرج: إن أبا حشيشة ألف كتاباً جمع فيه أخباره مع من عاشر وخدم من

الخلفاء، وهو كتابٌ مشهور. قال: أول من سمعني من الخلفاء المأمون، وصفني له مخارق،
فأمر بإشخاصي إليه، وأمر لي بألف درهمٍ أتجهز بها. فلما وصلت إليه أدناني وأعجب
بي، وقال للمعتصم: هذا أثر خدمك وخدم آبائك وأجدادك يا أبا إسحاق. وذكر ما كان
يشتهيه عليه كل خليفة، فقال: كان المأمون يشتهي من غنائي:

كان ينهى فنهى حتى سلا وانجلت عنه غيابات الصبا
خلع اللهو وأضحى مسبلاً للنهى فضل قميصٍ وردا

قال: وكان المعتصم يشتهي علي:

أسرفت في سوء الصنيع وفتكت بي فتك الخليع
وولعت بي متمرداً والعذر في طرق الولوع
صيرت حبك شافعاً فأتيت من قبل الشفيع

قال: وكان الواثق يختار من غنائي:

يا تاركي متلذذ ال عذال جذلان العداة
انظر إلي بعين را ض نظرةً قبل الممات
خليتني بين الوعي د وبين ألسنة الوشاة!
ماذا يرجى بالحيا ة منغصٌ روح الحياة!

قال: وكان المتوكل يحبني ويستخفني، وكانت أغانيه التي يشتهيها علي كثيرةٌ. منها:

أطلعت الهوى وخلعت العذارا وباكرت بعد المراح العقارا
ونازعك الكأس من هاشمٍ كريمٌ يحب عليها الوقارا
فتًى فرق الحمد أمواله يجر القميص ويرخي الإزارا
رأى الله جعفر خير الأنام فملكه ووقاه الحذارا

قال: وكان المستعين يشتهي علي:

وما أنس لا أنس منها الخشوع وفيض الدموع وغمز اليد
وخدي مضافٌ إلى خدها قياماً إلى الصبح لم نرقد

قال: واشتهى علي المعتمد:

قلبي يحبك يا منى قلبي ويبغض من يحبك
لأكون فرداً في هوا ك، فليت شعري كيف قلبك؟

قال جحظة: وكانت وفاة أبي حشيشة بسر من رأى. وسببها أنه اصطبح عند قلم غلام
الفضل بن كاوش في يومٍ بارد، فقال له: أنا لا آكل إلا طعاماً حاراً، فأتاه بفجليةٍ باردةٍ وقال:
تساعدني وتأكل معي، فأكل منها فخمد قلبه فمات.

ذكر أخبار القيان

وأول من غنى من النساء ومن اشهر بالغناء منهن في الإسلام قالوا: أول من غنى الغناء العربي جرادتا ابن جدعان. قال أبو الفرج الأصفهاني: قال ابن
الكلبي: كان لابن جدعان أمتان يسميان الجرادتين يغنيان في الجاهلية، وسماهما جرادتي

عباد، ووهبهما عبد الله بن جدعان لأمية بنت أبي الصلت الثقفي وكان قد امتدحه.
وابن جدعان هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة بن
كعب بن لؤي بن غالب. كان سيداً جواداً، فرأى أمية ينظر إلى الجرادتين وهو عنده
فأعطاه إياهما. وقد قيل في سبب إعطائه إياهما: إن أمية بن أبي الصلت قدم عليه، فقال له
عبد الله: أمرٌ ما أتى بك! فقال أمية: كلاب غرماءٍ قد نبحتني ونهشتني. فقال له عبد الله:
قدمت علي وأنا عليلٌ وحقوقٌ لحقتني ولزمتني، فانظرني قليلاً وقد ضمنت قضاء دينك فلا
أسألك عن مبلغه، قال: فأقام أمية أياماً ثم أتاه فقال:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالأمور وأنت قرمٌ لك الحسب المهذب والسناء
كريمٌ لا يغيره صباحٌ عن الخلق الكريم ولا مساء
تباري الريح مكرمةً ومجداً إذا ما الكلب أجحره الشتاء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء
إذا خلفت عبد الله فاعلم بأن القوم ليس لهم جزاء
فأرضك كل مكرمةٍ بنتها بنو تيمٍ وأنت لهم سماء
وهل تخفى السماء على بصيرٍ! وهل بالشمس طالعةً خفاء!

فلما أنشده أمية هذا الشعر كانت عنده قينتان، فقال لأمية: خذ أيتهما شئت، فأخذ
إحداهما وانصرف، فمر بمجلسٍ من مجالس قريشٍ فلاموه على أخذها، وقالوا له: لقد ألفيته
عليلاً، فلو رددتها عليه، فإن الشيخ محتاجٌ إلى خدمتها، كان ذلك أقرب لك عنده وأكثر من
كل حقٍ ضمنه. فوقع الكلام من أمية موقعاً وندم، فرجع إليه ليردها عليه. فلما أتاه بها،
قال ابن جدعان: لعلك إنما رددتها لأن قريشاً لاموك على أخذها، وذكر لأمية ما قال
القوم. فقال أمية: والله ما أخطأت يا أبا زهير. قال: فما الذي قلت في ذلك؟ فقال:

عطاؤك زينٌ لامرئٍ إن حبوته ببذلٍ وما كل العطاء يزين
وليس بشينٍ لامرئٍ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

فقال عبد الله لأمية: خذ الأخرى، فأخذهما جميعاً وخرج. فلما أن صار إلى القوم بهما
أنشأ يقول:

ومالي لا أحييه وعندي مواهب قد طلعن من النجاد
لأبيض من بني عمرو بن تيمٍ وهم كالمشرفيات الحداد
لكل قبيلةٍ هادٍ ورأسٌ وأنت الرأس تقدم كل هاد

عماد الخيف قد علمت معدٌ وإن البيت يرفع بالعماد
له داعٍ بمكة مشمعلٌ وآخر فوق دارته ينادي
إلى ردحٍ من الشيزى ملاءٍ لباب البر يلبسك بالشهاد
وكان سبب قول أمية بن أبي الصلت هذا الشعر أن عبد الله بن جدعان وفد على
كسرى فأكل عنده الفالوذ، فسأل عنه فقيل له: هذا الفالوذ.
قال: وبم يصنع؟ قيل: لباب
البر يلبك مع عسل النحل. قال: أبغوني غلاماً يصنعه، فأتوه بغلامٍ يصنعه فابتاعه، ثم قدم به
مكة، فأمره أن يصنع الفالوذ ففعل، ثم وضع الموائد من الأبطح إلى باب المسجد، ثم نادى
مناديه: ألا من أراد الفالوذ فليحضر، فحضره الناس. وكان فيمن حضر أمية بن أبي
الصلت فقال الأبيات. وقال فيه أيضاً:
ذكر ابن جدعان بخي ر كلما ذكر الكرام
من لا يخون ولا يع ق ولا يبخله الأنام
يهب النجيبة والنجي ب له الرحالة والزمام
وابن جدعان ممن ترك شرب الخمر في الجاهلية، وقد تقدم ذكره. وهجاه دريد ابن الصمة
بشعر، فلقيه بعد ذلك عبد الله بسوق عكاظ، فحياه وقال: هل تعرفني يا دريد؟ قال: لا.
قال: فلم هجوتني؟ قال: ومن أنت.؟ قال: عبد الله بن جدعان.
قال: هجوتك لأنك
كنت أثراً كريماً فأحببت أن أضع شعري موضعه. فقال له عبد الله: لئن كنت هجوت لقد
مدحت، وكساه وحمله على ناقةٍ برحالها، فقال دريد:
إليك ابن جدعان أعملتها مخففةً للسرى والنصب
فلا خفض حتى تلاقى امرأ جواد الرضا وحليم الغضب
وجلداً إذا الحرب مرت به يعين عليها بجزل الحطب
وجلت البلاد فما إن أرى شبيه ابن جدعان وسط العرب
سوى ملكٍ شامخ ملكه له البحر يجري وعين الذهب
وأخبار ابن جدعان كثيرةٌ وسيادته في الجاهلية مشهورة، ليس هذا موضع إيرادها، وإنما
أوردنا ما أوردنا منها في هذا الموضع على سبيل الاستطراد، فالشيء بالشيء يذكر.
فلنرجع إلى أخبار القيان.
أخبار جميلة
هي جميلة مولاة بني سليم، ثم مولاة بطن منهم يقال لهم بنو بهز، وكان لها زوجٌ من موالي
بني الحارث بن الخزرج، وكان ينزل فيهم، فغلب عليها ولاء زوجها فقيل لها: مولاة الأنصار.

وقد قيل: إنها كانت لرجلٌ من الأنصار ينزل بالسنح. وقيل: كانت مولاة الحجاج بن علاط
السلمي. قال أبو الفرج الأصفهاني: وهي أصلٌ من أصول الغناء، أخذ عنها معبد وابن
عائشة وحبابة وسلامة وعقيلة والعتيقة وغيرهم. وفيها يقول عبد الرحمن بن أرطاة:

إن الدلال وحسن الغنا ء وسط بيوت بني الخزرج
وتلكم جميلة زين النساء إذا هي تزدان للمخرج
إذا جئتها بذلت ودها بوجهٍ منيرٍ لها أبلج

قال: وكانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء. وكان معبد يقول: أصل الغناء جميلة وفرعه
نحن، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين. قال: وسئلت جميلة: أنى لك هذا الغناء؟ قالت:
والله ما هو إلهامٌ ولا تعليم، ولكن أبا جعفر سائب خاثر كان جارنا، وكنت أسمعه يغني
ويضرب بالعود فلا أفهمه، فأخذت تلك النغمات وبنيت عليها غنائي، فجاءت أجود من
تأليف ذلك الغناء، فعلمت وألقيت، فسمعني مولياتي يوماً وأنا أغني سراً، ففهمني ودخلن
علي وقلن: قد علمنا ما تكتمين وأقسمن علي، فرفعت صوتي وغنيتهن بشعر زهير بن
أبي سلمى:

وما ذكرتك إلا هجت لي طرباً إن المحب ببعض الأمر معذور
ليس المحب كمن إن شط غيره هجر الحبيب، وفي الهجران تغيير

فحينئذٍ شاع أمري وظهر ذكري وقصدني الناس وجلست للتعليم، فكان الجواري يكثرن
عندي، وربما انصرف أكثرهن ولم يأخذن شيئاً سوى ما سمعنني أطارح غيرهن، وقد
كسبت لموالي ما لم يخطر لهم ببال، وأهل ذلك كانوا وكنت. وقد أقر لجميلة كل مكي
ومدني من المغنين. قال: ولما قدم ابن سريج والغريض وابن مسجح وسلم بن محرز المدينة
واجتمعوا هم ومعبد وابن عائشة حكموها بينهم، واجتمعوا عندها، وصنع كلٌ منهم
صوتاً وغناه بحضرتها - وقد ذكر الأصفهاني الأصوات - فلما سمعت الأصوات قالت:
كلكم محسنٌ ومجيدٌ في غنائه ومذهبه. قال ابن عائشة: ليس هذا بمقنع. قالت: أما أنت يا
أبا يحيى فتضحك الثكلى بحسن صوتك ومشاكلته النفوس. وأما أنت يا أبا عباد فنسيج

وحده بتأليفك وحسن نظمك وعذوبة غنائك. وأما أنت يا أبا عثمان فلك أولية هذا الأمر
وفضله. وأما أنت يا أبا جعفر فمع الخلفاء تصلح. وأما أنت يا أبا الخطاب فلو قدمت
أحداً على نفسي لقدمتك. وأما أنت يا مولى العبلات فلو ابتدأت قدمتك عليهم. ثم
سألوها جميعاً أن تغنيهم لحناً كما غنوا، فغنتهم، فكلهم أقروا لها وفضلوها.
وكانت جميلة قد آلت أنها لا تغني أحداً إلا في منزلها. فكان عبد الله بن جعفر يأتيها في
مجلسها فيجلس عندها وتغنيه. فأرادت أن تكفر عن يمينها وتأتيه فتغنيه في بيته، فقال:
لا أكلفك ذلك.
وروى الأصفهاني أن ابن أبي عتيق وابن أبي ربيعة والأحوص بن محمدٍ الأنصاري أتوا
منزل جميلة واستأذنوا عليها فأذنت لهم. فلما جلسوا سألت عن عمر، فقال لها: إني
قصدتك من مكة للسلام عليك، فقالت: أهل الفضل أنت. قال: وقد أحببت أن تفرغي لنا
نفسك اليوم وتخلي مجلسك، قالت: أفعل. فقال لها الأحوص: أحب ألا تغني إلا بما نسألك،
فقالت: ليس المجلس لك، القوم شركاؤك، فقال: أجل. قال عمر: فإني أرى أن نجعل الخيار
إليها. قال ابن أبي عتيق: وفق الله. فدعت بعود فغنت:

تمشي الهوينى إذا مشت فضلاً مشي النزيف المخمور في الصعد
تظل من بعد بيت جارتها واضعةً كفها على الكبد
يا من لقلبٍ متيمٍ سدمٍ عانٍ رهينٍ مكلم كمد
أزجره وهو غير منزجرٍ عنها بطرفٍ مكحل السهد

قال راوي هذه الحكاية: فلقد سمعت للبيت زلزلةً وللدار همهمةً. فقال عمر: لله درك يا
جميلة! ماذا أعطيت! أنت أول الغناء وآخره! ثم سكتت ساعةً وأخذت العود فغنت،
فطرب القوم وصفقوا بأيديهم وفحصوا بأرجلهم وحركوا رءوسهم، وقالوا: نحن فداؤك من
المكروه، ما أحسن ما غنيت وأجمل ما قلت!، وأحضر الغداء فتغدى القوم بأنواع من
الأطعمة ومن الفواكه، ثم دعت بأنواع الأشربة، فقال عمر: لا اشرب، وقال ابن أبي عتق
مثل ذلك، فقال الأحوص: لكني أشرب، وما جزاء جميلة أن يمتنع من شرابها! فقال عمر:

ليس ذلك كما ظننت. فقالت جميلة: من شاء أن يحملني بنفسه ويخلط روحه بروحي
فعل، ومن أبي ذلك عذرناه، ولم يمنعه ذلك عندنا ما يريد من قضاء حوائجه والأنس
بمحادثته. قال ابن أبي عتيق: ما يحسن بنا إلا مساعدتك. فقال عمر: إني لا أكون
أخسكم، افعلوا ما شئتم تجدوني سامعاً مطيعاً. فشرب القوم أجمع، فغنت بشعر ابن أبي
ربيعة:

ولقد قالت لجاراتٍ لها كالمها يلعبن في حجرتها
خذن عني الظل لا يتبعني ومضت تسعى إلى قبتها
لم تعلق رجلاً فيما مضى طفلةٌ غيداء في حلتها
لم يطش قط لها سهمٌ ومن ترمه لا ينج من رميتها

فصاح عمر ثم شق جيب قميصه إلى أسفله، ثم ثاب إليه عقله فندم واعتذر وقال: لم
أملك من نفسي شيئاً. وقال القوم: قد أصبنا الذي أصابك وأغمي علينا غير أننا قد
فارقناك في تخريق الثياب. فدعت جميلةٌ بثيابٍ فجعلتها على عمرٍ فقبلها ولبسها،
وانصرف القوم إلى منازلهم. وكان عمر نازلاً على ابن أبي العتيق، فوجه إلى جميلة بعشرة
آلاف درهم وعشرة أثوابٍ كانت معه فقبلتها جميلة، وانصرف عمر إلى مكة جذلان
مسروراً.

وروى أبو الفرج بأسانيد رفعها إلى يونس الكاتب والزبير بن بكار عن عمه مصعب قالا:
حجت جميلة فخرج معها من الرجال المغنين والنساء والأشراف وغيرهم جماعةٌ ذكرهم
أبو الفرج، منهم من المغنين هنب وطويس والدلال ومعبد ومالك بن أبي السمح وابن عائشة
ونافع الخير ونافع بن طنبورة وغير هؤلاء ممن ذكرهم: ومن النساء المغنيات جماعة ذكرهن
منهن الفرهة وعزة الميلاء وحبابة وسلامة وخليدة وعقيلة والشماسية وفرعة ونبيلة ولذة
العيش وسعيده والزرقاء، ومن غير المغنين من الأشراف أبي عتيق والأحوص وكثير عزة
ونصيب، وجماعة من الأشراف الرجال والنساء. وحج معها من القيان مشيعات لها
ومعظمات لقدرها خمسون قينة وجه بهن مواليهن وأعطوهن النفقات وحملوهن على الإبل
في الهوادج والقباب وغير ذلك، فأبت جميلة أن تنفق واحدةٌ منهن درهما فما فوقه حتى

يرجعن. قال: وتخاير من خرج معها في اتخاذ أنواع اللباس العجيب والهوادج والقباب. قال:
ولما قاربوا مكة تلقاهم سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز والهذليون
وجماعة من المغنين من أهل مكة وفتيانٌ كثير، ومن غير المغنين عمر بن أبي ربيعة والحارث
ابن خالد المخزومي والعرجي وجماعةٌ من الأشراف. فدخلت جميلةُ مكة وما بالحجاز
مغنٍ حاذقٍ ولا مغنيةٍ إلا وهو معها وجماعةٌ من الأشراف ممن سمينا وغيرهم من الرجال
والنساء، وخرج أبناء أهل مكة من الرجال و النساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم.
فلما قضت حجها سألها المكيون أن تجعل لهم مجلساً، فقالت: للغناء أم للحديث؟ فقالوا:
لهما جميعاً. قالت: ما كنت لأخلط جداً بهزل، وأبت أن تجلس للغناء. فقال عمرو بن
أبي ربيعة: أقسمت على من كان في قلبه حبٌ لسماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة،
فإني خارجٌ معها. فخرجت في جمعٍ كثيرٍ من الأشراف وغيرهم أكثر من جمعها بالمدينة.
فلما قدمت المدينة تلقاها الناس والأشراف من الرجال والنساء، فدخلت بأحسن مما
خرجت منها، وخرج الرجال والنساء فوقفوا على أبواب دورهم ينظرون إلى جمعها وإلى
القادمين معها. فلما دخلت إلى منزلها وتفرق الناس إلى منازلهم ونزل أهل مكة على
أقاربهم وإخوانهم، أتاها الناس مسلمين، وما استنكف من ذلك صغيرٌ ولا كبير. فلما
مضى لمقدمها عشرة أيامٍ جلست للغناء، وقالت لعمر بن أبي ربيعة: إني جالسةٌ لك
ولأصحابك، فإذا شئت فعد الناس. فغصت الدار بالأشراف من الرجال والنساء،
وابتدأت جميلة فغنت بشعرٍ لعمر بن أبي ربيعة:

هيهات من أمة الرحمن منزلنا إذا حللنا بسيف البحر من عدن
واحتل أهلك أجياداً فليس لنا إلا التذكر أو حظ من الحزن
لو أنها أبصرت بالجزع عبرته وقد تغرد قمرى على فنن
إذا رأت غير ما ظنت بصاحبها وأيقنت أن لحجاً ليس من وطني
ما أنس لا أنس يوم الخيف موقفها وموقفي وكلانا ثم ذو شجن
وقولها للثريا وهي باكيةٌ والدمع منها على الخدين ذو سنن

بالله قولي من غير معتبةٍ ماذا أردت بطول المكث في اليمن
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها فما أصبت بترك الحج من ثمن
فكلهم استحسن الغناء، وضج القوم لحسن ما سمعوا، وبكى عمر حتى جرت دموعه
على ثيابه ولحيته. ثم أقبلت على ابن سريجٍ فقالت: هات، فغنى صوته بشعرٍ لعمر:
أليست بالتي قالت لمولاةٍ لها ظهرا
أشيري بالسلام له إذا ما نحونا نظرا
وقولي في ملاطفةٍ لزينب نولي عمرا
وهذا سحرك النسوا ن قد خبرنني الخبرا
ثم قالت لسعيد بن مسجح: هات يا أبا عثمان، فاندفع فغنى. ثم قالت: يا معبد هات،
فاندفع فغنى فاستحسنته. ثم قالت: هات يا بن محرز، فإني لم أؤخرك لخساسةٍ بك ولا
جهلاً بالذي يجب بالصناعة، ولكني رأيتك تحب من الأمور كلها أوسطها وأعدلها.
فجعلتك حيث تحب واسطةً بين المكيين والمدنيين، فغنى. ثم قالت للغريض: هات يا مولى
العبلات، فغنى بشعر عمرو بن شأس الأبيات، وفي آخرها:
أرادت عراراً بالهوان ومن يرد عراراً لعمري بالهوان فقد ظلم
فقالت: أحسن عمرو بن شأس ولم تحسن، إذ أفسدت غناءك بالتعريض، ووالله ما
وضعناك إلا موضعك ولا نقصانك من حظك، فبماذا أهناك! ثم أقبلت على الجماعة
فقالت: يا هؤلاء اصدقوه وعرفوه نفسه ليقنع بمكانه. فأقبل القوم عليه وقالوا يا أبا زيد، قد
أخطأت إن كنت عرضت. فقال: قد كان ذلك، ولست بعائد، وقام إلى جميلة فقبل طرف
ثوبها واعتذر، فقبلت عذره وقالت: لا تعد، وأقبلت على ابن عائشة فقالت: يا أبا جعفر،
هات، فغنى، فقالت: حسنٌ ما قلت. ثم أقبلت على نافع وبديح فقالت: أحب أن تغنيا
جميعاً بصوتٍ ولحنٍ واحد، فغنيا.ثم أقبلت على الهذليين الثلاثة فقالت: غنوا صوتاً
واحدا، فاندفعوا فغنوا. ثم أقبلت على نافع ابن طنبورة فقالت:هات يا نقش الغضارة ويا
حسن اللسان، فاندفع فغنى، فقالت: حسنٌ والله. ثم قالت: يا مالك هات، فإني لم أؤخرك

لأنك في طبقة آخرهم، ولكن أردت أن أختم بك، يومنا تبركاً بك، وكي يكون أول مجلسنا
كآخره ووسطه كطرفه، فإنك عندي ومعبداً في طريقةٍ واحدةٍ ومذهبٍ واحد، لا يدفع ذلك
إلا ظالمٌ ولا ينكره إلا عاضلٌ للحق، والحق أقول، فمن شاء أن ينكر، فسكت القوم كلهم
إقراراً بما قالت. فاندفع فغنى:

عدوٌ لمن عادت وسلمٌ لسلمها ومن قربت سلمى أحب وقربا
هبيني امرأً إما بريئاً ظلمته وإما مسيئاً تاب بعد وأعتبا
أقول التماس العذر لما ظلمتني وحملتني ذنباً وما كنت مذنبا
ليهنك إشمات العدو بهجرنا وقطعك حبل الود حتى تقضبا

فقالت جميلة: يا مالك، ليت صوتك قد دام لنا ودمنا له! وقطعت المجلس، وانصرف عامة
الناس وبقي خواصهم. قال: ولما كان في اليوم الثاني حضر القوم جميعاً. فقالت لطويس:
هات يا أبا عبد النعيم، فغنى:

قد طال ليلي وعادني طربي من حب خودٍ كريمة الحسب
غراء مثل الهلال آنسةٍ أو مثل تمثال صورة الذهب
صادت فؤادي بجيد مغزلةٍ ترعى رياضاً ملتفة العشب

فقالت جميلة: حسنٌ والله يا أبا عبد النعيم. ثم قالت للدلال: هات يا أبا يزيد، فغنى،
فاستحسنت غناءه. ثم قالت لهنب: إنا نجلك اليوم لكبر سنك ورقة عظمك، فقال:
أجل. ثم قالت لبرد الفؤاد ونومة الضحى: هاتيا جميعاً لحناً واحداً، فغنيا، فقالت:
أحسنتما. ثم قالت لفند وزجة وهبة الله: هاتوا جميعاً صوتاً واحداً، إنكم متفقون في
الأصوات، فاندفعوا فغنوا. ثم غنت جميلة بشعر الأعشى:

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا واحتلت الغور فالجدين فالفرعا
واستنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا
تقول بنتي وقد قربت مرتحلاً يارب جنب أبي الأوصاب والوجعا
وكان شيءٌ إلى شيءٍ فغيره دهرٌ ملحٌ على تفريق ما جمعا

قال: فلم يسمع شيءٌ أحسن من ابتدائها بالأمس وختمها في اليوم، وقطعت المجلس
وانصرف قومٌ وأقام آخرون. فلما كان في اليوم الثالث اجتمع الناس فضربت ستارةً
وأجلست الجواري، فضربن كلهن، وضربت هي فضربت على خمسين وتراً فزلزلت الدار.

ثم غنت على عودها وهن يضربن على ضربها:
فإن خفيت كانت لعينك قرةً وإن تبد يوماً لم يعممك عارها
من الخفرات البيض لم تر غلظةً وفي الحسب الضخم الرفيع نجارها
فما روضةٌ بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من فيها إذا جئت موهناً وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها
فدمعت أعين كثير حتى بلوا ثيابهم وتنفسوا الصعداء، وقالوا: بأنفسنا أنت جميلَة! ثم
قالت للجواري: اكففن فكففن، وقالت: يا عز غني، فغنت بشعرٍ لعمر:
تذكرت هنداً وأعصارها ولم تفض نفسك أوطارها
تذكرت النفس ما قد مضى وهاجت على العين عوارها
لتمنح رامة منا الهوى وترعى لرامة أسرارها
إذا لم تزرها حذار العدا حسدنا على الزور زوارها
فقالت جميلة: يا عز، إنك لباقيةٌ على الدهر، فهنيئاً لك حسن هذا الصوت مع جودة هذا
الغناء. ثم قالت لحبابة وسلامة: هاتيا لحناً واحداً، فغنتا فاستحسن غناؤهما. ثم أقبلت
على خليدة فقالت: بنفسي أنت! غني فغنت، فاستحسن منها ما غنت. ثم قالت لعقيلة
والشماسية: هاتيا، فغنتا. ثم قالت لفرعة ونبيلة ونديمة ولذة العيش هاتين، فغنين، فقالت:
أحسنتن. وقالت لسعيدة والزرقاء: غنيا، فغنتا. ثم قالت للجماعة فغنوا، وانقضى المجلس
وعاد كل إنسانٍ إلى وطنه. فما رئي مجلسٌ ولا جمعٌ أحسن من هذه الأيام الثلاثة. وقد
ذكر أبو الفرج ما غنى به كل واحدٍ منهم فأوردنا بعضه وتركنا بعضه اختصارا. وأخبارٌ
جميلة كثيرة، قد ذكر منها أبو الفرج الأصفهاني جملةً تدل على أنها كانت مبجلةً عند
الأشراف معظمةً عند المغنين، يأخذون عنها ويأتمرون بأمرها، ويسعون إليها، وينطقون إذا
استنطقتهم، ويكفون إذا استكفتهم، وفيما قدمناه دلالةً على ذلك والله أعلم.
أخبار عزة الميلاء
قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت عزة مولاةً للأنصار، ومسكنها المدينة، وهي أقدم من غنى
الغناء الموقع من نساء الحجاز، وماتت قبل جميلة. قال: وقد أخذ عنها معبدٌ ومالك بن
أبي السمح وابن محرز وغيرهم من المكيين والمدنيين. وكانت من أجمل النساء وجهاً

وأحسنهن جسما. وسميت الميلاء لتمايلها في مشيتها.
وقال معبد: كانت من أحسن النساء ضرباً بعود، مطبوعة على الغناء، لا يعيبها أداؤه ولا
صنعته ولا تأليفه، وكانت تغني أغاني القيان القدماء مثل شيرين وزرياب وخولة والرباب
وسلمى ورائقة، وكانت رائقة أستاذتها. فلما قدم نشيطٌ وسائب، خاثر المدينة غنيا أغاني
بالفارسية، فأخذت عزة عنهما نغماً وألفت عليها ألحاناً عجيبة، فهي أول من فتن أهل
المدينة بالغناء وحرض رجالهم ونسائهم عليه.
وقال الزبيري: وجدت مشايخ أهل المدينة إذا ذكروا عزة قالوا: لله درها! ما كان أحسن
غناءها، وأطل صوتها، وأندى حلقها، وأحسن ضربها بالمزاهر والمعازف وسائر الملاهي،
وأجمل وجهها، وأظرف لسانها، وأقرب مجلسها، وأكرم خلقها، وأسخى نفسها، وأحسن
مساعدتها!. وكانت جميلة تقول مثل ذلك فيها.
وكان ابن سريج في حداثة سنه يأتي المدينة فيأخذ عنها ويتعلم منها، وكان بها معجباً،
وكان إذا سئل: من أحسن الناس غناءً؟ قال: مولاة الأنصار المتفضلة على كل من غنى
وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء.
وكان ابن محرز يقيم بمكة ثلاثة أشهرٍ ثم يأتي المدينة فيقيم بها ثلاثة أشهر من أجل عزة،
وكان يأخذ عنها. وقد تقدم ذلك في أخباره.
وكان طويس أكثر ما يأوي إلى منزل عزة، وكان في جوارها، وكان إذا ذكرها يقول: هي
سيدة من غنى من النساء، مع جمالٍ بارع، وخلقٍ فاضل، وإسلامٍ لا يشوبه دنس، تأمر
بالخير وهي من أهله، وتنهى عن الشر وهي تجانبه، فناهيك بها! ما كان أنبلها وأنبل
مجلسها!. ثم قال: كانت إذا جلست جلوساً عاماً فكأن الطير على رءوس أهل مجلسها،
فمن تكلم أو تحرك نقر رأسه.
وقال صالح بن حسان الأنصاري: كانت عزة مولاةً لنا، وكانت عفيفةً جميلة. وكان عبد
الله بن جعفر وابن أبي عتيق وعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة يغشونها في منزلها فتغنيهم.
وغنت عمر بن أبي ربيعة لحناً لها في شيءٍ من شعره، فشق ثيابه وصاح صيحةً عظيمةً
صعق معها. فلما أفاق قال له القوم: لغيرك الجهل يا أبا الخطاب، قال: إني سمعت والله ما لم

املك معه نفسي ولا عقلي.
وكان حسان بن ثابت معجباً بها، وكان يقدمها على سائر قيان المدينة. وقد ذكرنا خبرها
مع النعمان بن بشير وحسان بن ثابت، وأن كل واحدٍ منهما سمع غناءها، فبكي حسان
بن ثابت واستعاد النعمان بن بشير صوتها مرارا، وتقدم من أخبارها في خبر عائشة بنت
طلحة وأخبار جميلة ما يستغنى عن إعادته في هذا الموضع. فلنذكر من سواها.
أخبار سلامة القس
كانت سلامة القس هذه مولدةً من مولدات المدينة، وبها نشأت، وأخذت الغناء عن معبد
وابن عائشة وجميلة ومالك بن أبي السمح ومن دونهم، فمهرت فيه. وإنما سميت سلامة
القس لأن رجلاً يعرف بعبد الرحمن بن أبي عمار بن جشم بن معاوية - وكان منزله بمكة،
وهو من قراء أهل المدينة، كان يلقب بالقس لعبادته - شغف بها وشهر بحبها. وكان
سبب ذلك أنه سمع غناءها على غير تعمدٍ منه فبلغ منه كل مبلغ. فرآه مولاها فقال: هل
لك أن تدخل فتسمع؟ فأبى. فقال له مولاها: أنا أقعدها حيث تسمع غناءها ولا تراها.
فلم يزل بها حتى دخل، فأسمعه غناءها فأعجبه. فقال: هل لك أن أخرجها إليك؟ قال :
لا. فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه، فغنت فشغف بها وشغفت به وعرف ذلك
أهل مكة. فقالت له يوماً: أنا والله أحبك. فقال: وأنا والله الذي لا إله إلا هو أحبك.
فقالت: والله أشتهي أن أعانقك وأقبلك. فقال: والله وأنا أشتهي مثل ذلك. قالت:
وأشتهي والله أن أضاجعك واضع بطني على بطنك وصدري على صدرك قال: وأنا والله
كذلك. قالت: فما يمنعك من ذلك؟ والله إن المكان لخال. قال: يمنعني منه قوله عز وجل:
"الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدوٌ إلا المتقين"، فأنا أكره أن تحول مودتي إياك عداوةً يوم
القيامة. ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النسك، ولم يعد إليها بعد ذلك. وكان
يشبه بعطاء بن أبي رباح. وكان له فيها أشعارٌ كثيرة، منها قوله:

إن التي طرقتك بين ركائبٍ تمشي بمزهرها وأنت حرام
لتصيد قلبك أو أجزاء مودةٍ إن الرفيق له عليك ذمام
باتت تعللنا وتحسب أننا في ذاك أيقاظٌ ونحن نيام

حتى إذا سطع الضياء لناظرٍ فإذا وذلك بيننا أحلام
قد كنت أعذل في السفاهة أهلها فأعجب لما تأتي به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنما سبل الضلالة والهدى أقسام
وقوله أيضاً فيها:
ألم ترها لا يبعد الله دارها إذا رجعت في صوتها كيف تصنع!
تمد نظام القول ثم ترده إلى صلصلٍ من صوتها يترجع
وقوله فيها:
ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر
ألا ليت أني حيث صارت بي النوى جليسٌ لسلمى كلما عج مزهر
وله من قصيدةٍ طويلةٍ أولها:
سلامٌ هل لي منكم ناصر أم هل لقلبي عنكم زاجر
قد سمع الناس بوجدي بكم فمنهم اللائم والعاذر
في أشعارٍ كثيرةٍ يطول الشرح بذكرها. ومدحها الأحوص أيضاً بشعرٍ كثيرٍ. وقال فيها
أيضاً ابن قيس الرقيات.
وروى أبو الفرج الأصفهاني قال: كانت سلامة وريا أختين، وكانتا من أجمل النساء
وأحسنهن غناءً، فاجتمع الأحوص وابن قيس الرقيات عندهما. فقال لهما ابن قيس
الرقيات: إني أريد أن أمدحكما بأبياتٍ فأصدق فيها ولا أكذب. فإن أنتما غنيتماني بذلك
وإلا هجوتكما ولم أقربكما أبداً. قالتا: فما قلت؟ قال: قلت:
لقد فتنت ريا وسلامة القسا فلم يتركا للقس عقلاً ولا نفسا
فتاتان أما منهما فشبيهة ال هلال وأخرى منهما تشبه الشمسا
تكنان أبشاراً رقاقاً وأوجهاً عتاقاً وأطرافاً مخضبةً ملسا
فغنته سلامة فاستحسنه. وقال ابن قيس الرقيات للأحوص: يا أخا الأنصار، ما قلت؟
قال قلت:
سلامٌ هل لمتيمٍ تنويل أم قد صرمت وغال ودك غول
لا تصرمني عنيً ولاءك إنه حسنٌ لدي وإن بخلت جميل
أزعمت أن مودتي وصبابتي كذبٌ وان زيارتي تقليل
فغنت الأبيات. فقال ابن قيس الرقيات: أحسنت والله! ما أظنك إلا عاشقةً لهذا
الجلف. فقال له الأحوص: وما الذي أخرجك إلى هذا؟ قال: حسن غنائها بشعرك، فلولا
أن لك في قلبها محبةً مفرطةً ما جاء هكذا حسناً على هذه البديهة فقال الأحوص: على

قدر حسن شعري على شعرك هكذا حسن الغناء به. وما هذا منك إلا حسدٌ، وليس
ذلك إلا ما حسدت عليه. فقالت سلامة: لولا أن الدخول بينكما يوجب بغضةً لحكمت
بينكما حكومةً لا يردها أحد. قال الأحوص: فأنت من ذلك آمنة.
قال قس بن الرقيات:
كلا! قد أمنت أن تكون الحكومة عليك، فلذلك سبقت بالأمان لها.
فتفرقا على ذلك. ثم
مشى ابن قيس الرقيات إلى الأحوص فاعتذر إليه فقبل عذره.
ومن شعر الأحوص فيها:
سلامُ إنك قد ملكت فأسجحي قد يملك الحر الكريم فيسجح
مني على عانٍ أطلت عناءه في الغل عندك والعناة تسرح
إني لأنصحكم وأعلم أنه سيان عندك من يغش وينصح
وإذا شكوت إلى سلامة حبها قالت أجدُ منك ذا أم تمزح
وحكى أبو الفرج قال: لما قدم عثمان بن حيان المري المدينة والياً عليها، قال له قومٌ من
وجوه الناس: إنك قد وليت المدينة على كثرةٍ من الفساد، فإن كنت تريد أن تصلح فطهرها
من الغناء والرثاء. فصاح في ذلك واجل أهله ثلاثاً يخرجون فيها من المدينة، وكان أبي
عتيق غائباً، وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح. فلما كان آخر ليلة من الأجل قدم
فقال: لا أدخل منزلي حتى أدخل على سلامة القس. فدخل عليها فقال: ما دخلت منزلي
حتى جئتكم لأسلم عليكم. فقالوا: ما أغفلك عن أمرنا ! وأخبروه الخبر. فقال: اصبروا
علي الليلة. فقالوا: نخاف ألا يمكنك شيء. قال: إن خفتم شيئاً فأخرجوا في السحر. ثم
خرج فاستأذن على عثمان بن حيان فأذن له، فسلم عليه وذكر غيبته وأنه جاء ليقضي
حقه، ثم جزاه خيراً على ما فعل من إخراج أهل الغناء والرثاء، وقال: أرجو ألا تكون
حملت عملاً هو خيرٌ لك من ذلك. قال عثمان: قد فعلت ذلك وأشار علي به أصحابك.
فقال: قد أصبت، ولكن ما تقول في امرأةٍ كانت هذه صناعتها وكانت تكره على ذلك، ثم
تركته وأقبلت على الصلاة والصيام والخير، وأنا رسولها إليك تقول: أتوجه إليك وأعوذ بك
أن تخرجني من جوار رسول اله صلى الله عليه وسلم ومسجده، قال قال: فإني أدعها لك
ولكلامك. فقال ابن أبي عتيق: لا يدعك الناس، ولكن تأتيك وتسمع من كلامها وتنظر

إليها، فإن رأيت أن مثلها ينبغي أن يترك تركتها، قال نعم فجاءه بها. وقال: احملي معك
سبحةً وتخشعي ففعلت. فلما دخلت على عثمان سلمت عليه وجلست وحدثته، فإذا
هي من أعلم الناس بأمور الناس، فأعجب بها، وحدثته عن آبائه وأمورهم ففكه لذلك
فقال ابن أبي عتيق: اقرئي للأمير. فقرأت، فقال لها: احدى ففعلت. وكثر عجبه منها.
فقال: كيف لو سمعتها في صناعتها! فلم يزل ينزله شيئاً فشيئاً حتى أمرها بالغناء فغنته.
فقام عثمان من مجلسه وقعد بين يديها، ثم قال: لا والله ما مثل هذه تخرج. فقال ابن أبي
عتيق: لا يدعك الناس تقر سلامة وتخرج غيرها. قال: فدعوهم جميعاً. فتركهم جميعاً
وأصبح الناس يتحدثون بذلك.
ثم اشترى يزيد بن عبد الملك سلامة، وكانت لمصعب بن سهيل الزهري، وقيل: لسهيل بن
عبد الرحمن بن عوف. وكانت حبابة جارية آل لاحق، فاشتراهما جميعاً، فاشترى سلامة
بعشرين ألف درهم، وتسلمها رسل يزيد فخرجوا بها وشيعها الناس. فلما نزلت سقاية
سليمان بن عبد الملك قالت للرسل: إن لي قوماً كانوا يغشوني ويسلمون علي، ولا بد لي من
وداعهم والسلام عليهم، فأذن للناس عليها، فأتوا حتى ملؤا رحبة القصر والفناء، ووقفت
هي بينهم بارزةً ومعها العود فغنت:

فارقوني وقد علمت يقيناً ما لمن ذاق ميتةً من إياب
إن أهل الحصاب قد تركوني موزعاً مولعاً بأهل الحصاب
أهل بيتٍ تتابعوا للمنايا ما على الدهر بعدهم من عتاب
كم بذاك الحجون من حي صدقٍ من كهولٍ أعفةٍ وشباب
سكنوا الجزع جزع بيت أبي موٍ سى إلى النخل من صفي السباب
فلي الويل بعدهم وعليهم صرت فرداً وملني أصحابي

قال: فلم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت، وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها، فما
شئت أن ترى باكياً نبيلاً إلا رأيته.
قالوا: وكانت حبابة عند يزيد متقدمةً على سلامة، وكانت حبابة تنظر إلى سلامة بتلك
العين الجميلة المتقدمة وتعرف فضلها عليها، فلما رأت أثرةً يزيد لها ومحبته إياها استخفت
بها. فقالت لها سلامة: أي أخية، نسيت فضلي عليك! ويلك! أين تأديب الغناء! أين

حق التعليم! أنسيت قول جميلة لك وهي تطارحنا: خذي إحكام ما أطارحك من أختك
سلامة، فلا تزالين بخيرٍ ما بقيت لك وكان أمركما مؤتلفاً!.
فقالت: صدقت: والله لا عدت
لشيءٍ تكرهينه أبداً. وماتت حبابة وعاشت سلامة بعدها دهراً.
ولما مات يزيد
أحضرها ابنه الوليد وأمرها بالغناء، فتنغصت من ذلك وبكت، ثم غنته. فقال: رحم الله
أبي وأطال عمري وأمتعني بحسن غنائك!. يا سلامة، بم كان أبي يقدم حبابة عليك؟
قالت: لا أدري والله. قال: لكنني أدري ذلك، بما قسم الله عز وجل لها، قالت: يا سيدي
أجل، وهي إحدى من اتهم بهن الوليد من جواري أبيه.
أخبار حبابة
كانت حبابة جاريةً مولدةً من مولدات المدينة لرجلٍ من أهلها يعرف بابن دبابة، وقيل: بل
كانت لآل لاحق المكيين، وقيل: كانت لرجلٍ يعرف بابن مينا. وكانت تسمى العالية،
فسماها يزيد بن عبد الملك لما اشتراها حبابة. وكانت حلوةً جميلة الوجه ظريفةً حسنة
الغناء طيبة الصوت ضاربةً بالعود. أخذت الغناء عن ابن سريج وابن محرز ومالك بن أبي
السمح ومعبد وعن جميلة وعزة الميلاء.
وكان يزيد بن عبد الملك يقول: ما تقر عيني ما أوتيت من الخلافة حتى أشتري سلامة
جارية مصعب بن سليم وحبابة جارية ابن لاحق المكية. فأرسل فاشتريتا له. فلما
اجتمعنا عنده قال: أنا الآن كما قال الأول:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

وكان يزيد بن عبد الملك في خلافة أخيه سليمان قد قدم المدينة فتزوج سعدة بنت عبد
الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار، وربيحة بنت محمد بن علي ابن عبد الله
بن جعفر بن أبي طالب على مثل ذلك، واشترى العالية بأربعة آلاف دينار. فبلغ ذلك
سليمان فقال: لأحجرن عليه. فبلغ يزيد ذلك فاستقال مولى حبابة، ثم اشتراها بعد ذلك
رجلٌ من أهل إفريقية. فلما ولي يزيد اشترتها سعدة امرأته وعلمت انه لابد طالبها
ومشتريها. فلما حصلت عندها قالت له: هل بقي عليك شيءٌ من الدنيا لن تنله؟ قال:

نعم، العالية. قالت: أو رأيتها؟ قال: نعم، قالت: أفتعرفها؟ قال: نعم، فرفعت الستر فرآها، فقالت: هذه هي؟ قال: نعم. قالت: هي لك، وخرجت عنهما. فسماها حبابة وعظم قدر سعدة عنده. ويقال: إنها أخذت عليها قبل أن تهبها له أن توطئ لابنها عنده في ولاية العهد.

قال: وارتفع قدر حبابة عند يزيد وتمكن حبها في قلبه تمكناً عظيماً. وكان أول ذلك أنه أقبل يوماً إلى البيت الذي هي فيه فقام من وراء الستر فسمعها تترنم وتغني:

كان لي يا يزيد حبك حينا كاد يقضي علي لما التقينا

فرفع الستر فوجدها مضطجعةً مقبلةً على الجدار، فعلم أنها لم تعلم به ولم يكن ذلك لمكانه، فألقى نفسه عليها وحركت منه.

قال: وأراد يزيد بن عبد الملك أن يشتبه بعمر بن عبد العزيز، وقال: بماذا صار عمر أرجى لربه مني!. وقيل: بل لامه مسلمة بن عبد الملك على الإلحاح على الغناء والشرب، وقال له: إنك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله، وقد تشاغلت بهذه الإماء عن النظر في الأمور، والوفود ببابك وأصحاب الظلامات يصيحون وأنت غافل!

قال: صدقت والله، وهم أن يترك الشرب، ولم يدخل على حبابة أياماً، فشق ذلك عليها فأرسلت إلى الأحوص أن يقول أبياتاً في ذلك، فقال:

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا

بكيت الصبا جهدي فمن شاء لامني ومن شاء آسى في البكاء وأسعدا

وإني وإن فندت في طلب الصبا لأعلم أني لست في الحب أوحدا

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

قال: فلما كان في يوم الجمعة تعرضت له حبابة عند خروجه إلى الصلاة، فلقيته والعود في يدها، فغنت البيت الأول، فغطى وجهه وقال: مه لا تفعلي. ثم غنت وما العيش إلا ما تلذ وتشتهي فعدل إليها وقال: صدقت، قبح الله من لامني فيك! يا غلام، مر مسلمة فليصل بالناس. وأقام معها يشرب وهي تغنيه وعاد إلى حاله، وقال لها: من يقول هذا

الشعر؟ قالت: الأحوص. فاستدعاه واستنشده الشعر فأنشده الأبيات. ثم أنشده
قصيدته التي أولى:
يا موقدة النار بالعلياء من إضم أوقد فقد هجت شوقاً غير منصرم
وهي قصيدةٌ طويلة، فقال له يزيد: ارفع حوائجك، فكتب إليه في نحو أربعين ألف درهم من
دين وغيره فأمر له بها. وقد قيل في أمر هذه الأبيات: إن حبابة لما بعثت للأحوص في عمل
الشعر قالت له: إن رددت أمير المؤمنين عن رأيه فلك ألف دينار، فدخل عليه الأحوص
واستأذنه في الإنشاد، فقال: ليس هذا وقتك. فلم يزل به حتى أذن له فأنشده الأبيات. فلما
سمعها وثب حتى دخل على حبابة وهو يتمثل:
وما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنان وفندا
قالت: ما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أبياتٌ أنشدنيها الأحوص، فسلي ما شئت. قالت:
ألف دينار تعطيها الأحوص، فأعطاه ألف دينار.
قال: وقال يزيد يوماً لسلامة وحبابة: أيكما غنتني ما في نفسي فلها حكمها. فغنت سلامة
فلم تصب ما في نفسه، وغنت حبابة بشعر ابن قيس الرقيات:
حلقٌ من بني كنانة حولي بفلسطين يسرعون الركوبا
جزعت أن رأت مشيبي عرسي لا تلومي ذوائبي أن تشيبا
فأصابت ما في نفسه، فقال: احتكمي. قالت: تهب لي سلامة ومالها. قال: اطلبي غيرها،
فأبت غيرها، فقال: أنت أولها بها ومالها، فلقيت سلامة من ذلك أمراً عظيماً. فقال
حبابة: لا ترين إلا خيراً. فجاءها يزيد فسألها أن تبيعه إياها بحكمها. فقالت: أشهدك
الآن أنها حرة، فاخطبها الآن أزوجك مولاتي.
قال: وغنت حبابة يوماً يزيد:
ما أحسن الجيد من مليكة وال لبات إذ زانها ترائبها
يا ليتني ليلةً - إذا هجع النا س ونام الكلاب - صاحبها
في ليلةٍ لا يرى بها أحدٌ يسعى علينا إلا كواكبها
فطرب يزيد، وقال: هل رأيت قط أطرب مني؟ قال: نعم، ابن الطيار معاوية ابن عبد
الرحمن بن جعفر. فكتب يزيد إلى عبد الرحمن بن الضحاك فحمله إليه. فلما قدم أرسلت
إليه حبابة: إنما بعث إليك لكذا وكذا وأخبرته بالقصة، فإذا أدخلت عليه وتغنيت فلا
تظهرن طرباً حتى أغني الصوت الذي غنيته، فقال: سوءةً على كبر السن! فدعاه يزيد وهو

على طنفسة خزٍ، ووضع لمعاوية مثلها، وجاءوا بجامين فيهما مسكٌ، فوضع أحدهما بين
يدي يزيد والآخر بين يدي معاوية. قال معاوية: فلم أدر كيف أصنع، فقلت: أنظر كيف
يصنع فأصنع مثله، فكان يقلبه فتفوح ريحه وأفعل مثل ذلك.
فلما جيء بحبابة وغنت،
فلما غنت ذلك الصوت أخذ معاوية الوسادة فوضعها على رأسه وقام يدور ويقول: الدخن
بالنوى يعني اللوبيا! وأمر له يزيد بصلاتٍ في دفعاتٍ مبلغها ثمانية آلاف دينار.
وحكى أيضاً أنها غنت يوماً يزيد فطرب، ثم قال: هل رأيت أطرب مني؟ قالت: نعم،
مولاي الذي باعني. فغاظه ذلك، فكتب في حمله مقيداً. فلما وصل أمر يزيد بإدخاله عليه
فأدخل يرسف في قيوده، وأمر يزيد حبابة أن تغني فغنت:

تشط بنا دار جيراننا وللدار بعد غدٍ أبعد

فوثب حتى ألقى نفسه على الشمعة فاحترقت لحيته، وجعل يصيح: الحريق يا أولاد الزنا!
فضحك يزيد وقال: لعمري إن هذا لأطرب الناس! وأمر بحل قيوده ووصله بألف دينارٍ
ووصلته حبابة، ورده إلى المدينة.
وروى أبو الفرج الأصفهاني بسنده إلى غانم الأزدي قال: نزل يزيد بن عبد الملك ببيت
رأس بالشام ومعه حبابة، فقال: زعموا أنه لا يصفوا لأحدٍ يوماً عيشه إلى الليل لا يكدره
شيءٌ عليه، وسأجرب ذلك، ثم قال لمن معه: إذا كان غدٌ لا تخبروني بشيءٍ ولا تأتوني
بكتابٍ. وخلا هو وحبابة، فأتيا بما يأكلان، فأكلت رمانة فشرقت بحبة منها فماتت، فأقام
لا يدفنها ثلاثاً حتى تغيرت وأنتنت وهو يشمها ويرشفها. فعاتبه على ذلك ذووه وأقرباؤه
وصديقه وعابوا عليه ما يصنع، وقالوا: قد صارت جيفةً بين يديك، فأذن لهم في غسلها
ودفنها، فأخرجت في نطع، وخرج معها لا يتكلم حتى جلس على قبرها. فلما دفنت قال:
أصبحت والله كما قال كثير:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد
وكل خليلٍ راءني فهو قائلٌ من أجلك هذا هامة اليوم أو غد

فما بقي إلا خمس عشرة ليلةً ومات، فدفن إلى جنبها.
وروي أيضاً عن مسلمة بن عبد الملك قال: لما ماتت حبابة جزع عليها يزيد، فجعلت

أسكنه وأعزيه وهو ضاربٌ بذقنه على صدره ما يكلمني حتى دفنها. فلما بلغ إلى بابه
التفت وقال: فإن تسل عنك النفس... البيت، ثم دخل بيته فمكث أربعين يوماً ثم هلك.
قال: وروي المدائني انه اشتاق إليها بعد ثلاثة أيامٍ من دفنه إياها، فقال: لا بد أن تنبش
حتى أنظر إليها، فنبشت وكشف له عن وجهها وقد تغيرت تغيراً قبيحاً، فقيل له: يا أمير
المؤمنين، اتق الله تعالى! ألا تراها كيف صارت! فقال: ما رأيت قط أحسن منها اليوم،
أخرجوها. فجاء مسلمة ووجوه أهله، فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك ودفنوها،
وانصرف، وكمد كمداً شديداً حتى مات، فدفن إلى جانبها.
وروي عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: خرجت مع أبي إلى الشام زمن يزيد بن عبد
الملك. فلما ماتت حبابة وأخرجت، لم يستطع يزيد الركوب من الجزع ولا المشي، فحمل
على منبر على رقاب الرجال. فلما دفنت قال: لم أصل عليها، انبشوا عنها. فقال له
مسلمة: ننشدك الله يا أمير المؤمنين، إنما هي أمةٌ من الإماء وقد واراها الثرى. فلم يأذن
للناس بعد حبابة إلا مرةً واحدةً، قال: فو الله ما استتم دخول الناس حتى قال الحاجب:
اخرجوا رحمكم الله. ولم ينشب يزيد أن مات كمداً.
أخبار خليدة المكية
قال أبو الفرج: هي مولاةٌ لابن شماس، كانت هي وعقيلة وربيحة يعرفن بالشماسيات. وقد
أخذت الغناء عن ابن سريج ومالكٍ ومعبد.
وروى أبو الفرج بسنده إلى الفضل بن الربيع أنه قال: ما رأيت ابن جامع يطرب لغناءٍ كما
يطرب لغناء خليدة المكية. وكانت سوداء، وفيها يقول الشاعر:
فتنت كاتب الأمير رباحٍ يا لقومي خليدة المكية
وغنت هشام بن عروة يوماً، فلما سمعها قال: اكتبي على صدرك "قل هو الله أحدٌ" وبين
يديك المعوذتين لا تصيبك العين.
وقال عمر بن شبة: بلغني أن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أرسل إلى
خليدة المكية أبا عونٍ مولاه يخطبها عليه. فاستأذن فأذنت له وعليها ثيابٌ رقاقٌ لاً
تسترها، ثم وثبت فقالت: إنما ظننتك بعض سفهائنا ، ولكنني ألبس لك ثياب مثلك

ففعلت. وقال: قد أرسلني إليك مولاي، وهو من تعلمين من رسول الله صلى الله عليه
وسلم ومن عثمان بن عفان ومن عليٍ وهو ابن عم أمير المؤمنين، يخطبك. قالت: قد
نسبت فأبلغت، فاسمع نسبي أنا بأبي أنت! إن أبي بيع على غير عقد الإسلام ولا عهده،
فعاش عبداً ومات في رجله قيدٌ وفي عنقه سلسلةٌ على الإباق والسرقة، وولدتني أمي على
غير رشدةٍ وماتت وهي آبقة، فأنا من تعلم. فإن أراد صاحبك نكاحاً مباحاً أو زناً
صراحاً فهلم إلينا فنحن له. فقال: إنه لا يدخل في الحرام.
فقالت: لا ينبغي أن يستحي من
الحلال، فأما نكاح السر فلا والله لا فعلته ولا كنت عاراً على القيان. قال: فأتيت محمداً
فأخبرته، فقال: ويحك! أتزوجها مغنيةً وعندي بنت طلحة بن عبيد الله! لا! ولكن
ارجع إليها فقل لها: تختلف إلي أردد بصري فيها لعلي أسلو، فرجعت إليها فأبلغتها الرسالة
فضحكت وقالت: أما هذا فنعم، لسنا نمنعه.
أخبار متيم الهشامية
قال أبو الفرج: كانت متيم مولدةً صفراء من مولدات البصرة، وبها نشأت وتدربت وغنت.
وأخذت عن إسحاق وأبيه قبله وعن طبقتهما من المغنين.
وكانت من تخريج بذلٍ
وتعليمها. واشتراها علي ابن هشام بعد ذلك فازدادت أخذاً ممن كان يغشاه من أكابر
المغنين. وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناءً وأدباً. وكانت تقول: الشعر ليس مما
يستجاد ولكنه يستحسن من مثلها. وحظيت عند علي بن هشام حظوةً شديدةً،
وتقدمت جواريه جمع عنده، وهي أم ولده كلهم.
حكى أبو الفرج قال: كان عند علي بن هشام برذونٌ أشهب قرطاسيٌ في نهايته الحسن
والفراهة وكان به معجباً، وكان إسحاق بن إبراهيم يشتهيه شهوةً شديدةً ويعرض لعليٍ
مراراً في طلبه فلم يسمح به. فسار إسحاق إلى عليٍ يوماً وقد صنعت متيم:
فلا زلن حسرة ظلعاً، لم حملنها إلى بلدٍ ناءٍ قليل الأصادق
فاحتبسه عليٌ بعث إلى متيمٍ يأمرها أن تجعل صوتها في صدر غنائها ففعلت، فأطربت
إسحاق إطراباً شديداً، وجعل يستعيده ويستوفيه ليزيد في طربه وهو يصغي إليه ويتفهمه

حتى صح له. ثم قال لعليٍ: ما فعل البرذون الأشهب؟ قال: على ما عهدت من حسنه
وفراهته. قال: اختر الآن مني خلةً من اثنتين: إما أن طبت لي نفساً به وحملتني عليه، وإما
أن أبيت فأدعي والله هذا الصوت لي وقد أخذته، أفتراك تقول: إنه لمتيم وأقول: إنه لي،
فيؤخذ قولك ويترك قولي ؟ فقال: لا والله ما أظن هذا ولا أراه، يا غلام، قد البرذون إلى
منزل إسحاق، لا بارك الله لك فيه!.
وحكى أن علي بن هشام مولاها كلمها بشيءٍ فأجابته جواباً لم يرضه، فدفع يده في
صدرها، فغضبت ونهضت وتثاقلت عن الخروج إليه. فكتب إليها:

فليت يدي بانت غداة مددتها إليك ولم ترجع بكفٍ وساعد
فإن يرجع الرحمن ما كان بيننا فلست إلى يوم التنادي بعائد

قال: وعتبت عليه مرةً فتمادى عتبها، فترضاها فلم ترض، فكتب إليها: الإدلال يدعو إلى
الملال، ورب هجرٍ دعا إلى صبرٍ، وإنما سمي القلب قلباً لتقلبه، وقد صدق عندي العباس
بن الأحنف حيث يقول:

ما أراني إلا سأهجر من لي س يراني أقوى على الهجران
ملني واثقاً بحسن وفائي ما أضر الوفاء بالإنسان

قال: فخرجت إليه من وقتها ورضيت.
وروى عن يحيى المكي قال: قال لي علي بن هشام: لما قدمت جدتي شاهك من
خراسان، قالت: اعرض جواريك علي، فعرضتهن عليها. ثم جلسنا على الشراب وغنتنا
متيم، فأطالت جدتي الجلوس، فلم أنبسط إلى جواري كما كنت أفعل، فقلت هذين
البيتين:

أنبقى على هذا وأنت قريبةٌ وقد منع الزوار بعض التكلم
سلامٌ عليكم لا سلام مودعٍ ولكن سلامٌ من حبيبٍ متيم

وكتبت بهما في رقعةٍ ورميتها إلى متيم، فأخذتها ونهضت لصلاة الظهر، ثم عادت وقد
صنعت فيه لحناً فغنته. فقالت شاهك: ما أرانا إلا قد ثقلنا عليكم اليوم، وأمرت الجواري
فحملوا محفتها، وأمرت للجواري بجوائز ساوت بينهن، وأمرت لمتيم بمائة ألف درهم.
قال: ومرت متيم في نسوةٍ وهي متخفيةٌ بقصر علي بن هشام بعد أن قتله المأمون. فلما
رأت بابه مغلقاً لا أنيس به وقد علاه التراب والغبرة وطرحت في أفنيته المزابل وقفت عليه
وتمثلت:

يا منزلاً لم تبل أطلاله حاشى لأطلالك أن تبلى
لم أبك أطلالك لكنني بكيت عيشي فيك إذ ولى
قد كان لي فيك هوىً مرةً غيبه الترب وما ملا
فصرت أبكي بعده جاهداً عند ادكاري حيث قد حلا
والعيش أولى ما بكاه الفتى لا بد للمحزون أن يسلى
قال: ثم بكت حتى سقطت من قامتها، وجعل النسوة يناشدنها ويقلن: الله الله في
نفسك! فإنك الآن تؤخذين. فبعد لأي ما احتملت تتهادى بين امرأتين حتى تجاوزت
الموضع.
وحكي عنها قالت: بعث إلي المعتصم بعد قدومه بغداد، فلما دخلت أمر بالعود فوضع في
حجري، وأمرني بالغناء فغنيت:
هل مسعدٌ لبكائي بعبرةٍ أو دماء
وذاك شيءٌ قليلٌ لسادتي النجباء
- وهذا الشعر لمراد جارية علي بن هشام ترثيه - فقال: اعدلي عن هذا الصوت،
فغنيت:
ذهبت عن الدنيا وقد ذهبت عني
فدمعت عيناه وقال: غني غير هذا، فغنيت:
أولئك قومي بعد عزٍ وثروةٍ تفانوا فإلا تذرف العين أكمد
فبكى بكاءً شديداً، ثم قال: ويحك! لا تغني في هذا المعنى شيئاً.
فغنيته:
لا تأمن الموت في حلٍ وفي حرم إن المنايا يجني كل إنسان
واسلك طريقك هوناً غير مكترثٍ فسوف يأتيك ما يمني لك الماني
فقال: والله إني لا أعلم أنك أردت بما غنيت ما في قلبك لصاحبك وأنك لم تريديني، ولو
أعلم أنك تريدينني لقتلك، ولكن خذوها! فأخذوا بيدي فأخرجت.وهذه متيم هي التي
كان يهواها عبد الصمد بن المعذل، وأظن ذلك قبل اتصالها بعلي بن هشام، وهي إذ ذاك
عند رجلٍ من وجوه البصرة.
قال: وكانت لا تخرج إلا متنقبة. فحكى المبرد وغيره: أنها قدمت يوماً إلى ابن عبيد الله
بن الحسين العنبري القاضي، فاحتاج إلى أن يشهد عليها، فأمر بها أن تسفر ففعلت. فقيل
لعبد الصمد: أو رأيت متيم وقد أسفرها القاضي لرأيت شيئاً عجيباً! فقال:
ولما سرت عنها القناع متيمٌ تروح منها العنبري متيما
رأى ابن عبيد الله وهو محكمٌ عليها لها طرفاً عليه محكما
وكان قديماً كالح الوجه عابساً فلما رأى منها السفور تبسما

فإن يصب قلب العنبري فقبله صبا باليتامى قلب يحيى بن أكثما
فبلغ قوله يحيى بن أكثم، فكتب إليه: عليك لعنة الله! أي شيءٍ أردت مني حتى أتاني
شرك من البصرة! فقال لرسوله: قل له: متيم أقعدتك على طريق القافية.
أخبار ساجي
جارية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
قال أبو الفرج: كانت ساجي إحدى المحسنات المقدمات المبرزات المتقدمات، وهي تخريج
مولاها عبيد الله، وكان مهما صنع من الغناء نسبه إليها، وكان قد بلغ من ذلك الغاية،
ولكنه كان يترفع عن ذكره ويكره أن ينسب إليه.
حكى أبو الفرج عن أحمد بن جعفر جحظة قال: كتب المعتضد إلى عبيد اله ابن عبد
الله بقم أن يأمر جاريته ساجي بزيارته ففعل. قال جحظة: فحدثني من حضر ذلك المجلس
من المغنيات قالت: دخلت علينا وما فينا إلا من ترفل في الحلي والحلل وهي في أثوابٍ
ليست كأثوابنا فاحتقرناها، فلما غنت احتقرنا أنفسنا، ولم تزل تلك حالنا حتى صارت في
أعيننا كالجبل وصرنا كلا شيء. ولما انصرفت أمر لها المعتضد بمالٍ وكسوةٍ. ودخلت
إلى مولاها فجعل يسألها عن خبرها وما رأت مما استظرفت وسمعت واستغربت، فقالت:
ما استحسنت هناك شيئاً ولا استغربته من غناءٍ ولا غيره إلا عوداً من عود محفوراً فإني
استظرفته. قال جحظة: فما قولك فيمن تدخل إلى دار الخليفة ولا تمد عينها إلى شيءٍ
تستظرفه وتستحسنه إلا عوداً!
قالوا: وكان المعتضد إذا استحسن شيئاً بعث به إلى ساجي فتغني فيه. وكانت صنعتها
في عصره تسمى غناء الدار. وماتت ساجي في حياة مولاها وكان عليلاً، فرثاها ببيتين
فقال:
يميناً يقيناً لو بليت بفقدها وبي نبض عرقٍ للحياة وللكنس
لأوشكت قتل النفس قبل فراقها ولكنها ماتت وقد ذهبت نفسي
أخبار دقاق
قال أبو الفرج: كانت دقاق مغنيةً محسنةً متقنة الأداء والصنعة جميلة الوجه. أخذت

الغناء عن أكابر مغني الدولة العباسية. وكانت ليحيى بن الربيع، فولدت له ابنه أحمد.
ومات يحيى فتزوجت بعده بعدةٍ من القواد والكتاب فماتوا وورثتهم، ثم انقطعت إلى
حمدونة بنت الرشيد ثم إلى غضيض. وكانت مشهورةً بالظرف والمجون.
قال هبة الله بن إبراهيم بن المهدي: وكانت تواصل جماعةً كانوا يميلون إليها وترى كل
واحدٍ منهم أنها تهواه. وكانت أحسن أهل عصرها وجهاً وأشأمهم على من تزوجها أو
رابطها. فقال فيها إبراهيم بن المهدي:
عدمتك يا صديقة كل خلقٍ أكل الناس ويحك تعشقينا
وكيف إذا خلطت الغث منهم بلحم سمينهم لا تبشيما
قال أبو هفان: خرج يحيى بن الربيع إلى بعض النواحي وترك جاريته دقاق في داره، فعملت
بعده الأوابد. فقال موسى الأعمى فيه:
قل ليحيى نعم صبرت على المو ت ولم تخش ريب سهم المنون
كيف قل لي أطلقت ويحك يا يح يى على الضعف منك حمل القرون
يشير بقوله: سهم ريب المنون إلى شؤمها.
أخبار قلم الصالحية
قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت قلم الصالحية مولدةً صفراء حلوةً حسنة الغناء والضرب
حاذقةً، قد أخذت عن إبراهيم وابنه إسحاق ويحيى المكي وزبير بن دحمان. وكانت
لصالح بن عبد الوهاب أخي أحمد بن عبد الوهاب كاتب صالح بن الرشيد، وقيل: بل
كانت لابنه. قال: وكانت لها صنعةٌ يسيرةٌ نحو عشرين صوتاً، فاشتراها الواثق بعشرة آلاف
دينار.
قال أحمد بن الحسين بن هشام: كانت قلم إحدى المغنيات المحسنات المتقدمات، فغنى بين
يدي الواثق لحنٌ لها في شعر محمد بن كناسة، وهو:
في انقباضٌ وحشمةٌ فإذا صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم
فسأل: لمن الصنعة؟ فقيل: لقلم الصالحية جارية صالح بن عبد الوهاب. فبعث إلى محمد
بن عبد الملك الزيات فأحضره وسأله: من صالح بن عبد الوهاب؟ فأخبره. قال: وأين
هو؟ قال: ببغداد. قال: ابعث وأشخصه وليحضر معه جاريته قلم. فكتب في

إشخاصهما، فقدما على الواثق، فدخلت عليه، فأمرها بالجلوس والغناء، فغنت
فاستحسن غناءها وأمر بابتياعها. فقال صالح: أبيعها بمائة ألف دينارٍ وولاية مصر.
فغضب الواثق من ذلك وردها إليه. ثم غنى بعد ذلك زرزر الكبير في مجلس الواثق بشعرٍ
الغناء فيه لها، فقال الواثق: لمن هذا الغناء؟ فقال: لقلم الصالحية، فبعث لابن الزيات
بإشخاصها ففعل، فدخلت على الواثق فأمرها بالغناء، فغنته من صنعتها فأعجبه غناؤها،
وبعث إلى صالح فأحضره وقال له: إني قد رغبت في هذه الجارية فاستم في ثمنها سوماً
يجوز أن تعطاه. فقال: أما إذا وقعت الرغبة فيها من أمير المؤمنين فما يجوز أن املك شيئاً
له فيه رغبة، وقد أهديتها إلى أمير المؤمنين، فإن من حقها علي إذا تناهيت في قضائه أن
أصيرها ملكه، فبارك الله له فيها. فقال الواثق: قد قبلتها، وأمر ابن الزيات أن يدفع إليه
خمسة آلاف دينار، وسماها اعتباطا. فلم يعطه ابن الزيات المال ومطله به، فوجه إلى قلم
من أعلمها بذلك، فغنت الواثق صوتاً وقد اصطبح، فقال لها: بارك الله فيك وفيمن رباك.
فقالت: يا سيدي وما نفع من رباني مني إلا التعب والغرم والخروج مني صفرا! فقال: أو لم
نأمر له بخمسة آلاف دينار؟ قالت: بلى! ولكن ابن الزيات لم يعطه شيئاً. فدعا بخادم من
خاصة الخدم ووقع إلى ابن الزيات بحمل خمسة آلاف الدينار إليه وبخمسة آلافٍ أخرى
معها. قال صالح: فصرت مع الخادم إليه فقربني وقال: أما خمسة الآلاف الأولى فقد
حضرت، وخمسة الآلاف الأخرى أنا أدفعها إليك بعد جمعة. قال: فقمت، ثم تناساني كأنه
لم يعرفني. فكبت إليه أقتضيه، فبعث إلي: اكتب لي قبضاً بها وخذها بعد جمعة.
فكرهت أن أكتب إليه قبضاً فلا يحصل لي شيء. قال: فاستترت في منزل صديقٍ لي. فلما
بلغه استتاري خاف أن أشكوه إلى الواثق، فبعث إلي بالمال وأخذ كتابي بالقبض. قال:
فابتعت بالمال ضيعةً وتعلقت بها وجعلتها معاشي، وقعدت عن عمل السلطان، فما
تعرضت لشيءٍ بعدها.

أخبار بصبص جارية ابن النفيس

قال أبو الفرج: كانت جاريةً من مولدات المدينة حلوة الوجه حسنة الغناء، قد أخذت عن
الطبقة الأولى من المغنين. وكان يحيى بن نفيسٍ مولاها صاحب قيان، يغشاه الأشراف
ويسمعون غناء جواريه. ثم اشتريت للمهدي، وهو ولي عهد، بسبعة عشر ألف دينار.
وقيل: إنها ولدت له علية بنت المهدي وقيل: أم علية غيرها.
قال: وكان عبد الله بن
مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير يأتيها فيسمع منها، وكان يأتيها فتيان قريشٍ
فيسمعون منها. فقال عبد الله بن مصعب حين قدم المنصور منصرفاً إلى الحج ومر بالمدينة
يذكر بصبص:

أراحلٌ أنت أبا جعفرٍ من قبل أن تسمع من بصبصا
هيهات أن تسمع منها إذا جاوزت العيس بك الأعوصا
فخذ عليها مجلسي لذةٍ ومجلساً من قبل أن تشخصا
أحلف بالله يميناً ومن يحلف بالله فقد أخلصا
لو أنها تدعو إلى بيعةٍ بايعتها ثم شققت العصا

فبلغ الشعر أبا جعفرٍ المنصور، فغضب ودعاه، فقال: أما إنكم يا آل الزبير قديماً ما قادتكم
النساء وشققتم معهن العصا، حتى صرت أنت آخر الحمقى تبايع المغنيات! فدونكم يا آل
الزبير هذا المرتع الوخيم.
وقال هارون بن محمد بن عبد الملك وهو ابن ذي الزوائد فيها:

بصبص أنت الشمس مزدانةً فإن تبدلت فأنت الهلال
سبحانك اللهم ما هكذا فيما مضى كان يكون الجمال
إذا دعت بالعود في مشهدٍ وعاونت يمنى يدها الشمال
غنت غناءً يستفز الفتى حذقاً وزان الحذق منها الدلال

قال: وهوى محمد بن عيس الجعفري بصبص فهام بها وطال ذلك عليه، فقال لصديقٍ له:
قد شغلتني هذه عن صنعتي وكل أمري، وقد وجدت مس السلو عنها، فاذهب بنا إليها
حتى أكاشفها ذلك وأستريح. فأتياها، فلما غنتهما قال لها محمد بن عيسى: أتغنين:

وكنت أحبكم فسلوت عنكم عليكم في دياركم السلام

فقالت: لا، ولكني أغني:

تحمل أهلها عنها فبانوا على آثار من ذهب العفاء

قال: فاستحيا وازداد بها كلفاً ولها عشقاً، فأطرق ساعةً ثم قال لها: أتغنين:

وأخضع بالعتبى إذا كنت مذنباً وإن أذنبت كنت الذي أتنصل

قال: نعم، وأغني أحسن منه:

فإن تقبلوا بالود نقبل بمثله وننزلكم منا بأقرب منزل

فتقاطعا في بيتين وتواصلا في بيتين، وما شعر بهما أحد.
قال: وحضر أبو السائب المخزومي مجلساً فيه بصبص، فغنت:
قلبي حبيسٌ عليك موقوف والعين عبرى والدمع مذروف
والنفس في حسرةٍ بغصتها قد شف أرجائها التساويف
إن كنت بالحسن قد وصفت لنا فإنني بالهوى لموصوف
يا حسرتا حسرةً أموت بها إن لم يكن لي إليك معروف
قال: فطرب أبو السائل ونعر وقال: لا عرف الله من لا يعرف لك معروفك، ثم أخذ قناعها
ووضعه على رأسه وجعل يبكي ويلطم ويقول لها: بأبي أنت! والله إني لأرجو أن تكوني
عند الله أفضل من الشهداء لما توليناه من السرور، وجعل يصيح: واغوثاه! يا لله ما يلقى
العاشقون!.
وقال عثمان بن محمد الليثي: كنت يوماً في منزل ابن النفيس، فخرجت إلينا جاريته
بصبص، وكان في القوم فتًى يحبها، فسألته حاجةً فقام ليأتيها بها، فنسي أن يلبس نعله
ومضى حافياً. فقالت له: يا فلان، نسيت نعلك، فرجع فلبسها وقال: أنا والله كما قال
الأول:
وحبك ينسيني عن الشيء في يدي ويشغلني عن كل شيءٍ أحاوله
فأجابته فقالت:
وبي مثل ما تشكوه مني وإنني لأشفق من حبٍ لذاك تزايله
أخبار جواري ابن رامين
وهن سلامة الزرقاء، وربيحة، وسعدة
قال أبو الفرج: وابن رامين هو عبد الملك بن رامين مولى عبد الملك بن بشر ابن مروان.
وكان له جوارٍ مغنياتٌ مجيدات، وهن سلامة الزرقاء، وربيحة، وسعدة. وفيهن يقول
إسماعيل بن عمار قصيدته التي أولها:
هل من شفاءٍ لقلبٍ لج محزون صبا وصب إلى رئم ابن رامين
إلى ربيحةٍ إن الله فضلها بحسنها وسماعٍ ذي أفانين
نعم شفاؤك منها أن تقول لها قتلتني يوم دير اللج فأحييني
أنت الطبيب لداءٍ قد تلبس بي من الجوى فانفثني في في وارقيني
نفسي تأبى لكم إلا طواعيةً وأنت تحمين أنفاً أن تطيعيني
لم أنس سعدة والزرقاء يومهما باللج شرقيه فوق الدكاكين
يغنيان ابن رامينٍ ضحاءهما بالمسجحي وتشبيب المحبين
فما دعوت به فيً عيش مملكةٍ ولم نعش يومنا عيش المساكين

وهي أبياتٌ طويلة، وله فيهن غيرها.
قال: واشترى جعفر بن سليمان بن علي سلامة الزرقاء بثمانين ألف درهم، وقيل: إنه
اشترى ربيحة بمائة ألف درهم، والأول الأصح. وقيل: إن الذي اشترى ربيحة محمد بن
سليمان، واشترى صالح بن علي سعدة بتسعين ألف درهم.
وقيل: اشترى معهن بن زائدة
إحداهن. قال: وكانت سلامة الزرقاء عاقلةً شكلة. قال: ولما اشتراها جعفر ومضت لها
مدةٌ عنده، سألها يوماً: هل ظفر أحدٌ منك قط ممن كان يهواك بخلوةٍ أو قبلة؟ فخشيت أن
يبلغه شيءٌ كانت قد فعلته بحضرة جماعةٍ أو يكون قد بلغه شيء، فقالت: لا والله إلا يزيد
بن عون العبادي الصيرفي، فإنه قبلني قبلةً وقذف في في لؤلؤةً بعتها بثلاثين ألف درهم. فلم
يزل جعفر بن سليمان يحتال له حتى وقع به فضربه بالسياط حتى مات.
وقد روى أبو الفرج الأصفهاني في خبر يزيد بن عون هذا بسندٍ رفعه إلى عبد الحمن بن
مقرون أنه اجتمع هو وروح بن حاتم عند ابن رامين، وان الزرقاء خرجت عليهم في إزارٍ
ورداءٍ قهويين موردين، كأن الشمس طالعةٌ بين رأسها وكعبها.
قال: فغنتنا ساعة، ثم جاء
الخادم الذي كان يأذن لها - وكان الإذن عليها دون مولاها - فقام على الباب وهي تغني،
حتى إذا قطعت الغناء نظرت إليه فقالت: مه! قال: يزيد بن عون العبادي الصيرفي الملقب
بالماجن على الباب. قالت: ائذن له. فلما استقبلها طفر ثم أقعى بين يديها، فوجدت والله
له، ورأيت أثر ذلك، وتنوقت تنوقاً خلاف ما كان تفعل بنا.
فأدخل يده في ثوبه فأخرج
لؤلؤتين فقال: انظري يا زرقاء، جعلت فداك! ثم حلف أنه نقد فيهما بالأمس أربعين ألف
درهم. قال: فما أصنع بك؟ قال: أردت أن تعلمي. فغنت صوتاً ثم قالت: يا ماجن
هبهما لي! قال: إن شئت والله فعلت. قال: قد شئت. قال: فاليمين التي حلفت بها لازمةٌ
لي إن أخذتهما إلا بشفتيك من شفتي. فقال ابن رامين للغلام: ضع لي ماءً ثم خرج عنا،
فقالت: هاتهما. فمشى على ركبتيه وكفيه وهما بين شفتيه وقال: هاك، فلما ذهبت

تتناولهما جعل يصد عنها يميناً وشمالاً ليستكثر منها، فغمزت جاريةً على رأسها،
فخرجت كأنها تريد حاجةً ثم عطفت عليه، فلما دنا وذهب ليروغ دفعت منكبيه
وأمسكتهما حتى أخذت الزرقاء اللؤلؤتين بشفتيها من فمه ورشح جبينها عرقاً حياءً منا.
ثم تجلدت علينا فأقبلت عليه وقالت: المغبون في استه عود.
فقال: فأما أنا فلا أبالي، والله
لا يزال طيب هذه الرائحة في أنفي وفمي ما حييت.
قال: واجتمع عند ابن رامين معن بن زائدة وروح بن حاتم وابن المقفع. فلما تغنت الزرقاء
وسعدة بعث معن فجيء ببدرةٍ فصبها بين يديها، وبعث ورح فجيء ببدرةٍ فصبها بين يديها،
ولم تكن عند ابن المقفع دراهم، فبعث فجاء بصك ضيعةٍ، وقال: هذه عهدةُ ضيعتي
خذيها ، فأما الدراهم فما عندي منها شيء. وشربت زرقاء دواءً فأهدى لها ابن المقفع
ألف دراجة.
وعن إسحاق بن إبراهيم قال: كان روح بن حاتم بن المهلب كثير الغشيان لمنزل ابن رامين،
وكان يختلف إلى الزرقاء، وكان محمد بن جميل يهواها وتهواه، فقال لها: إن روح بن حاتم قد
ثقل علينا. قال: فما أصنع وقد غمر مولاي ببره! قال: احتالي له. فبات عندهم روح
ليلةً، فأخذت سراويله وهو نائمٌ فغسلته. فلما أصبح سأل عنه، فقالت: غسلناه. فظن أنه
أحدث فيه فاحتيج إلى غسله فاستحيا من ذلك فانقطع عنهم، وخلا وجهها لابن جميل.
أخبار عنان جارية الناطفي
قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت عنان مولدةً من مولدات اليمامة، وبها نشأت وتأدبت،
واشتراها الناطفي ورباها. وكان صفراء جميلة الوجه شكلةً مليحة الأدب والشعر سريعة
البديهة، وكان فحول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم. ولها مع أبي نواسٍ
الحسن بن هانئ وغيره من الفضلاء والشعراء ماباةٌ ومراجعات، نذكر منها طرفا.
قال أبو الحبش: قال لي الناطفي: لو جئت إلى عنان فطارحتها! فعزمت على الغدو إليها،
وبت ليلتي أحوك بيتين، ثم غدوت عليها فأنشدتها:
أحب الملاح البيض قلبي وربما أحب الملاح الصفر من ولدا الحبش

بكيت على صفراء منهن مرةً بكاءً أصاب العين مني بالعمش
فقالت عنان:
بكيت عليها إن قلبي يحبها وإن فؤادي كالجناحين ذو رعش
تعنيتنا بالشعر لما أتيتنا فدونك خذه محكماً يا أبا حبش
وقال مروان بن أبي حفصة: لقيني الناطفي فدعاني إلى عنان، فانطلقت معه. فدخل إليها
قلبي فقال: جئتك بأشعر الناس مروان بن أبي حفصة، فوجدها عليلةً فقالت: إني عن
مروان لفي شغل. فأهوى إليها بسوطٍ فضربها، وقال لي: ادخل، فدخلت وهي تبكي،
فرأيت الدموع تتحدر من عينيها، فقلت:
بكت عنان فجرى دمعها كالدر إذ يسبق من خيطه
فقالت مسرعةً:
فليت من يضربها ظالماً تيبس يمناه على سوطه
قال مروان: فقلت: أعتق ما أملكك إن كان في الجن والإنس أشعر منها.
وقال أحمد بن معاوية قال لي رجلٌ: تصفحت كتباً فوجدت فيها بيتاً جهدت جهدي أن
أجد من يجيزه فلم أجد. فقال لي صديقٌ لي: عليك بعنان جارية الناطفي، فأتيتها
فأنشدتها البيت وهو:
وما زال يشكو الحب حتى رأيته تنفس من أحشائه وتكلما
فلم تلبث أن قالت:
ويبكي فأبكي رحمةً لبكائه، إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
وقال موسى بن عبد الله التميمي: دخل أبو النواس على الناطفي وعنان جالسةٌ تبكي،
وقد كان الناطفي ضربها، فأومأ إلى أبي نواس أن حركها بشيء، فقال أبو نواس:
عنان لو وجدت لي فإني من عمري في آمن الرسول بما
فقالت:
فإن تمادى ولا تماديت في قطعك حبلي أكن كمن ختما
فقال أبو نواس:
علقت من لو أتى على أنفس ال ماضين والغابرين ما ندما
فقالت:
لو نظرت عينها إلى حجرٍ ولد فيه فتورها سقما
وقال أبو جعفر النخعي: كان العباس بن الأحنف يهوى عنان جارية الناطفي. فجاءني
يوماً فقال لي: امض بنا إلى عنان. فصرنا إليها، فرأيتها كالمهاجرة له، فجلسنا قليلاً، ثم
ابتدأ العباس فقال:
قال عباسٌ وقد أج هد من وجدٍ شديد
ليس لي صبرٌ على الهج ر ولا لذع الصدود

لا ولا يصبر للهج ر فؤادٌ من حديد
فقالت عنان:
من تراه كان أغنى منك عن هذا الصدود
بعد وصلٍ لك مني فيه إرغام الحسود!
فاتخذ للهجر إن شئ ت فؤاداً من حديد
ما رأيناك على ما كنت تجني بجليد
فقال عباس:
لو تجودين لصبٍ راح ذا وجدٍ شديد
وأخي جهلٍ بما قد كان يجني بالصدود
ليس من أحدث هجراً لصديقٍ بسديد
ليس منه الموت إن لم تصليه ببعيد
قال: فقلت للعباس: ويحك! ما هذا الأمر؟ قال: أنا جنيت على نفسي بتتايهي عليها.
فلم أبرح حتى ترضيتها له.
وقال الأصمعي: بعثت إلي أم جعفر أن أمير المؤمنين قد لهج بذكر هذه الجارية عنان، فإن
صرفته عنها فلك حكمك. قال: فكنت أربع لأن أجد للقول فيها موضعاً فلا أجده ولا
أقدم عليه هيبةً له، إذ دخلت يوماً فرأيت في وجهه أثر الغضب فانخزلت. فقال: مالك يا
أصمعي؟ قلت: رأيت في وجه أمير المؤمنين أثر الغضب، فلعن الله من أغضبه! فقال:
هذا الناطفي، والله لو لا أني لم أجر في حكمٍ قط متعمداً لجعلت على كل جبلٍ منه قطعة!
ومالي في جاريته من رأب غير الشعر. قال الأصمعي: فذكرت رسالة أم جعفر فقلت: أجل،
والله ما فيها غير الشعر، أفيسر أمير المؤمنين أن يجامع الفرزدق! فضحك حتى استلقى.
واتصل قولي بأم جعفر فأزجلت لي الجائزة.
وقال يعقوب بن إبراهيم: طلب الرشيد من الناطفي جاريته، فأبى أن يبيعها بأقل من مائة
ألف دينار. فقال الرشيد: أعطيك مائة ألف دينارٍ على أن تأخذ الدينار بسبعة دراهم،
فامتنع عليه، فأمر أن تحمل إليه. فذكروا أنها دخلت مجلسه في هيئتها، فقال الرشيد
ويلك! إن هذا قد اعتاص علي في أمرك. فقالت: ما منعك أن توفيه وترضيه؟ فقال:
ليس يقنع بما أعطيه، وأمرها بالانصراف. فتصدق الناطفي حين رجعت إليه بثلاثين ألف
درهم. فلم تزل في قلب الرشيد حتى مات مولاها. فلما مات بعث الرشيد مسروراً

الخادم، فأخرجها إلى باب الكرخ وأقامها على سريرٍ وعليها رداءٌ سندي قد جللها، فنودي
عليها فيمن يزيد بعد أن شاور الفقهاء فيها، فقالوا: هذه كبدٌ رطبة وعلى الرجل دين،
فأشاروا ببيعها. وكانت تقول وهي على المصطبة: أهان الله من أهانني وأرذل من أرذلني!
فوكزها مسرورٌ بيده. وبلغ بها مسرورٌ مائتي ألف درهم، فجاء رجلٌ فقال: علي زيادة
خمسةٍ وعشرين ألف درهم، فوكزه مسرور وقال: أتزيد على أمير المؤمنين! فبلغ بها مائتين
وخمسين ألف درهم وأخذ مالها. قال: ولم يكن فيها عيبٌ يعاب، فطلبوا لها عيباً لا
تصيبها العين، فأوقعوا بخنصر رجلها في ظفره شيئاً. قال: وأولدها الرجل الذي اشتراها
ولدين، ثم خرج بها إلى خراسان فمات هناك وماتت بعده.

أخبار شارية جارية إبراهيم بن المهدي

قال أبو الفرج: كانت شارية مولدةً من مولدات البصرة. يقال: إن أباها كان من بني سامة
بن لؤي المعروفين ببني ناجية، وإنه جحدها. وكانت أمها أمة، فدخلت في الرق. وقيل:
وإن أمها كانت تدعي أنها بنت محمد بن زيد من بني سامة ابن لؤي، وقيل: إنها أنها كانت
تدعي أنها من بني زهرة، وقيل: بل سرقت فبيعت، فاشترتها امرأةٌ من بني هشامٍ فأدبتها
وعلمتها الغناء، ثم اشتراها إبراهيم بن المهدي، فأخذت عنه غنائه كله أو أكثره. وبذلك
يحتج من يقدمها على عريبٍ ويقول: إن إبراهيم خرجها، وكان يأخذها بصحة الأداء لنفسه
وبمعرفة ما يأخذها به، ولم تلق عريب ذلك، لأن المراكبي لم يكن يقارب إبراهيم في العلم ولا
يقاس به في بعضه فضلاً عن سائره.

قال: ولما عرضتها مولاتها الهاشمية للبيع ببغداد عرضت على إسحاق بن إبراهيم
الموصلي فأعطى فيها ثلاثمائة دينار، ثم استغلاها بذلك ولم يردها. فجئ بها إلى إبراهيم
بن المهدي فساوم بها، فقالت له مولاتها: إن إسحاق بن إبراهيم أعطى بها ثلاثمائة دينارٍ
وأنت أحق بها. فقال: زنوا لها ما قالت فوزن لها. ثم دعا بقيمته فقال: خذي هذه الجارية
ولا تزينيها سنةً، وقولي للجواري يطرحن عليها. فلما كان بعد سنةٍ أخرجت إليه، فنظر

إليها وسمع منها، فأرسل إلى إسحاق بن إبراهيم، فلما أتاه أراه إياها وأسمعه غناءها،
وقال: هذه جاريةٌ تباع، فبكم تأخذها لنفسك؟ قال إسحاق: آخذها بثلاثة آلف دينارٍ
وهي رخيصةٌ بها. فقال له إبراهيم: أتعرفها؟ قال: لا. قال: هذه الجارية التي عرضتها
الهاشمية بثلاثمائة دينارٍ فلم تقبلها. فعجب إسحاق من حالها وما صارت إليه.
وقد حكي عن هبة الله بن إبراهيم بن المهدي أنها عرضت ببغداد على إبراهيم
فأعجب بها إعجاباً كبيراً، فلم يزل يعطى بها حتى بلغت ثمانية آلاف درهم. قال: ولم يكن
عند أبي درهم ولا دانق، فقال لي : ويحك! قد والله أعجبتني هذه الجارية إعجاباً شديداً،
وليس عندي شيءٌ. فقلت له: بع ما تملكه حتى الخزف وتجمع ثمنها. فقال لي: قد تذكرت
في شيءٍ، اذهب إلى علي ابن هشام فأقرئه مني السلام، وقل له: قد عرضت علي جاريةٌ
وقد أخذت بمجامع قلبي، وليس عندي شيء، فأحب أن تقرضني عشرة آلاف درهم.
فقلت: إن ثمنها ثمانية آلاف درهم، فلم نكثر على الرجل بعشرة آلاف درهم! فقال: إذا
اشتريتها بثمانية آلاف درهم فليس لنا بدٌ من أن نكسوها ونقيم لها ما تحتاج إليه. قال:
فصرت إلى علي بن هشام وأبلغته الرسالة، فدعا بوكيلٍ له وقال: ادفع إلى خادمه عشرين
ألف درهم، وقل له: أنا لا أصلك، ولكن هي لك حلالٌ في الدنيا والآخرة. قال: فصرت إلى
أبي بالدراهم، فلو طلعت عليه بالخلافة لم تكن تعدل عنده تلك الدراهم. قال: وكانت أمها
خبيثة، وكانت كلما لم يعط إبراهيم ابنتها ما تشتهي ذهبت إلى عبد الوهاب بن علي،
ودفعت إليه رقعةً يوصلها إلى المعتصم تسأله أن تأخذ ابنتها من إبراهيم.
وحكي عن يوسف بن إبراهيم المصري صاحب إبراهيم بن المهدي أن إبراهيم وجه به
إلى عبد الوهاب بن علي في حاجةٍ كانت له. قال: فلقيته وانصرفت من عنده، فلم أخرج
من دهليز عبد الوهاب حتى استقبلتني امرأةٌ، فلما نظرت في وجهي سترت وجهها،
فأخبرني شاكريٌ أن المرأة أم شارية جارية إبراهيم. فبادرت إلى إبراهيم وقلت له: إني

رأيت أم شارية في دار عبد الوهاب، وهي من تعلم، وما يفجؤك إلا حيلةٌ قد أوقعتها. فقال
لي: اشهد أن جاريتي شارية صدقةٌ على ميمونة بنت إبراهيم بن المهدي، ثم أشهد ابنه
هبة الله على مثل ما أشهدني، وأمرني بالركوب إلى ابن أبي دواد وإحضار من قدر عليه
من الشهود المعدلين عنده، فأحضر أكثر من عشرين شاهداً. وأمر بإخراج شارية
فأخرجت. فقال لها : استري وجهك، فجزعت عن ذلك، فأعلمها أنما أمرها بذلك لخيرٍ
يريده لها ففعلت. فقال لها: تسمي، فقالت: أنا أمتك. فقال لهم: تأملوا وجهها ففعلوا. ثم
قال: فإني أشهدكم أنها حرةٌ لوجه الله تعالى، وأني قد تزوجتها وأصدقتها عشرة آلاف
درهم، يا شارية أرضيت؟ قالت: نعم يا سيدي، قد رضيت، والحمد لله تعالى على ما
أنعم به علي. فأمرها بالدخول، وأطعم الشهود وطيبهم وانصرفوا. قال: فما أحسبهم
تجاوزوا دار ابن أبي دواد حتى دخل علينا عبد الوهاب بن علي ، فأقرأ عمه سلام
المعتصم، ثم قال له: يقول لك أمير المؤمنين: من المفترض علي طاعتك وصيانتك من كل ما
يسوءك، إذ كنت عمي وصنو أبي. وقد رفعت امرأةٌ إلى قصةً ذكرت فيها أن شارية
ابنتها، وأنها امرأةٌ من قريش من بني زهرة، واحتجت بأنه لا تكون بنت امرأة من قريش
أمة. فإن كانت هذه المرأة صادقةً في أن شارية بنتها، وأنها من بني زهرة، فمن المحال أن
تكون شارية أمة. والأشبه بك والأصلح إخراج شارية من دارك وتصييرها عند من تثق به
من أهلك، حتى يكشف عما قالته هذه المرأة. فإن ثبت ذلك أمرت من جعلتها عنده
بإطلاقها، وكان في ذلك الحظ لك في دينك ومروءتك. وإن لم يصح ذلك أعيدت الجارية
إليك وقد زال عنك القول الذي لا يليق بك ولا يحسن. فقال إبراهيم: فديتك، هب شارية
بنت زهرة بنت كلاب، أينكر علي ابن العباس بن عبد المطلب أن يكون بعلاً لها؟! فقال
عبد الوهاب: لا. فقال: أبلغ أمير المؤمنين - أبقاه الله - السلام، وأخبره أن شارية حرة،
وأني قد تزوجتها بشهادة جماعةٍ من العدول. وقد كان الشهود واعلموا ابن أبي دواد

بالقصة، فركب إلى المعتصم وحدثه بالحديث معجباً له منه، فقال: ضل سعي عبد
الوهاب. ثم دخل عبد الوهاب على المعتصم. فلما رآه يمشي في صحن الدار سد
المعتصم أنفه وقال: يا عبد الوهاب، أنا أشم رائحة صوفٍ محرق، وأحسب عمي لم يقنعه
ردك على أذنك صوفةٌ حتى أحرقها، فشممت رائحتها منك.
فقال: الأمر على ما ظن أمير
المؤمنين وأسمح. قال: ثم ابتاع إبراهيم من بنته ميمونة شارية بعشرة آلاف درهم وستر
ذلك عنها، فكان عتقه إياها وهي في ملك غيره، ثم ابتاعها من ميمونة فحلت له، فكان
يطؤها بملك اليمين وهي تتوهم أنها زوجته. فلما توفي طلبت شارية مشاركة أم محمد بنت
خالد زوجة إبراهيم في الثمن، فأظهرت خبرها، فأمر المعتصم بابتياعها من ميمونة بخمسة
آلافٍ وخمسمائة دينارٍ فحولت إلى داره، وكانت في ملكه حتى توفي. وقال ابن المعتز: وقد
قيل: إن المعتصم ابتاعها بثلاثمائة دينار، وملكها إبراهيم ولها سبع سنين ورباها تربية
الولد.
قال: وحدثت شارية أنها كانت مع إبراهيم في حراقةٍ قد توسط بها دجلة في ليلةٍ مقمرة،
فاندفعت فغنت:

لقد حثوا الجمال ليه ربوا منا فلم يئلوا

فوثب إليها فأمسك فاها فقال: أنت والله أحسن من الغريض وجهاً وغناءً، فما يؤمنني
عليك! أمسكي.
ويقال: إنها لم تضرب بالعود إلا في أيام المتوكل لما اتصل الشر بينها وبين عريب، فصارت
تقعد بها عند الضرب، فضربت بعد ذلك.
قال ابن المعتز: وحدث محمد بن سهل بن عبد الكريم المعروف بسهلٍ الأحول، وكان
قاضي الكتاب في زمانه، كان يكتب لإبراهيم وكان ثقةً، قال: أعطى المعتصم إبراهيم
بشارية سبعين ألف دينار، فامتنع من بيعها. قال: فعاتبته على ذلك، فلم يجبني بشيء. ثم
دعاني بعد أيامٍ وبين يديه مائدةٌ لطيفة، فأحضر الغلام سفوداً فيه ثلاث فراريج، فرمى إلي
بواحدةٍ فأكلتها وأكل اثنتين، ثم شرب رطلاً وسقاني، ثم أتى بسفودٍ آخر ففعل كما فعل

وشرب كما شرب وسقاني، ثم ضرب سترٌ إلى جانبه فسمعت حركة العيدان، ثم قال: يا
شارية تغني، فسمعت شيئاً ذهب بعقلي. فقال: يا سهل، هي التي عاتبتني في أن أبيعها
بسبعين ألف دينار، لا والله ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار!
وحكي عن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال: أمرني المعتز بالله ذات يومٍ بالمقام عنده
فأقمت، ومدت الستارة وخرج من كان يغني وراءها وفيهن شارية، ولم أكن سمعتها قبل ذلك
فاستحسنت ما سمعت منها، وقال لي المعتز: يا عبيد الله، كيف ما تسمع منها عندك؟
فقلت: حظ العجب من هذا الغناء أكثر من حظ الطرب، فاستحسن ذلك، وأخبرها به
فاستحسنته. قالوا: وكانت شارية أحسن الناس غناءً منذ توفي المعتصم إلى آخر
خلافة الواثق. وقيل: إن إبراهيم بن المهدي لم يطأ شارية، وإن الذي افتضها المعتصم.
وكان إبراهيم يسمي شارية بنتي.
وقال يعقوب بن بيان: كانت شارية لصالح بن وصيف. فلما بلغه رحيل موسى بن بغا من
الجبل يريده بسبب قتل المعتز، أودع شارية جوهره، فظهر لها جوهر كثير بعد ذلك. فلم
أوقع موسى بصالح استترت شارية عند هارون بن شعيب العكبري، وكان أنظف خلق الله
طعاماً وأسراهم مائدةً، وأوسخهم كل شيءٍ بعد ذلك، وكان له بسر من رأى منزله وفيه
بستانٌ كبيرٌ، وكانت شارية تسميه أبي، وتزوره في منزله فتحمل معها كل شيءٍ تحتاج إليه
حتى الحصير تقعد عليه. وكانت من أكرم الناس. عاشرها أبو الحسن علي بن الحسين
عند هارون هذا، ثم أضاق في وقتٍ فاقترض منها على غير رهنٍ عشرة آلف دينارٍ
فأقرضته، ومكثت أكثر من سنةٍ ما أذكرته بها ولا طالبته بردها.
قال يعقوب بن بيان: وكان الناس بسر من رأى محتازبين، فقومٌ مع شارية، وقومٌ مع عريب، لا
يدخل أصحاب هذه في هؤلاء، ولا أصحاب هذه في هؤلاء. وكان أبو الصقر إسماعيل بن
بلبل عريبياً، فدعا على بن الحسين يوم الجمعة أبا الصقر وعنده عريب وجواريها. فاتصل
الخبر بشارية فبعثت بجواريها إلى علي ابن الحسين بعد يومٍ أو يومين، وأمرت إحداهن -

قال: وما أدري من هي: مهرجان أو مطرب أو قمرية، إلا أنها إحدى الثلاث - أن تغنيه:

لا تعودن بعدها فترى كيف أصنع

فلما سمع الغناء ضحك وقال: لست أعود.

قال: وكان المعتمد قد وثق بشارية فلم يكن يأكل إلا طعامها، فمكثت دهراً تعد له كل يوم
جونتين، فكان طعامه منهماً في أيام المتوكل.

وقال أبو الفرج: حدثني جحظة قال: كنت عند المعتمد يوماً فغنت شارية بشعر مولاها
إبراهيم بن المهدي ولحنه:

يا طول علة قلبي المعتاد إلف الكرام وصحبة الأمجاد

ما زلت آلف كل قرمٍ ماجدٍ متقدم الآباء والأجداد

فقال لها: أحسنت والله! فقالت: هذا غنائي وأنا عارية، فكيف لو كنت كاسيةً! فأمر
لها بألف ثوبٍ من جميع أصناف الثياب الخاصة، فحمل ذلك إليها.

فقال لي علي بن
الحسين بن يحيى المنجم: اجعل انصرافك معي، ففعلت. فقال لي: هل بلغك أن خليفةً أمر
لمغنيةٍ بمثل ما أمر به أمير المؤمنين اليوم لشارية؟ قلت: لا.

فأمر بإخراج سير الخلفاء،
فأقبل بها الغلمان في دفاترٍ عظام، فتصفحناها كلها فما وجدنا أحداً قبله فعل مثل ذلك.

انقضت أخبار شارية.

أخبار بذل

قال أبو الفرج: كانت بذل صفراء مولدةً من مولدات المدينة وربيت بالبصرة، وهي إحدى
المحسنات المتقدمات الموصوفات بكثرة الرواية. يقال: إنها كانت تغني ثلاثين ألف صوت.

قال: ولها كتابٌ في الغاني منسوب الأصوات غير مجنس يشتمل على اثني عشر ألف صوت،
يقال: إنها عملته لعلي بن هشام. قال: وكانت حلوة الوجه ظريفةً ضاربةً متقدمة. وابتاعها
جعفر بن موسى الهادي، فأخذها منه محمد الأمين وأعطاه مالاً جزيلاً. وأخذت بذل عن
أبي سعيد مولى فائد ودحمان وفليح وابن جامع وإبراهيم وطبقتهم.

وقال جحظة عن أبي حشيشة: وكانت احسن الناس غناءً في دهرها، وكانت أستاذة كل
محسنٍ ومحسنةٍ، وكانت أروى خلق الله للغناء. وكانت لجعفر بن موسى الهادي، فوصفت
لمحمد الأمين، فبعث إلى جعفر فسأله أن يزيره إياها فأبى، فأتاه الأمين إلى منزله فسمع ما لم

يسمع مثله قط، فقال لجعفر: يا أخي، بعني هذه الجارية. فقال له: يا سيدي، مثلي لا يبيع
جارية. قال: هبها لي. قال: هي مدبرة. فاحتال الأمين عليه حتى أسكره وأمر بحمل بذلٍ
إلى الحراقة وانصرف بها. فلما أفاق جعفر سأل عنها، فأخبر بالخبر، فسكت. فبعث إليه
محمد من الغد، فجاء وبذل جالسةٌ فلم يقل شيئاً. فلما أراد جعفر أن ينصرف قال الأمين:
أوقروا حراقة ابن عمي دراهم فأوقرت، فكان مبلغ ذلك عشرين ألف ألف درهم. وبقيت
بذل عند الأمين إلى أن قتل، ثم خرجت فكان ولد جعفر وولد الأمين يدعون ولاءها، فلما
مات ورثها ولد الأمين.
وقال محمد بن حسن الكاتب: إن الأمين وهبها من الجوهر ما لم يملك أحدٌ مثله، فسلم لها
بعد مقتل الأمين، فكانت تبيع منه الشيء بعد الشيء بالمال العظيم، فكانت على ذلك مع
ما يصل إليها من الخلفاء إلى أن ماتت وعندها منه بقيةٌ عظيمة.
قال: ورغب إليها وجوه
القواد والكتاب والهاشميين في التزويج فأبته، وأقامت على حالها حتى ماتت.
وحكى أبو حشيشة قال: كنت يوماً عند بذل وأنا غلام، وذلك في أيام المأمون وهو
ببغداد، وهي في طارمة لها تتمشط، فخرجت إلى الباب فرأيت الموكب فظننت أن الخليفة
يمر على ذلك الموضع، فرجعت إليها فقلت: يا سيدتي، الخليفة يمر على بابك. فقالت:
انظروا أي شيءٍ هذا، إذ دخل بوابها فقال: علي بن هشام بالباب. فقالت: وما أصنع به!
فقامت إليها جاريتها وشيك، وكانت ترسلها إلى الخليفة وغيره في حوائجها، فأكبت على
رجلها وقالت: الله! الله! أتحتجبين على علي بن هشام! فدعت بمنديلٍ فطرحته على
رأسها ولم تقم إليه. فقال: إني جئتك بأمر سيدي أمير المؤمنين، وذلك أنه سألني عنك
فقلت له: لم أرها منذ أيام، فقال: هي عليك غضبى، فبحياتي لا تدخل منزلك حتى تدخل
إليها فتسترضيها!. فقالت: إن كنت جئتنا بأمر الخليفة فأنا أقوم، فقامت فقبلت رأسه
ويديه، وقعد ساعةً وانصرف. فقالت: يا وشيك، هاتي الدواة وقرطاساً ففعلت، فجعلت

تكتب فيه يومها وليلتها حتى كتبت اثني عشر ألف صوت -وقيل: سبعة آلاف صوت -
ثم كتبت إليه: يا علي بن هشام، تقول: استغنيت عن بذلٍ بأربعة آلاف صوت أخذناها
منها! وقد كتبت هذا وأنا ضجرة، فكيف لو فرغت لك قلبي كله!. وختمت الكتاب
وقالت لها: امضي به إليه. فما كان أسرع من أن جاء رسوله خادمٌ أسودٌ يقال له مخارق
بالجواب يقول فيه: يا سيدتي، لا والله ما قلت الذي بلغك، ولقد كذب علي عندك، إنما
قلت: لا ينبغي أن يكون في الدنيا أكثر من أربعة آلاف صوت، وقد بعثت إلي بديوانٍ لا
أؤدي شكرك عليه أبداً، وبعث إليها بعشرة آلاف درهم وتخوتٍ فيها بز ووشي وملح
وتختاً مطبقاً فيه أنواع الطيب.
وقيل: إن إبراهيم بن المهدي كان يعظمها، ثم يرى أنه يستغني عنها بنفسه. فصارت إليه،
فدعت بعودٍ فغنت في طريقةٍ واحدةٍ وانقطاعٍ واحدٍ وإصبعٍ واحدةٍ مائة صوتٍ لم يعرف
إبراهيم منها صوتاً واحداً، ثم وضعت العود وانصرفت، ولم تدخل داره حتى طال طلبه
لها وتضرعه إليها في الرجوع إليه.
وقال أحمد بن سعيد المالكي: إن إسحاق بن إبراهيم الموصلي خالف بذلاً في نسبة
صوتٍ غنته بحضرة المأمون، فأمسكت عنه ساعةً ثم غنت ثلاثة أصواتٍ في الثقيل الثاني
واحداً بعد واحد، وسألت إسحاق عن صانعها فلم يعرفه. فقالت للمأمون: هي والله لأبيه
أخذتها من فيه، فإذا كان لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره! فاشتد ذلك على
إسحاق حتى رئي ذلك فيه.
وقال حماد بن إسحاق: غنت بذل بين يدي أبي:

إن تريني ناحل البدن فلطول الهم والحزن
كان ما أخشى بواحدتي ليته والله لم يكن

قال: فطرب أبي طرباً شديداً وشرب رطلاً وقال لها: أحسنت يا ابنتي، والله لا تغنين
صوتاً إلا شربت عليه رطلاً.
انتهت أخبار بذل.
أخبار ذات الخال
قال أبو الفرج الأصفهاني: واسم ذات الخال خشف، وكانت لأبي الخطاب النحاس

المعروف بقرين مولى العباسة بنت المهدي. وكانت ذات الخال من أجمل النساء وأكملهن،
وكان لها خالٌ فوق شفتها العليا، وقيل على خدها. وكان إبراهيم الموصلي يتعشقها، وله
فيها أشعارٌ كثيرةٌ كان يقولها ويغني فيها حتى شهرها بشعره وغنائه. واتصل خبرها
بالرشيد، فاشتراها بسبعين ألف درهم. فقال لها ذات يومٍ: أسألك عن شيءٍ ، فإن
صدقتني وإلا صدقني غيرك وكذبتك. قالت: أصدقك. قال: هل كان بينك وبين إبراهيم
الموصلي شيءٌ قط؟ وأنا أحلفه أن يصدقني. قال: فسكتت ساعةً ثم قالت: نعم! مرةً
واحدةً، فأبغضها. وقال يوماً في مجلسه: أيكم لا يبالي أن يكون كشخاناً حتى أهبه ذات
الخال؟ فبدر حمويه الوصيف فقال: أنا، فوهبها له. ثم اشتاقها الرشيد يوماً فقال: ويلك يا
حمويه! وهبنا لك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك! فقال: يا أمير المؤمنين ، مر فيها بأمرك. قال: نحن عندك غداً. فمضى فاستعد لذلك واستعار
لها من بعض الجوهريين بدنةً وعقوداً ثمنها اثنا عشر ألف دينار، فأخرجها إلى الرشيد وهي
عليها. فلما رآه أنكره وقال: ويلك يا حمويه! من أين لك هذا؟! ما وليتك عملاً تكسب
فيه مثله ولا وصل إليك مني هذا القدر! فصدقه عن أمره، فبعث الرشيد إلى أصحاب
الجوهر، فأحضرهم واشترى الجوهر منهم ووهبه لها، وحلف ألا تسأله في يومه ذلك حاجةً
إلا قضاها، فسألته أن يولي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين، ففعل ذلك وكتب له
عهده بذلك، وشرط على ولي العهد أن يتممها له إن لم تتم في حياته.
قال الأصفهاني: ولإبراهيم الموصلي في ذات الخال شعرٌ كثيرٌ غنى فيه.
فمنه قوله:

أذات الخال قد طال بمن أسقمته الوجع
وليس إلى سواكم في ال ذي يلقى له فزع
أما يمنعك الإسلا م من قتلي ولا الورع
وما ينفك لي فيك هوًى تغتره خدع

ومنها:

جزى الله خيراً من كفلت بحبه وليس به إلا التموه من حبي
وقالوا قلوب الغانيات رقيقةٌ فما بال ذات الخال قاسية القلب

وقالوا لها هذا حبيبك معرضاً فقالت لهم إعراضه أيسر الخطب
فما هي إلا نظرةٌ بتبسمٍ فتنشب رجلاه ويسقط للجنب
وله فيها أشعارٌ كثيرةٌ غير ما أوردناه.
أخبار دنانير البرمكية
قال أبو الفرج: كانت دنانير مولاة يحيى بن خالد البرمكي، وكانت صفراء مولدة، من
أحسن الناس وجهاً، وأظرفهم وأكملهم أدباً، وأكثرهم روايةً للغناء والشعر، ولها كتابٌ
مجردٌ في الأغاني مشهور. وكان اعتمادها في غنائها على ما أخذته من بذل، وهي
خرجتها، وقد أخذت أيضاً عن الأكابر الذين أخذت بذل عنهم مثل فليح وإبراهيم وابن
الجامع وإسحاق ونظائرهم. وكانت تغني غناء إبراهيم فتحكيه فيه حتى لا يكون بينهما
فرق، فكان يقول ليحيى: متى فقدتني ودنانير باقيةٌ فما فقدتني.
وقال أحمد بن المكي: كانت دنانير لرجلٍ من أهل المدينة، كان قد خرجها وأدبها، وكانت
أروى الناس للغناء القديم، وكانت صفراء صادقة الملاحة. فلما رآها يحيى وقعت من قلبه
موقعاً فاشتراها. وشغف بها الرشيد حتى كان يصير إلى منزل مولاها فيسمعها، فألفها
واشتد إعجابه بها، ووهب لها هباتٍ سنية. منها أنه وهب لها في ليلةٍ عقداً قيمته ثلاثون
ألف دينار، فردته عليه في مصادرة البرامكة بعد ذلك. وعرفت أم جعفر الخبر فشكته إلى
عمومته وأهله، فصاروا جميعاً إليه فعاتبوه، فقال: مالي في هذه الجارية أربٌ في نفسها، وإنما
أربي في غنائها، فاسمعوها، فإن استحقت أن تؤلف لغنائها وإلا فقولوا ما شئتم. فلما
سمعوها عذروه، وعادوا إلى أم جعفرٍ وأشاروا عليها ألا تلح في أمرها، فقبلت ذلك،
وأهدت إلى الرشيد عشر جوارٍ منهن أم المأمون وأم المعتصم وأم صالح.
وقال عمر بن شبة: إن دنانير أصابتها العلة الكلبية فكانت لا تصبر على الطعام ساعةً
واحدة، وكان يحيى يتصدق عنها في كل يومٍ من شهر رمضان بألف دينارٍ لأنها كانت لا
تصومه. وبقيت عند البرامكة مدةً طويلة.
وقال إسحاق وأحمد بن الطيب: إن الرشيد دعا بدنانير بعد البرامكة، فأمرها أن تغني.

فقالت: يا أمير المؤمنين، إني آليت ألا أغني بعد سيدي أبداً. فغضب وأمر بصفعها
فصفعت، وأقيمت على رجليها وأعطيت العود، فأخذته وهي تبكي أحر بكاء، واندفعت
فغنت:

يا دار سلمى بنازح السند من الثنايا ومسقط اللبد
لما رأيت الديار قد درست أيقنت أن النعيم لم يعد

قال: فرق لها الرشيد، وأمر بإطلاقها، فانصرفت.
وقال أبو عبد الله بن حمدون: إن عقيداً مولى صالح بن الرشيد خطب دنانير وشغف بها
فردته، فاستشفع إليها بمولاه صالح بن الرشيد وببذل والحسن بن محرز فلم تجب، وأقامت
على الوفاء لمولاها. فكتب إليها عقيد:

يا دنانير قد تنكر عقلي وتحيرت بين وعدٍ ومطل
شغفي شافعي إليك وإلا فاقتليني إن كنت تهوين قتلي
أنا بالله والأمير وما آ مل من موعد الحسين وبذل
ما أحب الحياة يا حب إن لم يجمع الله عاجلاً بك شملي

فلم يعطفها ذلك عليه، ولم تزل على حالها حتى ماتت. ولعقيدٍ هذا فيها أشعارٌ فيها
غناء. وكان عقيد حسن الغناء، وله فيها أصوات، منها قوله:

هذي دنانير تنساني وأذكرها وكيف تنسى محباً ليس ينساها
أعوذ بالله من هجران جاريةٍ أصبحت من حبها أهذي بذكراها
قد أكمل الحسن في تركيب صورتها فارتج أسفلها واهتز أعلاها
قامت لتمشي فليت الله صورني ذاك التراب الذي مسته رجلاها

والله والله لو كانت، إذا برزت، نفس المتيم في كفيه ألقاها

أخبار عريب المأمونية

قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت عريب مغنيةً محسنة، وشاعرةً صالحة الشعر، وكانت
مليحة الخط والمذهب في الكلام، ونهايةً في الحسن والجمال والظرف وحسن الصوت
وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار والرواية للشعر، لم يتعلق بها أحدٌ من
نظرائها، ولا رئي في النساء - بعد القيان الحجازيات مثل جميلة وعزة الميلاء وسلامة
الزرقاء ومن جرى مجراهن على قلة عددهن - نظيرٌ لها. قال: وكان فيها من الفضائل التي
وصفناها ما ليس لهن مما يكون في مثلها من جواري الخلفاء ومن نشأ في قصور الخلفاء
وغذي برقيق العيش الذي لا يدانيه عيش الحجاز والمنشأ بين العرب العامة والعرب الجفاة.

قال: وقد شهد لها من لا تحتاج مع شهادته إلى غيره، فروي عن حماد بن إسحاق قال قال
أبي: ما رأيت امرأةً أضرب من عريب، ولا أحسن صنعةً ووجهاً، ولا أخف روحاً، ولا
أحسن خطاباً بارعاً، ولا أسرع جواباً، ولا ألعب بالشطرنج والنرد، ولا أجمع لخصلةٍ
حسنةٍ لم أرها في امرأةٍ غيرها قط.
قال حماد: فذكرت ذلك ليحيى بن أكثم، فقال: صدق أبو محمد، هي كذلك. قلت
أفسمعتها؟ قال: نعم، هناك يعني في دار المأمون. قلت: أفكانت كما ذكر أبو محمد في
الحذق؟ قال يحيى: هذه مسئلةٌ الجواب فيها على أبيك، هو أعلم مني بها. فأخبرت أبي
بذلك، فضحك ثم قال: أما استحييت من قاضي القضاة أن تسأله عن مثل هذا!
وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: استدعاني المأمون يوماً فدخلت عليه، فسألني عن
صوتٍ وقال لي: أتدري لمن هو؟ فقلت: أسمعه ثم أخبر أمير المؤمنين إن شاء الله بذلك.
فأمر جاريةً من وراء الستارة أن تغنيه، فضربت فإذا هي قد شبهته بالقديم، فقلت: زدني
معها عوداً آخر. فإنه اثبت لي ، فزادني عوداً آخر. فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا صوتٌ
محدثٌ لامرأةٍ ضاربة. قال: من أين قلت ذلك؟ فقلت: إني لما سمعت لينه عرفت أنه
محدثٌ من غناء النساء، ولما رأيت جودة مقاطعه علمت أن صاحبته ضاربةٌ حفظت
مقاطعه وأجزاءه، ثم طلبت عوداً آخر فلم أشك. قال: صدقت، الغناء لعريب.
وقال ابن المعتز: قال علي بن يحيى: أمرني المعتمد على الله أن أجمع غناء عريب الذي
صنعته، فأخذت منها دفاترها وصحفها التي كانت قد جمعت فيها غنائها، فكتبته فكان
ألف صوت، وقد قيل أكثر من ذلك. وقد وصفها أبو الفرج الأصفهاني وأطنب في وصفها
وتفضيلها، واستدل على ذلك وبسط القول فيه.
وأما ما قيل في نسبها وسنها وكيف تنقلت بها الحال إلى أن اتصلت بالمأمون، فقد روي
عن إسماعيل بن الحسين خال المعتصم أنها ابنة جعفر بن يحيى، وأن البرامكة لما نهبوا
سرقت وهي صغيرةٌ فبيعت. قال أحمد بن عبد الله بن إسماعيل المراكبي: إن أم عريب

كانت تسمى فاطمة، وكانت يتيمة، فتزوجها جعفر بن يحيى بن خالد، فأنكر عليه أبوه،
وقال له: تتزوج بمن لا يعرف لها أمٌ ولا أب! اشتر مكانها ألف جارية. فأخرجها جعفر
وأسكنها في دارٍ في ناحية باب الأنبار سراً من أبيه، ووكل بها من يحفظها، وكان يتردد
إليها، فولدت عريب في سنة إحدى وثمانين ومائة. وكانت سنوها إلى أن ماتت ستاً وتسعين
سنة. قال: وماتت أم عريب في حياة جعفر، فدفعها إلى امرأةٍ نصرانيةٍ وجعلها دايةً لها.
فلما حدثت بالبرامكة تلك الحادثة باعتها من سنبس النخاس، فباعها من المراكبي.
قال ابن المعتز: وأخبرني يوسف بن يعقوب قال: كنت إذا نظرت قدمي عريبٍ شبهتها
بقدمي جعفر بن يحيى. قال: وسمعت من يحكي أن بلاغتها في كتبها ذكرت لبعض
الكتاب، فقال: وما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفرٍ بن يحيى!
هذا ملخص ما حكاه أبو
الفرج في نسبها.
وأما أخبارها مع من ملكها وكيف تنقلت بها الحال، فقد حكى ابن المعتز عن الهاشمي
أن مولاها خرج بها إلى البصرة فأدبها وخرجها وعلمها الخط والنحو والشعر والغناء،
فبرعت في ذلك أجمع، وتزايدت حتى قالت الشعر. وكان لمولاها صديقٌ يقال له حاتم بن
عدي من قواد خراسان، وقد قيل: إنه كان يكتب لعجيفٍ على ديوان العرض، فكان
مولاها يدعوه كثيراً ويخالطه. فركبه دينٌ فاستتر عنده، فمد عينه إلى عريبٍ وكاتبها
فأجابته، ودامت المواصلة بينهما وعشقته، ثم انتقل من منزل مولاها. فلم تزل تحتال حتى
أخذت سلماً من سب، وقيل: من خيوطٍ غلاظ، وكان قد اتخذ لها موضعاً، ثم لفت
ثيابها وجعلتها في فراشها بالليل ودثرتها بدثرها، ثم تسورت الحائط وهربت، وأتته فمكثت
عنده، ومولاها لا يتهمه بشيءٍ من أمرها. فقال عيسى بن عبد الله بن إسماعيل المراكبي
يهجو أباه ويعيره بها - وكان كثيراً ما يهجوه -:

قاتل الله عريباً فعلت فعلاً عجيباً
ركبت والليل داجٍ مركباً صعباً مهيباً
فارتقت متصلاً بالن جم أو منه قريباً
صبرت حتى إذا ما أقصد النوم الرقيبا

مثلت بين حشايا ها، لكي لا تستريبا
خلفاً منها إذا نو دي لم يلف مجيباً
ومضت يحملها الخو ف قضيباً وكثيبا
محةٌ لو حركت خف ت عليها أن تذوبا
فتدلت لمحبٍ فتلقاها حبيبا
جذلاً قد نال في الدن يا من الدنيا نصيبا
أيها الظبي الذي تس حر عيناه القلوبا
والذي يأكل بعضاً بعضه حسناً وطيبا
كنت نهباً لذئابٍ فلقد أطعمت ذيبا
وكذا الشاة إذا لم يك راعيها لبيبا
لا يبالي وبأ المر عى إذا كان خصيبا
ولقد أصبح عبد الل ه كشخاناً جريبا
قد لعمري لطم الخد وقد شق الجيوبا
وجرت منه دموعٌ بلت الذقن الخضيبا
وقال ابن المعتز : وحدثني محمد بن موسى بن يونس: أنها ملته بعد ذلك فهربت منه،
فكانت تغني عند أقوامٍ عرفتهم ببغداد وهي مستترةٌ متخفية.
فلما كان يومٌ من الأيامً اجتاز
ابن أخي المراكبي ببستانٍ كانت فيه مع قومٍ تغني، فسمع غناءها فعرفه، فبعث إلى عمه
وأقام هو مكانه، فلم يبرح حتى جاء عمه وكبسها، فأخذها وضربها مائة مقرعةٍ وهي
تصيح: يا هذا، لم تقتلني! لست أصبر عليك، أنا امرأةٌ حرة، فإن كنت مملوكةً فبعني، لست
أصبر على الضيق. فلما كان من الغد ندم على فعله وصار إليها فقبل رأسها ويدها
ورجلها ووهب لها عشرة آلاف درهم. ثم بلغ محمداً الأمين خبرها فأخذها. قال: وكان
الأمين في حياة أبيه طلبها منه فلم يجبه إلى ذلك. فلما أفضت إليه الخلافة جاء المراكبي و
محمدٌ راكبٌ ليقبل يده، فأمر بمنعه ودفعه، ففعل ذلك الشاكري، فضربه المراكبي وقال:
أتمنعني من تقبيل يد مولاي! فجاء الشاكري لما نزل محمد الأمين فشكاه، فأمر بإحضار
المراكبي فأمر بضرب عنقه، فسئل في أمره فعفا عنه وحبسه، وطالبه بخمسمائة ألف درهم
مما اقتطعه من نفقات الكراع، وبعث فأخذ عريب من منزله مع خدمٍ كانوا له. فلما قتل
محمدٌ الأمين هربت عريب إلى المراكبي فكانت عنده.
قال ابن المعتز: وأما رواية إسماعيلٍ بن الحسن خال المعتصم فإنها تخالف هذا، وذكر أنها

إنما هربت من دار مولاها المراكبي إلى محمد بن الحامد الخاقاني المعروف بالخشن أحد قواد
خراسان، وكان أشقر أصهب أزرق العينين. وفيه تقول عريب ولها فيه غناء:
بأبي كل أصهب أزرق العين أشقر
جن قلبي به ولي س جنوني بمنكر
وقال إسحاق بن إبراهيم: لما نمي إلى الأمين خبر عريبٍ بعث في إحضارها وإحضار
مولاها فأحضرا، فغنت بحضرة إبراهيم بن المهدي، فطرب الأمين واستعادها، وقال
لإبراهيم: كيف سمعت؟ قال: سمعت يا سيدي حسناً، وإن تطاولت بها الأيام وسكن
روعها ازداد غناؤها حسناً وطيباً. فقال للفضل بن الربيع: خذها إليك وساوم بها ففعل،
فاشتط مولاها بالسوم ثم أوجبها له بمائة ألف درهم. وانتقض أمر الأمين وشغل عنها فلم
يأمر لمولاها بشيءٍ حتى قتل بعد أن افتضها، فرجعت إلى مولاها، ثم هربت منه إلى ابن
حامد، فأمر المأمون بإحضاره وسئل عنها فأنكرها. فقال له المأمون : كذبت، وقد سقط
إلي خبرك، وأمر صاحب الشرط أن يجرده في مجلس الشرط ويضع عليه السياط حتى
يردها فأخذه. فبلغها الخبر، فركبت حمار مكارٍ وجاءت وقد جرد ليضرب، وهي
مكشوفة الوجه وهي تصيح: إن كنت مملوكةً فبعني، وإن كنت حرةً فلا سبيل علي. فرفع
خبرها إلى المأمون، فأمر بتعديلها عند قتيبةٍ بن زيادٍ القاضي فعدلت عنده. وتقدم إليه
المراكبي مطالباً بها، فسأله البينة عن ملكه إياها فعاد متظلماً إلى المأمون وقال: قد طولبت
بما لم يطالب به أحدٌ في رقيق.وتظلمت زبيدة بنت جعفر إليه وقالت: من أغلظ ما جرى
علي، بعد قتل ابني، هجوم المراكبي على داري وأخذ عريبٍ منها. فقال المراكبي: إنما
أخذت ملكي، لأنه لم ينقذني الثمن. فأمر المأمون بدفعها إلى محمدٍ بن عمر الواقدي، وكان
قد ولاه القضاء بالجانب الشرقي، فأخذها من قتيبة بن زياد وأمر ببيعها ساذجةً، فاشترها
المأمون بخمسين ألف درهم، وقيل اشتراها بخمسة آلاف درهم. ودعا عبد الله بن
إسماعيل وقال له: لو لا أني حلفت ألا أشتري مملوكاً بأكثر من هذا لزدتك، ولكني سأوليك

عملاً تكسب فيه أضعاف هذا الثمن، ورمي إليه بخاتمين من ياقوتٍ أحمر قيمتهما ألف
دينار، وخلع عليه خلعاً سنية. فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ينتفع بهذا الأحياء، وأما أنا
فإني لا محالة ميت، لأن هذه الجارية كانت حياتي. وخرج فاختلط وتغير عقله ومات بعد
أربعين يوماً. وذهبت بالمأمون كل مذهبٍ ميلاً إليها ومحبةً لها، حتى قيل: إن المأمون قبل
رجلها في بعض الأيام وإنها قالت أثر ذلك: والله يا أمير المؤمنين، لولا ما شرفها الله به من
وضع فمك الكريم لقطعتها! ولكن لله علي ألا اغسلها لغير وضوءٍ أو طهرٍ إلا بماء الورد ما
عشت. فكانت تفعل ذلك إلى أن ماتت.
وحكى علي بن يحيى المنجم أن المأمون لما مات بيعت في ميراثه - ولم يبع له عبدٌ ولا أمةٌ
غيرها - فاشتراها المعتصم بمائة ألفٍ وأعتقها فهي مولاته.
وقيل: إنه لما مات محمد الأمين تدلت عريب من قصر الخلد بحبلٍ إلى الطريق وهربت إلى حاتم بن عدي.
وحكى إبراهيم بن رباحٍ قال: كنت أتولى نفقات المأمون، فوصف له إسحاق ابن إبراهيم
الموصلي عريب، فأمره أن يشتريها له، فاشتراها بمائة ألف درهم، فأمرني المأمون بحملها،
وأن احمل إلى إسحاق مائة ألف درهم، ففعلت ذلك، فلم أدر كيف أثبتها، فكتبت في
الديوان أن مائة الألف خرجت في ثمن جوهرة، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائغها
ودلالها. فجاء الفضل بن مروان للمأمون وقد رأى ذلك وأنكره، وسألني عنه فقلت: نعم،
هو ما رأيت. فسأل المأمون عن ذلك فقال: وهبت لدلالٍ وصائغٍ ألف درهم! وغلظ
القصة، فأنكرها المأمون، ودعاني فدنوت وأخبرته أن المال الذي خرج في ثمن عريب وصلة
إسحاق، وقلت أيما أصوب يا أمير المؤمنين: ما فعلت، أم أثبت بالديوان أنها خرجت ثمن
مغنيةٍ وصلة مغن. فضحك المأمون وقال: الذي فعلت أصوب.
ثم قال للفضل ابن مروان:
يا نبطي، لا تعترض على كاتبي هذا في شيء.
ولعريب أخبارٌ قد بسط أبو الفرج الأصفهاني القول بها في كتابه الذي ترجمه "تحف
الوسائد في إخبار الولائد" ، وذكر أيضاً نتفاً من أخبارها في كتابه المترجم "بالأغاني" .

منها خبرها مع محمد بن حامد المعروف بالخشن، وأخبارٌ لها مع المأمون، وأخبارٌ مع
صالح المنذري الخادم، وإبراهيم بن المدبر، وغير ذلك من أخبارها . وقد رأينا أن نثبت
لمعاً من ذلك.
أما أخبارها مع محمد بن حامد - وهو أحد من كانت تعشقه وتهواه وتخاطر بنفسها في
الاجتماع به - فمنها ما روي عن عبد الملك الضرير أنها لما صارت في دار المأمون احتالت
عليه حتى وصلت إليه، وكانت تلقاه في الوقت بعد الوقت حتى حملت منه وولدت بنتاً،
فبلغ ذلك المأمون فزوجه إياها. وقال محمد بن موسى: اصطبح المأمون يوماً ومعه ندماؤه
وفيهم محمد بن حامد وجماعةٌ من المغنين وعريب معه على مصلاة، فأومأ إليها محمد بن
حامد بقبلةٍ، فاندفعت فغنت ابتداء:

رمى ضرع نابٍ فاستمر بطعنةٍ كحاشية البرد اليماني المسهم

تريد بغنائها جواب محمد بن حامد بان تقول له: طعنة. فقال المأمون للندماء: أيكم أومأ
إلى عريب بقبلة؟ والله لئن لم يصدقني لأضربن عنقه! فقال محمد بن حامد: أنا يا أمير
المؤمنين أومأت إليها، والعفو أقرب للتقوى. فقال: قد عفوت عنك. فقال: كيف استدل
أمير المؤمنين على ذلك؟ فقال: ابتدأت صوتاً، وهي لا تغني ابتداء إلا معنًى، فعلمت أنها لم
تبتدئ هذا الصوت إلى لشيءٍ أومئ إليها به، ولم يكن من شرط هذا الموضع إلا إيماءٌ
بقبلةٍ، فعلمت أنها أجابته بطعنة. وقد حكي أن المأمون قال في هذه الواقعة عن محمد بن
حامد: نكشخنه قبل أن يكشخننا، فزوجه إياها، واشترط عليه أن يحضرها إلى مجلسه
في أوقاتٍ عينها له المأمون.
وقال حمدون: كنت ليلةً في مجلس المأمون في بلاد الروم بعد العشاء الآخرة في ليلةٍ ظلماءٍ
ذات رعودٍ وبروق، فقال لي المأمون: اركب الساعة فرس النوبة وسر إلى عسكر أبي
إسحاق، يعني المعتصم، فأد إليه رسالتي وهي كيت وكيت.
فركبت فلم تثبت معي شمعة،
وسمعت وقع حافر دابةٍ فرهبت ذلك فجعلت أتوقاه حتى صك ركابي تلك الدابة، وبرقت

بارقةٌ فأبصرت وجه الراكب فإذا عريب، فقلت: عريب؟ قال: نعم، حمدون؟ قلت نعم.
ثم قلت لها: من أين أقبلت في هذا الوقت؟ قالت: من عند محمد بن حامد. قلت: وما
صنعت عنده؟ قالت: يا نكس، عريب تجيء في هذا الوقت من عند محمد بن حامد
خارجةً من مضرب الخليفة راجعةً إليه تقول لها: أي شيءٍ عملت معه! صليت معه
التراويح، أو قرأت عليه أجزاء من القرآن، أو دارسته شيئاً من الفقه! يا أحمق، تحادثنا
وتعاتبنا واصطلحنا ولعبنا وشربنا وغنينا وانصرفنا. قال: فأخجلتني وغاظتني وافترقنا.
ومضيت فأديت الرسالة، ثم عدت إلى المأمون وأخذنا في الحديث وتناشدنا الأشعار،
فهممت أن أحدثه بحديثها ثم هبته، فقلت: أقدم قبل ذلك تعريضاً بشيءٍ من الشعر
فأنشدته:

ألا حي أطلالاً لقاطعه الحبل ألوفٍ تساوي صالح القوم بالرذل
فلو أن من أمسى بجانب تلعةٍ إلى جبلي طيٍ فساقطة النعل
جلوسٌ إلى أن يقصر الظل عندها لراحوا وكل القوم منها على وصل

فقال لي المأمون: اخفض صوتك لا تسمع عريب فتغضب وتظن أنا في حديثها، فأمسكت
عما أردت أن أخبره به، وخار الله لي في ذلك.
وقال محمد بن عيسى الواثقي: قال لي محمد بن حامد ليلةً: أحب أن تفرغ لي مضربك،
فإني أريد أن أجيئك فأقيم عندك، ففعلت وأتاني. فلما جلس جاءت عريب فدخلت
وجلسنا، فجعل محمد يعاتبها ويقول: فعلت كذا وفعلت كذا! فقالت لي: يا محمد، هذا
عندك رأي! ثم أقبلت عليه فقالت: يا عاجز، خذ بنا فيما نحن فيه، واجعل سراويلي
مخنقتي وألصق خلخالي بقرطي، فإذا كان غدٌ فاكتب بعتابك في طومارٍ حتى أكتب إليك في
مثله، ودع عنك هذا الفضول، فقد قال الشاعر:

دعي عد الذنوب إذا التقينا تعالي لا نعد ولا تعدي
فأقسم لو هممت بمد شعري إلى باب الجحيم لقلت مدي

وقال أحمد بن حمدون: وقع بين عريب وبين محمد بن حامد شرٌ حتى كادا يخرجان إلى

القطيعة، وكان في قلبها منه أكثر مما في قلبه منها. فلقيته يوماً فقالت: كيف قلبك يا محمد؟
قال: أشقى ما كان وأقرحه. فقالت: استبدل تسل. فقال لها: لو كانت البلوى باختيار
لفعلت! فقالت: لقد طال إذاً تعبك. فقال: وما يكون! أصبر مكرها! أما سمعت قول
العباس بن الأحنف:

تعبٌ يطول مع الرجاء لذي الهوى خيرٌ له من راحةٍ في الياس
لولا كرامتكم لما عاتبتكم ولكنتم عندي كبعض الناس

قال: فذرفت عيناها، واعتذرت إليه واعتنقته، واصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه.
وحكى أحمد بن جعفر بن حامدً قال: لما توفي عمي محمد بن حامد، صار جدي إلي
منزله، فنظر إلى تركته وجعل يقلب ما خلف، ويخرج إليه منها الشيء بعد الشيء، إلى أن
أخرج إليه سفطٌ مختوم، ففض الخاتم وفتحه، فإذا فيه رقاع عريبٍ إليه، فجعل يتصفحها
ويبتسم، فوقعت في يده رقعةٌ فقرأها ووضعها بين يديه، وقام لحاجته، فقرأتها فإذا هي:

ويلب عليك ومكنا! أوقعت في الحق شكا
زعمت أني خؤونٌ جواراً علي وإفكاً
إن كان ما قلت حقاً أو كنت أزمعت تركاً
فأبدل الله ما بي من ذلة الحب نسكا

قال:وهذا الشعر لعريب.
وأما أخبارها مع المأمون وإخوته وغير ذلك من أخبارها. قال صالح بن علي بن الرشيد
المعروف بزعفرانة: تمارى خالي أبو عليٍ والمأمون في صوت، فقال المأمون: أين عريب؟
فجاءت وهي محمومة، فسألها عن الصوت، فقالت فيه بعلمها. فقال لها: غنيه. فولت
لتجئ بالعود، فقال: غنيه بلا عود. فاعتمدت من الحمى على الحائط وغنت، وأقبلت
عقربٌ فرأيتها وقد لسبت يدها مرتين أو ثلاثاً، فما نحت يدها ولا سكتت حتى فرغت من
الصوت، ثم سقطت وقد غشي عليها.
قال عثمان بن العلاء عن أبيه: عتب المأمون على عريبٍ فهجرها أياماً، ثم اعتلت فعاد
فقال: كيف وجدت طعم الهجر؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، لو لا مرارة الهجر ما عرفت
حلاوة الوصل، ومن ذم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا. فخرج المأمون إلى جلسائه

فحدثهم بالقصة، ثم قال: أترى لو كان هذا من كلام النظام لم يكن كثيراً!
وقال أحمد بن أبي دواد: جرى بين المأمون وبين عريب كلام، فكلمها المأمون بشيءٍ
فغضبت منه فهجرته أياماً. فدخلت على المأمون، فقال: يا أحمد، اقض بيننا. فقالت
عريب: لا حاجة لي في قضائه ودخوله بيننا، وأنشأت تقول:
ونخلط الهجر بالوصال ولا يدخل في الصلح بيننا أحد
وكانت قد تمكنت من المأمون وأخذت بمجامع قلبه، وذهب به حبها كل مذهب، وقد
قدمنا أنه قبل رجلها.
وكانت عريب تهوى أبا عيسى بن الرشيد أخا المأمون، وكان المثل يضرب بحسنه وحسن
غنائه، وكانت تزعم أنها ما عشقت أحداً من بني هاشم وأصفته من الخلفاء وأولادهم
سواه. ولم تزل عريب مبجلةً عند الخلفاء محبوبةً إليهم مكرمةً لديهم إلى أن غضب عليها
المعتصم والواثق وانحرفا عنها. وكان سبب ذلك أن المعتصم وجد لها كتاباً إلى العباس بن
المأمون ببلد الروم تقول فيه: اقتل أنت العلج حتى أقتل أنا الأعور الليلي هاهنا - تعني
الواثق، وكان المعتصم استخلفه ببغداد - ولعمري إن هذا من الأمور العظيمة التي لا تحتمل
من الأولاد والأخوة فكيف من أمةٍ مغنية! ولو لم تكن لها عندهم المكانة العظمى والمحل
الكبير لما أبقوها بعد الاطلاع من باطن حالها على هذه الطوية.
وكانت عريبٌ تكايد
الواثق فيما يصوغه من الألحان، وتصوغ في ذلك الشعر تغنيه لحناً فيكون أجود من لحنه.
قال: وكانت عريب تتعشق صالحاً المنذري الخادم، فتزوجته سراً. فحكي عنها أن بعض
الجواري دخلت عليها يوماً، فقالت لها عريب: ويحك! تعالي إلي! فجاءت، فقالت: قبلي
هذا الموضع مني، فإنك تجدين ريح الجنة، وأومأت إلى سالفتها، ففعلت ثم قالت لها: ما
السبب في هذا؟ قالت: قبلني الساعة صالح المنذري في هذا الموضع. قال: ووجهه المتوكل
إلى مكانٍ بعيدٍ في حاجةٍ، فقالت عريب فيه:
أما الحبيب فقد مضى بالرغم مني لا الرضى
أخطأت في تركي لمن لم ألق منه عوضا
وكانت عريب تهوى إبراهيم بن المدبر ويهواها، ولها معه أخبارٌ وحكايات، وبينهما أشعارٌ

وفكاهات. فمن مكاتباتها إليه ما روي عن ابن المعتز فقال: كتبت إليه تدعو له في شهر
رمضان: أفديك بسمعي وبصري، وأهل الله عليك هذا الشهر باليمن والمغفرة، وأعانك
على المفترض منه والمتنفل، وبلغك مثله أعواماً، وفرج عنك وعني فيه. وكتبت في شيءٍ
بلغها عنه: وهب الله لنا بقاءك ممتعاً بالنعم. ما زلت أمس في ذكرك، فمرةً بمدحك، ومرةً
بأكلك وبذكرك بما فيك لوناً لونا. اجحد ذنبك الآن، وهات حجج الكتاب ونفاقهم. فأما
خبرنا أمس فإنا شربنا من فضل نبيذك على تذكارك رطلاً، وقد رفعنا حسابنا إليك،
فارفع حسابك إلينا، وخبرنا من زارك أمس وألهاك، وأي شيءٍ كانت القصة على جهتها.
ولا تخطرف فتحوجنا إلى كشفك والبحث عليك وعن حالك، وقل الحق، فمن صدق
نجا. وما أحوجك إلى تأديبٍ، فإنك لا تحسن أن تود. والحق أقول إنه يعتريك كزازٌ شديدٌ
يجوز حد البرد. وكفاك بهذا من قولي عقوبةً. وإن عدت سمعت أكثر منه. والسلام.
ولما نكب عبد الله بن يحيى بن خاقان ابن المدبر وحبسه، كتبت إليه كتاباً تتشوقه وتخبره
استيحاشها له واهتمامها بأمره، وأنها قد سألت الخليفة في أمره فوعدها ما تحب. فأجابها
عن كتابها، وكتب في آخر الجواب:

لعمرك ما صوتٌ بديعٌ لمعبدٍ بأحسن عندي من كتاب عريب
تأملت في أثنائه خط كاتبٍ ورقة مشتاقٍ ولفظ خطيب
وراجعني من وصلها ما استفزني وزهدني في وصل كل حبيب
فصرت لها عبداً مقراً بملكها ومستمسكاً بودها بنصيب

وقال أبو عبد الله بن حمدون: اجتمعت أنا وإبراهيم المدبر وابن ميادة. القاسم بن زرزر
في بستانٍ بالمطيرة في يوم غيمٍ ورذاذٍ يقطر أحسن قطرٍ ونحن في أطيب عيشٍ وأحسن يوم،
فلم نشعر إلا بعريبٍ قد أقبلت من بعيد، فوثب إبراهيم من بيننا فخرج حافياً حتى
تلقاها، وأخذ بركابها حتى نزلت، وقبل الأرض بين يديها. وكانت قد هجرته مدةً لشيءٍ
أنكرته عليه. فجاءت وجلست وأقبلت عليه مبتسمة، ثم قالت: إنما جئت إلى من هاهنا
لا إليك. فاعتذر وشفعنا له فرضيت. وأقامت عندنا يومئذٍ وباتت، واصطبحنا من غدٍ

وأقامت عندنا. فقال إبراهيم:
بأبي من حقق الظن به وأتانا زائراً مبتدياً
كان كالغيث تراخى مدةً وأتى بعد قنوطٍ مرويا
طاب لنا يومان في قربه بعد شهرين لهجرٍ مضيا
فأقر الله عيني وشفى سقماً كان لجسمي مبلياً
وقال فيها أيضاً:
ألا يا عريب وقيت الردى وجنبك الله صرف الزمن
فإنك أصبحت زين النساء وواحدة الناس في كل فن
فقربك يدنيني لذيذ الحياة وبعدك ينفي لذيذ الوسن
فنعم الأنيس ونعم الجليس ونعم السمير ونعم السكن
وقال أيضاً فيها وفي جاريتها بدعة وتحفة:
إن عريباً خلقت وحدها في كل ما يحسن من أمرها
ونعمةٍ لله في خلقه يقصر العالم في شكرها
أشهدني جاريتها على أنهما محسنتا دهرها
فبدعةٌ تبدع في شجوها وتحفةٌ تتحف في زمرها
يا رب أمتعها بما خولت وامدد لها يا رب في عمرها
وقال علي بن العباس بن طلحة الكاتب: كنت عند إبراهيم المدبر، فزارته بدعة وتحفة،
وأخرجتا رقعةً من عريب، فقرأها فإذا فيها: بنفسي أنت وسمعي وبصري، وقل ذلك لك.
أصبح يومنا هذا طيباً - طيب الله عيشك - قد احتجبت سماؤه، ورق هواؤه، وتكامل
صفاؤه، وكأنه أنت في رقة شمائلك وطيب محضرك ومخبرك، لا فقدت ذلك أبداً منك! ولم
يصادف حسنه وطيبه منا نشاطاً ولا طرباً لأمورٍ صدتني عن ذلك، أكره تنغيص ما
أشتهيه لك من السرور بشرحها. وقد بعثت إليك ببدعةٍ وتحفةٍ ليؤنساك وتسر بهما،
سرك الله وسرني بك!. فكتب إليها:
كيف السرور وأنت نازحةٌ عني! وكيف يسوغ لي الطرب!
إن غبت غاب العيش وانقطعت أسبابه وألحت الكرب
وأنفذ الجواب إليها. فلم تلبث أن جاءت على حمارٍ مصري، فبادر إليها وتلقاها حافياً
حتى جاء بها إلى صدر المجلس، يطأ الحمار بساطه وما عليه، حتى أخذ بركابها
فأجلسها في مجلسه وجلس بين يديها. ثم قال:
ألا رب يومٍ قصر الله طوله بقرب عريبٍ، حبذا هو من قرب
بها تحسن الدنيا وينعم عيشها وتجتمع للسراء للعين والقلب
وقال إبراهيم بن اليزيدي: كنت مع المأمون في بلد الروم. فبينما أنا أسير في ليلةٍ مظلمةٍ

شاتيةٍ ذات غيمٍ وريحٍ وغلى جانبي قبة، إذ برقت برقةٌ فإذا بالقبة عريب. فقالت: يا
إبراهيم بن اليزيدي. فقلت: لبيك! قالت: قل في هذا البرق أبياتاً ملاحاً لأغني فيها.
فقلت:

ماذا بقلبي أليم الخفق إذا رأيت لمعان البرق
من قبل الأردن أو دمشق لأن من أهوى بذاك الأفق
فارقته وهو أعز الخلق علي والزور خلاف الحق
ذاك الذي يملك مني رقي ولست أبغي ما حييت عتقي

فتنفست نفساً ظننته قد قطع حياز يمها، فقلت: ويحك! على من هذا
التنفس؟فضحكت ثم قالت:على الوطن. فقلت هيهات! ليس هذا كله على الوطن.
فقالت: ويلك! أظننت أنك تستفزني! والله لقد نظرت نظرةً مريبةً في مجلسٍ فادعاها أكثر
من ثلاثين رئيساً، والله ما علم أحدٌ منهم لمن كانت إلى هذا الوقت.
وقال أبو العبيس بن حمدون: غضبت عريبٌ على بعض جواريها، فجئت إليها وسألتها أن
تعفو عنها، فقالت - في بعض ما تقوله مما تعتد به عليها من ذنوبها - : يا أبا العباس، إن
كنت تشتهي أن ترى زناي وصفاقة وجهي وجرأتي على كل عظيمةٍ أيام شبابي، فانظر
إليها واعرف أخبارها. فقال: وكانت في شبابها يقدم إليها البرذون فتطفر عليه بلا ركاب.
وقال أبو العباس بن الفرات: حدثتني بدعة جارية عريب: أن عريب كانت تجد في رأسها
برداً وكانت تغلف رأسها بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً، وتغسله من جمعةٍ إلى جمعة، فإذا
غسلته جددت غيره، وتقتسم الجواري غسالة رأسها.
وقال علي بن المنجم: دخلت يوماً على عريب مسلماً عليها، فلما جلست هطلت السماء
بمطرٍ عظيم. فقالت: أقم عندي اليوم حتى أغنيك أنا وجواري، وابعث إلى من أحببت
من إخوانك، فأمرت بدوابي فردت، وجلسنا نتحدث. فسألتني عن خبرنا بالأمس في مجلس
الخليفة ومن كان يغنينا، وأي شيءٍ استحسناه من الغناء.
فأخبرتها أن صوت الخليفة كان
لحناً صنعه بنان من الماخوري. فقالت: وما هو؟ فقلت:

تجافي ثم تنطبق جفونٌ حشوها الأرق
وذي كلفٍ بكى جزعاً وسفر القوم منطلق
به قلقٌ يململه وكان ما به قلق

جوانحه على خطرٍ بنار الشوق تحترق
فوجهت رسولاً إلى بنان، فحضر وقد بلته السماء، فأمرت بخلعٍ فاخرةٍ فخلعت عليه،
وقدم له طعامٌ فأكل، وجلس يشرب معنا. فسألته عن الصوت فغناه إياه. فأخذت دواةً
ورقعةً وكتبت:
أجاب الوابل الغدق وصاح النرجس الغرق
وقد غنى بنان لنا: جفونٌ حشوها الأرق
فهاك الكأس مترعةً كأن ختامها حدق
قال: فما شربنا بقية يومنا إلا على هذه الأبيات.
وأخبار عريب كثيرةٌ، قد وضع عبد الله بن المعتز فيها ديواناً. وفيما أوردناه من أخبارها
كفايةٌ لا تحتمل المختصرات أكثر منها. والله تعالى أعلم.
أخبار محبوبة
قال أبو الفرج: كانت مولدةً من مولدات البصرة، شاعرةً، سريعة الخاطر، مطبوعةً، لا تكاد
فضل الشاعرة اليمانية تتقدمها، وكانت أجمل من فضلٍ وأعف، وكانت تغني غناءً غير
فاخر.
وقال علي بن الجهم: كانت محبوبة لعبد الله بن طاهر أهداها إلى المتوكل في جملة أربعمائة
جارية. وكانت بارعة الحسن والظرف والأدب، مغنيةً محسنةً، فحظيت عند المتوكل حتى
كان يجلسها خاف الستارة وراء ظهره إذا جلس للشرب، فيدخل رأيه إليها فيراها ويحدثها
في كل ساعة.
وقال علي بن يحيى المنجم: كان علي بن الجهم يقرب من أنس المتوكل جداً، فلا يكتمه
شيئاً من سره مع حرمه وأحاديث خلواته. فقال له يوماً: إني دخلت على قبيحة فوجدتها
قد كتبت اسمي على خدها بغالية، فلا والله ما رأيت شيئاً أحسن من سواد تلك الغالية
على بياض ذلك الخد، فقل في هذا شيئاً - قال: وكانت محبوبةً حاضرة الكلام من وراء
الستارة - فدعا علي بن الجهم بدواة، فإلى أن أتي بها وابتدأ يفكر قالت محبوبة على
البديهة من غير فكرة ولا روية:
وكاتبةٍ في الخد بالمسك جعفرا بنفسي مخط المسك من حيث أثرا
لئن كتبت في الخد سطراً بكفها لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
فيا من لملوكٍ لملك يمينه مطيعٌ له فيما أسر وأظهرا!

ويا من هواها في السريرة جعفرُ سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا
قال: فبقى علي الجهم واجماً لا ينطق بحرف، وأمر المتوكل بالأبيات فبعث إلى عريب
وأمرها أن تغني فيها. قال علي بن الجهم: فتحيرت والله وتقلبت خواطري، فو الله ما
قدرت على حرفٍ واحدٍ أقوله.
وقال أيضاً: غاضب المتوكل يوماً محبوبة وهجرها ومنع جواريها جميعاً من كلامها، ثم
نازعته نفسه إليها وأراد ذلك، ثم نازعته العزة منها وامتنع من ابتدائها، وامتنعت من ابتدائه
دلالاً عليه لمحلها منه. قال علي: فبكرت إليه يوماً، فقال لي: يا علي، إني رأيت البارحة في
نومي كأني صالحت محبوبة. فقلت: أقر الله عينك يا أمير المؤمنين وأنامك على خيرٍ
وأيقظك على سرورٍ! أرجو أن يكون هذا الصلح في اليقظة. فبينا هو يحدثني وأحدثه إذا
بوصيفةٍ قد جاءت فأسرت إليه شيئاً، فقال: أتدري ما أسرت إلي هذه؟ قلت: لا. قال:
حدثتني أنها اجتازت بمحبوبة الساعة وهي في حجرتها تغني، أفلا تعجب من هذا؟ أنا
مغاضبها وهي متهاونةٌ بذلك، لا تبدؤني بصلحٍ ثم لا ترضى حتى تغني في حجرتها، فقم بنا
نسمع ما تغنني. ثم قام وتبعته حتى انتهى إلى حجرتها، وإذا هي تغني:

أدور في القصر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا يكلمني
حتى كأني أتيت معصيةً ليست لها توبةٌ تخلصني
فهل لنا شافعٌ إلى ملكٍ قد زراني في الكرى وصالحني
حتى إذا ما الصباح لاح لنا عاد إلى هجره فصارمني

فعجب المتوكل، وأحست بمكانه فأمرت بخدمها فخرجوا وتنحينا، وخرجت إليه فحدثته
أنها رأته في منامها فانتبهت وقالت هذه الأبيات وغنت فيها، فحدثها هو أيضاً رؤياه
واصطلحا. فلما قتل المتوكل سلاه جميع جواريه غيرها، فإنها لم تزل حزينةً هاجرةً لكل لذةٍ
حتى ماتت. ولها فيه ميراث.
حكى أبو الفرج: أن وصيفاً بعد قتل المتوكل أحضرها يوماً وأحضر الجواري، فجئن
وعليهن الثياب الملونة المذهبة والحلي وقد تزين وتعطرن، وجاءت محبوبة وعليها ثيابٌ
بيضٌ غير فاخرةٍ حزناً على المتوكل. فغنى الجواري جميعاً وشربن، وطرب وصيف

وشرب. ثم قال: يا محبوبة، غني، فأخذت العود وغنت وهي تبكي:

أي عيشٍ يطيب لي لا أرى فيها جعفرا
ملكاً قد رأته عي ني قتيلاً معفرا
كل من كان ذا هيا م وحزنٍ فقد برا
غير محبوبة التي لو ترى الموت يشترى
لاشترته بملكها كل هذا لتقبرا
إن موت الكثيب أص لح من أن يعمرا

فاشتد ذلك على وصيفٍ وأمر بقتلها، فاستوهبها بغا منه فوهبها له. فأعتقها وأمر
بإخراجها وأن تكون حيث تختار من البلاد. فخرجت إلى بغداد من سر من رأى،
وأخملت ذكرها طول عمرها، وما طمع فيها أحد. رحمها الله تعالى.

أخبار عبيدة الطنوبرية

قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت عبيدة الطنوبرية من المحسنات المتقدمات في الصنعة
والأدب، شهد لها بذلك إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: وحسبها بشهادته. قال: وكان
أبو حشيشة يعظمها ويعترف لها بالرياسة والأستاذية. وكانت من أحسن الناس وجهاً
وأطيبهم صوتاً، وكانت لا تخلو من عشق. قال: ولم يعرف في الدنيا امرأةٌ أعظم صنعةً منها
من الطنبور. وكانت لها صنعةٌ عجيبة. فمنها في الرمل:

كن لي شفيعاً إليكا إن خفف ذاك عليكا
وأعفني من سؤالي سواك ما في يديكا
يا من أعز وأهوى مالي أهون لديكا

قال:وحضرت يوماً عند علي بن الهيثم اليزيدي وعنده عمرو بن مسعدة وهارون بن
أحمد بن هشام، فجاءه إسحاق بن إبراهيم الموصلي فأخبره خبرهم. فقال له إسحاق: إني
كنت أشتهي أن أسمع عبيدة، ولكنها إن عرفتني وسألتموني أن أغني بحضرتها انقطعت ولم
تصنع شيئاً، فدعوها على جبلتها، فوافقوه على ذلك، ودخل وكتموه أمره، وكانت لا تعرف
إسحاق.وقدم النبيذ، فغنت لحناً لها:

قريبٌ غير مقترب ومؤتلفٌ كمجتنب
له ودي ولي منه دواعي الهمم والكرب
أواصله على سببٍ ويهجرني بلا سبب
ويظلمني على ثقةٍ بأن إليه منقلبي

قال: فطرب إسحاق وشرب نصفاً، ثم تغنت وشرب، حتى والى بين عشرة أنصاف، قال

علي بن الهيثم: وشربنا معه. وقام إسحاق ليصلي، فقال لها هارون: ويحك يا عبيدة! ما
تبالين والله متى مت! قالت: ولم؟ قال: أتدرين من المستحسن غناءك والشارب عليه ما
شرب؟ قالت: ولم؟ قال: أتدرين من المستحسن غناءك والشارب عليه ما شرب؟ قالت:
لا والله. قال: إسحاق بن إبراهيم، فلا تعرفينه أنك قد عرفتيه. فلما جاء إسحاق ابتدأت
تغني فلحقتها هيبةٌ له واختلاط، فنقصت نقصاناً بيناً. قال: أعرفتموها من أنا؟ فقلت:
نعم، عرفها هارون. فقال إسحاق: نقوم إذاً فننصرف، فإنه لا خير في عشرتكم الليلة ولا
فائدة لي ولا لكم، وقام فانصرف.
وقال ملاحظ غلام أبي العباس: اجتمع الطنبوريون عند أبي العباس بن الرشيد يوماً وفيهم
المسدود وعبيدة. فقالوا للمسدود: غن، فقال: لا والله، لا تقدمت على عبيدة وهي
الأستاذ، فما غنى حتى غنت. وقال محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعي: سمعت
إسحاق يقول: الطنبور إذا تجاوز عبيدة هذيان.
هذا ما أمكن إيراده في هذا الباب من أخبار من اشتهر بالغناء، وأخبار القيان، وهو
مختصرٌ مما أورده أبو الفرج الأصفهاني - رحمه الله تعالى - في كتابه المترجم بالأغاني من
أخبارهم. ولم نلتزم استيعابهم بل ذكرنا أكثرهم وأشهرهم بالغناء، وذكرنا من أخبارهم ما
فيه كفاية. فلنذكر خلاف ذلك.
الباب السابع:
حاجات المغني ووصف القيان والآلات
ويضطر إلى معرفته، وما قيل في الغناء، وما وصفت به القيان، ووصف آلات الطرب
حاجات المغني وما قيل في الغناء
ما يحتاجه إليه المغني وما قيل في الغناء والقيان من جيد الشعر
قال مالك بن أبي السمح: سألت ابن أبي إسرائيل عن المحسن المصيب من المغنين، فقال:
هو الذي يشبع الألحان، ويملأ الأنفاس، ويعدل الأوزان، ويفخم الألفاظ، ويعرف الصواب،
ويقيم الإعراب، ويستوفي النغم الطوال، ويحسن مقاطع النغم القصار، ويصيب أجناس
الإيقاع، ويختلس مواضع النبرات، ويستوفي ما يشاكلها من النقرات. فعرضت على ما قال

معبد، فاستحسنه وقال: ما يقال فيه أكثر من هذا. وقد رويت هذه المقالة عن ابن سريج.
وقال إبراهيم الموصلي: الغناء على ثلاثة أضرب: فضربٌ ملهٍ مطربٌ يحرك ويستخف،
وضربٌ ثانٍ له شجىً ورقةً، وضربٌ ثالثٌ حكمةٌ وإتقان صنعة.
قال: كان هذا كله
مجموعاً في غناء ابن سريج. وقال أبو عثمان الناجم: بحبوحة الحلق الطيب تشبه مرض
الأجفان الفاترة.
وأما ما قيل في الغناء وما وصفت به القيان.
حكي أن بعض المحدثين سمع غناءً بخراسان بالفارسية، فلم يدر ما هو غير أنه شرقه
لشجاه وحسنه، فقال في ذلك، وقيل إنه لأبي تمام:

حمدتك ليلةً شرفت وطابت أقام سهادها ومضى كراها
سمعت بها غناءً كان أولى بأن يقتاد نفسي من عناها
ومسمعةٍ يحار السمع فيها ولم تصممه، لا يصمم صداها
مرت أوتارها فشفت وشاقت فلو يسطيع حاسدها فداها
ولم أفهم معانيها ولكن ورت كبدي فلم أجهل شجاها
فكنت كأنني أعمى معنًى بحب الغانيات وما رآها

وقال كشاجم في بحة حلق المغني:

أشتهي في الغناء بحة حلقٍ ناعم الصوت متعبٍ مكدود
كأنين المحب أضعفه الشو ق فضاهى به أنين العود
لا أحب الأوتار تعلو كما لا أشتهي الضرب لازماً للعمود
وأحب المحنبات كحبي للمبادي موصولةً بالنشيد
كهبوب الصبا توسط حالاً بين حالين شدةٍ وركود

وقال الناجم:

شدوٌ ألذ من ابتدا ء العين في إغفائها
أحلى وأشهى من منى نفسٍ وصدق رجائها

وقال بن بشير:

وصوتٍ لبنى الأحرا ر أهل السيرة الحسنى
شج يستغرق الأوتا ر حتى كلها تفنى
فما أدري اليد اليسرى به أشقى أم اليمنى؟
وقلنا لمغنيه وقد غنى على المثنى
ألا يا ليت هذا الصو ت حتى الصبح لا يفنى
فقد أيقظت اللذا ت عيناً ولم تزل وسنى
وما أفهم ما يعني مغنيه إذا غنى
ولكني من حبي له أستحسن المعنى

وقال الثعالبي:

غناؤك يهزم جيش الكروب وعيناك للناس عذر الذنوب
فويل القلوب إذا ما رنوت وإما شدوت فويل الجيوب

وقال أيضاً:

وسائلةٍ تسائل عنك قلنا لها في وصفك العجيب العجيبا

رنا ظبياً وغنى عندليباً ولاح شقائقاً ومشى قضيبا
وقال عكاشة يصف قينة:
من كف جاريةٍ كأن بنانها من فضةٍ قد طرفت عنابا
وكأن يمناها إذا نطقت به تلقى على يدها الشمال حسابا
وقال ابن الرومي:
وقيانٍ كأنها أمهاتٌ عاطفاتٌ على بنيها حواني
مطفلاتٍ وما حملن جنيناً مرضعاتٍ ولسن ذات لبان
كل طفلٍ يدعى بأسماء شتى بين عودٍ ومزهرٍ وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادي الغنى عن الترجمان
وقال أيضاً:
كأنما رقة مسموعها رقة شكوى سبقت دمعه
غنت فلم تحتج إلى زامرٍ هل تحوج الشمس إلى شمعة
كأنما غنت لشمس الضحى فألبستها حسنها خلعة
وقال الناجم:
ما صدحت عاتبٌ ومزهرها إلا وثقنا باللهو والفرح
لها غناءٌ كالبرء في جسدٍ أضناه طول السقام والترح
تعبدها الراح فهي ما صدحت إبريقنا ساجدٌ على القدح
وقال أيضاً:
ما تغنت إلا تكشف همٌ عن فؤادٍ وأقشعت أحزان
تفضل المسمعين طيباً وحسناً مثل ما يفضل السماع العيان
وقال أبو عبادة البحتري:
وأشارت على الغناء بألحا ظٍ مراضٍ من التصابي، صحاح
فطربن لهن قبل المثاني وسكرنا لهن قبل الراح
وقال كشاجم وهو أبو الفتح محمود:
أفدي التي أهدت لنا شمس الضحى والليل حالك
مملوكةٌ جلت فلي س تفي بقيمتها الممالك
عرضت فأعطت عودها ضرباً يعرض للمهالك
وتبعتها فتصرفت بالضرب في كل المسالك
ويئست من إدراكها فجعلت صورتي عند ذلك
قصرت يدي عن الغدا ة، فكيف لي بيدٍ تنالك
وقال أيضاً:
بدت في نسوةٍ مثل ال مها أدمجن إدماجا
يجاذبن من الأردا ف كثباناً وأمواجا
ويسترن من الأبشا ر في الديباج ديباجا
وقضباناً من الفض ة قد أثمرت العاجا
وقد لاثت من الكور على مفرقها تاجا
فلما طفن بالمجل س أفراداً وأزواجا
تجاوبن فغنين ك أرمالاً وأهزاجا
وحركن من الأوتا ر إمساكاً وإدماجا
فلا لوم على قلب ك إن هيج فاهتاجا
وقال علي بن عبد الرحمن بن يونس المنجم في عوادة:
غنت فأخفت صوتها في عودها فكأنما الصوتان صوت العود

غيداء تأمر عودها فيطيعها أبداً ويتبعها اتباع ودود
أندى من النوار صبحاً صوتها وأرق من نشر الثنا المعهود
فكأنما الصوتان حينما تمازجا ماء الغمامة وابنة العنقود
وقال أبو عون الكاتب:
تشد فيرقص بالرءو س لها ويرمز بالكئوس
وقال الناجم:
طفقت تغنينا فخلنا أنها لسرورنا بغنائها تعنينا
وقال أبو هلال العسكري:
وهيجت لي من شجوٍ ومن فرحٍ أيدٍ نثرن على الأوتار عنابا
لا عيب في العيش إلّا خوف غيبتكم إن السرور إذا ما غبتمو غابا

وقال هارون بن علي المنجم:
غصنٌ على دعص نقاً منهال سعى بكأسٍ مثل لمع الآل
وفاتنات الطرف والدلال هيف الخصور رجح الأكفال
يأخذن من طرائف الأرمال ومحكم الخفاف والثقال
تجري مع الناس بلا إنفصال مثل اختلاط الخمر بالزلال
تدعو إلى الصبوة كل سال تصرع كل فاتكٍ بطال
بين حرام اللهو والحلال أكرم من مصارع الأبطال
وقال شاعرٌ يذم مغنيا:
ومغنٍ بارد النغ مة مختل اليدين
ما رآه أحدٌ في دار قومٍ مرتين
صوته أقطع للذ ات من سطوة بين
وقال ابن الرومي:
فظللت أشرب بالأرطال لا طرباً عليه بل طلباً للسكر والنوم
وصف آلات الطرب
فمن ذلك ما وصف به العود. نظم أبو الفتح محمود المعروف بكشاجم قول الحكماء: إن
العود مركبٌ على الطبائع الأربع، فقال:
شدت فجلت أسماعنا بمخففٍ يحدثها عن سرها وتحدثه
مشاكلةٌ أوتاره في طباعها عناصر منها أحدث الخلق محدثه
فللنار منه الزير والبم أرضه وللريح مثناه وللماء مثلثه
وكل امرئ يرتاح منه لنغمةٍ على حسب الطبع الذي منه يبعثه
شكا ضرب يمناها فظلت يسراها تطوقه طوراً وطوراً ترعثه
فما برحت حتى أرتنا مخارقاً يجاوبه في أحسن النقر عثعثه
وحتى حسبت البابليين ألقيا على لفظها السحر الذي فيه تنفثه
وقال آخر:
جاءت بعودٍ تناغيه فيسعدها انظر بدائع ما تأتي به الشجر
غنت على عوده الأطيار من طربٍ رطباً، فلما ذوى غنت به البشر

فلا يزال عليه أو به طربٌ يهيجه الأعجمان: والطير والوتر
وقال آخر:
سقى الله أرضاً أنبتت عودك الذي ذكت منه أنفاسٌ وطابت مغارس
تغنت عليه الورق والعود أخضر وغنت عليه الغيد والعود يابس
وقال آخر:
لا تحسب العود إن غنتك شادنةٌ جاءتك بالطيف فيه نغمة الوتر
وإنما الطير ألقت عنده خبراً فعذبوه فنم العود بالخبر
وقال آخر:
فكأنه في حجرها ولدٌ لها ضمته بين ترائبٍ ولبان
طوراً تدغدغ بطنه فإذا هفا عركت له أذناً من الآذان
وقال الناجم:
إذا احتضنت عودها عابث وناغته أحسن أن يعربا
تدغدغ في مهلٍ بطنه فيسمعنا مضحكاً معجبا
وقال الحمدوني:
وناطقٍ بلسانٍ لا ضمير له كأنه فخذٌ نيطت إلى قدم
يبدي ضمير سواه في الحديث كما يبدي ضمير سواه الخط بالقلم
وقال كشاجم:
جاءت بعودٍ كأن نغمته صوت فتاةٍ تشكو فراق فتى
مخففٌ خفت النفوس به كأنما الزهر حوله نبتا
دارت ملاويه واختفت مثل اختلاف الكفين شبكتا
لو حركته وراء منهزمٍ على بريدٍ لعاج والتفتا
يا حسن صوتيهما كأنهما أختان في صنعةٍ تراسلتا
وهو على ذا ينوب إن سكتت عنها، وعنه تنوب إن سكتا
وقال أيضاً:
وجاريةٍ مثل شمس النهار أو البدر بين النجوم الدراري
أتتك تميس بقد القضيب وترنو بعين مهاة القفار
وترفل في مصمتٍ أبيضٍ تلون من خدها الجلناري
وتحمل عوداً فصبح الجواب يشارك أرواحنا في المجاري
له عنقٌ كذراع الفتاة ودسانةٌ بمكان السوار
فجادت عليه وجادت له بسعف اليمين ولطف اليسار
فما أمهلته وما نهنهته من الظهر حتى تقضي النهار
ولما تغنت غناء الوداع بكيت وقلت لبعض الجواري:
لئن عشت عند هزار اللقاء لقد مت عند هزار الإزار
وقال أيضاً:
وكثيرة النغمات تحسبها في كل عضوٍ أوتيت حلقا
غنت فظلت إخالني طرباً أسمو إلى الأملاك أو أرقى
وتكلمت أوتارها فأنا فيها أخبر بالذي ألقى
تحكي أنيني وهي شاكيةٌ مما أجن وتشتكي عشقا

وترى لها عوداً تعانقه وكلامه وكلامها وفقا
لو لم تحركه أناملها كان الهواء يفيده نطقا
جسته عالمةً بحالته جس الطبيب لمدنفٍ عرقا
فحسبت يمناها تحركه رعداً، وخلت يسارها برقا
وقال أيضا:
تميس من الوشي في حلةٍ تجرجر من فضل أذيالها
وتحمل عوداً فصيح الجواب يضاهي اللحون بأشكالها
له عنقٌ مثل ساق الفتاة ودستانةٌ مثل خلخالها
فظلت تطارح أوتاره بأهزاجها وبأرمالها
وتعمل جساً لجس العروق وتلوي الملاوي بأمثالها
وقال آخر يصف الطنبور:
مخطف الخصر أجوف جيده نصف سائره
أنطقته يدا فتًى فاتر اللحظ ساحره
فجلا عن ضميره ما حوى في خواطره
وقال سيف الدين المشد في دف:
وطاريةٍ قرعت طارها وغنت عليه بصوتٍ عجيب
فعاينت شمس الضحى أقبلت وبدرٌ تقدمها عن قريب
وقال أيضاً يصف شبابة:
وعاريةٍ من كل عيبٍ، حبيبةٍ إلى كل قلبٍ بات بالبين مجروحا
لها جسدٌ ميتٌ يعيش بنفخةٍ متى داخلته الريح صارت به روحا
تعيد الذي يلقى عليها بلذةٍ تزيد فؤاد الصب وجداً وتبريحا
وتنطق بالسحر الحلال عن الهوى وتوحي إلى الأسماع أطيب ما يوحى
القسم الرابع من الفن الثاني وفيه أربعة أبواب
في التهاني والمراثي والزهد والتوكل
الباب الأول
في التهاني والبشائر
والتهاني تنقسم إلى قسمين وتنحاز في جهتين: خصوص وعموم. فالخصوص هو ما يتعلق
بالرجل من منصبٍ يليه، ونعمةٍ تواليه، وولدٍ رزقه، وشفاءٍ من مرضٍ أقلقه وأرقه، وقدومٍ من
سفرٍ، وزواجٍ قضى به الأرب والوطر. والعموم هو ما يتعلق بالجمهور، ويتساوى فيه الملك
والمملوك والآمر والمأمور: من انصباب غيثٍ عم الربا والوهاد، وجريان نيلٍ شمل بريه البلاد
وأمن العباد، وهزيمة عدوٍ زاد في عدوانه وتمادى في طغيانه، وفتوح حصنٍ أمن أهله
بتشييد أركانه وإتقان بنيانه.
مما هنئ به ولاة المناصب
كتب بعض الفضلاء تهنئةً بخلافةٍ فقال:
أما بعد، فإن أولى النعم بالدوام، وأرجاها للبقاء والتمام، وأجدرها بالخلود، وأقربها إلى

المزيد، وأحراها بالسلامة على نوب الأيام وتصاريف الأحداث، نعمةٌ نشأت بفنائه،
وسكنت ذراه فحمدت مثواه، وساسها أولياؤها بحسن المجاورة وكرم المصاحبة سياسة
الحاني الشفيق، وكفلوها كفالة الحدب الرفيق، فنمت وتمت، وخصت وعمت، ثم اعترضها
من ريب الزمان ما هاج سواكنها، وأزعج كوامنها، وأصارها إلى الوحشة بعد الأنس،
والنفرة بعد الإلف، تتقلقل تقلقل العوادي، وتشرد شرود الضوال، لافظةً لها الأقطار ونابيةً
بها المحال، إلى أن أعداها الله تعالى بلطفه إلى مغناها المعروف، وربعها المألوف، واستقرت
بعد الاضطراب، وفاءت بعد الاغتراب. وتلك نعمة الله عند سيدنا أمير المؤمنين، لما جدد
له من كرامته، واصطفاه له من خلافته، وطوقه إياها من إمامته، ورده إليه من تدبير الملك،
واعتمد عليه في سياسة الأنام، فأحيا به السنن القاصرة، وأزال به الرسوم الجائرة، ونهج به
سبيل العدل، وأقام به منار الفضل.
وقال طريح بن إسماعيل الثقفي في المنصور لما أفضت الخلافة إليه:

لما أتى الناس ملكهم إليك قد صار أمره سجدوا
واستبشروا بالرضى تباشرهم بالخلد لو قيل إنهم خلدوا
كنت أرى ما وجدت من الفر حة لم يلق مثلها أحد
حتى رأيت العباد كلهم قد وجدوا فيك مثل ما أجد
قد طلب الناس ما بلغت فما نالوا ولا قاربوا ولا جهدوا
يرفعك الله بالتكرم والتق وى فتعلو وأنت تقتصد

قال زيد السندي يهنئ الوزير يعقوب بن كلسٍ بوزارة العزيز بمصر:

إن الوزارة لم تزل بك صبةً تهواك لم يخطر سواك ببالها
خطبت فلم تعط القياد لطالبٍ وأبت على طلابها بوصالها

وقال ابن بشر الصقلي الكاتب يهنئ الحسن بن إبراهيم التستري بوزارة مصر، وقد وزر
للمستنصر في سنة أربع وخمسين وأربعمائة:

بيومك طارت في البلاد البشائر وطابت بموجوع الحديث المحاضر
وأصبحت الأمصار أمناً وغبطةً أسرتها مهتزةٌ والمنابر
وقام خطيب الحمد في كل موقفٍ يعدد ما تملي عليه المآثر

ومنها:

لقد عاشرت الوزارة منك ماجداً له كنفٌ لا يجتويه المعاشر
فسيح امتداد الظل بين رحابه وبين المعالي آهل الربع عامر

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر
وما زلت ملحوظاً لها ومؤهلاً لذا الأمر مذ شدت عليك المآزر
وقال آخر:
كلما رمت أن أهنيك وقتاً بمحلٍ من العلا ترتقيه
شمت مقدارك الذي أعجز الوا صف أعلى من الذي أنت فيه
وكتب الحمدوني أخو صاحب التذكرة يهنئ بالسلامة من حريقٍ وقع في دار الخلافة: الدنيا
- أعز الله أنصار الخدمة الشريفة - دار الامتحان والاختبار، ومجاز الابتلاء والاعتبار،
ولله فيما نزله فيها إلى عباده من نعمه، وتخولهم من مواهبه وقسمه، عاداتٌ يقتضيها بالغ
حكمته، وماضي إرادته ومشيئته، ليستيقظ الذاهل، ويعترف الجاهل، ويزداد العالم اللبيب
اعتباراً، ويستفيد العاقل الأريب تفكراً واستبصاراً، فلا يغفل عن واجب الشكر إذا
سيقت النعمة إليه، ولا يلهو عن استدعاء المزيد منها بالاعتراف إذا أسبغت عليه، وهو
أن الباري سبحانه إذا تابع آلاءه إلى عبدٍ ووالاها، وجردها له من الشوائب وأخلاها،
وأماط عن مشاربها أكدار الدنيا المطبوعة على الكدر، وغمر مساربها بالأمن من طوارق
الغير، خيف عليها الانتقاض والزوال، وتوقع لها الانتهاء والانتقال. ومن ذلك الخبر المروي:
أنه لما أنزل الله تعالى "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام
دينا" ابتهج الصحابة رضي الله تعالى عنهم إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه بكى.
فقالوا: ما يبكيك وقد أكمل الله لنا ديننا برحمته، وأتمم لنا سابغ نعمته؟ فقال: يبكيني أنه
ما تم أمرٌ إلا بدا نقصه. فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريبٍ. وإذا كانت
مشوبةٌ برائعٍ يتخلل صفوها، وطارقٍ يجهم في بعض الأوقات عفوها، كان ذلك صارفاً عنها
عين الكمال، مؤذناً بطول الآجال، حاكماً لها بتراخي عمر البقاء، دالاً على الصعود بها إلى
درج المكث الطويل والارتقاء، وحكمه حكم المرضى الذي تصح به الأجساد، وتمحص
ذنوب من يسلط عليه من العباد:
فلا يبهج الأعداء سوء ظنونهم فلله صنعٌ في الذي ساء ظاهره
فكم طالبٍ به الشر كامنٌ وكم كارهٍ أمراً به الخير وافر

فلله الحمد الذي جعل ما جرت به الأقدار من الألم الواقع ظاهره، الوجل لوقعه ناظره،
لعنايته جلت عظمته عنواناً، وعلى دوام نعمته دليلاً واضحاً وبرهاناً. وإليه الرغبة في أن
يجعل الديار وساكنيها، والناس في أقاصي الدنيا وأدانيها، لشريف الحوزة التي بها صلاح
العالم فداء، وعنها للمكروه وقاء، فكل حادثٍ مع دوام هذه الأيام الزاهرة جللٌ، وكل غمرٍ
من نوائب الدهر ما دفع لطف الله عنها وشل.
وقال أبو عبادة البحتري يهنئ الفتح بن خاقان بسلامته من الغرق:

بعدوك الحدث الجليل الواقع ولمن يكايدك الحمام الفاجع
قلنا: لعاً لما عثرت ولا تزل نوب الليالي وهي عنك رواجع
ولربما عثر الجواد وشأوه متقدمٌ ونبا الحسام القاطع
لم تظفر الأعداء منك بزلةٍ والله دونك حاجزٌ ومدافع
إحدى الحوادث شارفتك فردها صنع الإله ولطفه المتتابع
حتى برزت لنا وجأشك ساكنٌ من نجدةٍ وضياء وجهك ساطع
ما حال لونٌ عند ذاك ولا هفا عزمٌ ولا راع الجوانح رائع

وقال المتنبي يهنئ بعافية:

المجد عوفي إذا عوفيت والكرم وزال عنك إلى أعدائك الألم
وما أخصك في برءٍ بتهنئةٍ إذا سلمت فكل الناس قد سلموا

من اتصل بزوجة ذات جمالٍ
محمد وحسبٍ، وأصالةٍ وأدبٍ.وقلما تقع التهنئة بذلك إلا بين صديقين صح بينهما الالتئام،
وسقطت بينهم مؤنة الاحتشام، وتساويا في الرتبة، وانحدا في الصحبة.
فمن ذلك ما كتب به الوزير أبو الحسن العامري إلى بعض إخوانه وقد ابتنى بأهل:

بأيمن طائرٍ وأتم سعدٍ يكون من الكريمين اجتماع

أما إنه المجد اليفاع، والحسن المطاع، تعارفت الطباع، فالتأمت الأنفس الشعاع، كما التقى
الثريان، واقترن النيران، كما حاصر الرئيم الضغيم، وهاصر النسيم الغصن المنعم، كما راق
فوق المعطف الصارم العضب، كما التقت الصهباء والبارد العذب، بل كما فازت القداح،
ونظم الوشاح، واعتنق شنٌ طبقه، واعتلق الروض عبقه. فحبذا النسب شابكه الصهر،
والحسب عاقده التقى والبر، على حين جرت الأيامن، واكتنف الحرم الآمن. وبالبين والرفاء،
والنعيم والصفاء، والثروة والنماء، والزمن الرغد والعزة القعساء الشماء، على الوفاق،

والوئام والاتساق، والحظوظ والجدود، والفسطاط الممدود، وهصر العيش الأملود، والالتئام
وتتابع البشرى بالفارس المولود. ومالي تأودت أعطافها، وتأنقت أوصافاً! وتهللت جذلاً،
وبسطت في الدعاء مذلاً! أهنأي الأرب، أم صفا المشرب! وقد غبت عن اليوم المشهود،
وعطت سدة الأذن للوفود، ولم أقم في السماط، سافراً عن وجه الاغتباط، أتلقى الوالج
بمرور التحية، وأفدي الخارج بحكم السرور والأريحية، وأتخدم رفع الوحي والإيماء، وأتقدم
من المصافاة والموالاة في الغفير الجماء، كلا! ولا شهدت ليلة الزفاف، وما حلت من
محاسنها الأفواف، حيث دارت المنى سلافاً، وصارت العلا دوحةً ألفافاً، وأبدى رونق
السيف جلاء، وأبرز عقيلة الحي هداء، هنالك حلت النعماء، ونهلت الأظماء، فياله
منظراً، ووعداً منتظراً، لو ناجيته من كثب، وكرعت منه في المنهل الأعذب! بلى! إنه وقع،
فشفى ونفع، والركب سنح، فنعم ما منح، أهداها حملاً، فكأنما أسداها أملاً، أثلج الفؤاد،
وأروى الزناد، وفي النفس أو كاد، وقلت عن قراه، نفسٍ جذلت بسراه، وأرجت لذكراه.
والله ما أحظاه مقدماً وأعلاه في الإحسان قدماً، لو وهبت لمقتضاه من الكرامة دماً. وقد
كان في الحق أن أهاجر، وأعصي الناهي والزاجر، فابسط لي عذراً، وأعدني لك ذخراً،
وطب مدى الدهر خبراً وخُبرا.
من رزقه الله ولداً
فمن ذلك ما كتب به الأستاذ ابن العميد في فصلٍ يهنئ عضد الدولة بن بويه وقد ولد له
ابنان توءمان:
وصل كتاب الأمير بالبشرى التي أبت النعمة بها أن تقع مفردةً، وامتنعت العارفة فيها أن
تسنح موحدةً، حتى تيسرت منحتان في وطنٍ، وانتظمت موهبتان في قرنٍ، وطلع من
النجيبين أبي قاسم وأبي كاليجار - أدام الله عزهما - طالعا ملك، ونجما سعدٍ، وشهابا
عزٍ، وكوكبا مجدٍ، فتأهلت بهما رباع المحاسن، ووطئت لهما أكناف المكارم، واستشرفت
إليهما صدور الأسرة والمنابر. وفهمته وشكرت الله تعالى شكر من نادى الآمال فأجابته

مكتبةً، ودعا الأماني فجاءته مصحبةً، وحمدته حمداً مكافئاً جسيم ما أتاح وعظيم ما
أفاد، واكتنفني من السرور ما فسح مناهج الغبطة، وسهل موارد البهجة، وأشعت ما ورد
إشاعةً شرحت صدور الأولياء بمسارها، وأزعجت قلوب الأعداء عن مقارها، وسألت
الله إتمام ما آذن به الأميران السيدان من سعادةٍ لا يهتدي إليها الاختيار علواً، ولا ترتقي
إليها الأفكار سمواً، وسلطانٍ تضيق البحار عن اتساعه، وتنخفض الأفلاك عن ارتفاعه،
ويبلغهما أفضل ما تقسمه السعود، وتعلو به الجدود، حتى يستغرقا مع السابقين إخوتهما
مساعي الفضل، ويشيدا قواعد الفخر، ويرجما صروف الدهر، ويضبطا أطراف الأرض،
وهو تعالى قريبٌ مجيب.
ومن كلام الوزير الفقيه أبي القاسم محمد بن الجد الأندلسي:
إن أحق ما انبسط فيه للتهنئة لسانٌ، وتصرف في ميادين معانيه بيانٌ وبنانٌ، أملٌ رجي
فتأبى زماناً، واستدعي فلوى عنانٍ، وطاردته الأماني فأتعبته حيناً، وغازلته الهمم فأشعرها
حنيناً، ثم طلع غير مرتقبٍ، وورد من صحبة المناجح في عسكرٍ لجب، وكان كالمشير إلى
ما بعده من مواكب الآمال، والدليل على ما وراءه من كواكب الإقبال، أو كالصبح افترت
عن أنوار الشمس مباسمه، والبرق تتابعت إثر وميضه غمائمه.
وفي هذه الجملة ما دل على
المولود، المؤذن بترادف الحظوظ وتضاعف السعود. فياله نجم سعادةٍ، طلع في أفق سيادةٍ،
وغصن سناءٍ، تفرع عن دوحة علاءٍ، لقد تهللت وجوه المحاسن باستهلاله، وأقبلت وفود
الميامن لاستقباله، ونظمت له قلائد التمائم، من جواهر المكارم، وخص بالثدي الحوافل،
بلبان الفضائل. وما كان منبت الشرف بإفراد تلك الأرومة الكريمة إلا مقشعر الربا، مغبر
الثرى، متهافت أغصان الرضا، فأما وقد اهتز في أيكة السيادة قضيبٌ، ونشأ من نبتته
النجابة نجيب، فأخلق بذلك المنبت أن تعاوده نضرته، وترف عليه حبرته، ويراجعه رونقه
وبهاؤه، وتضاحكه أرضه وسماؤه. فاحمد لله على ما أتاحه من انثناء الأمل من جماحه،
واختيال الجذل في حلبة غرره وأوضاحه. وهو المسئول أن يهبك منه صنعاً يحسن في مثله

الحسد، ويتمنى لفضله النسل والولد، بعزته.
وقال أبو هلال العسكري:
قد زاد في عدد الكرام كريم محضٌ صريحٌ في الكرام صميم
عالي المحلة لا يزال كأنه للفرقدين وللسماك نديم
فلأمره التتميم كيف تصرفت حالاته، ولشأنه التفخيم
فابشر فقد وافاك يوم رزقته حظٌ بتخليد السرور زعيم
فرعٌ تكفل دهره بتمامه حتى يكر الدهر وهو أروم
إن الهلال يصير بدراً كاملاً ويهد سد الليل وهو بهيم
وهو الوجيه إذا تبدى وجهه وغداً إذا نزل العظيم عظيم
فلأهله به شرفٌ متوطدٌ ولهم به شرفٌ أشم عميم
فاقرر به عيناً فإن خلاله تصفو وتسلس أو يقال نسيم
ولجده التصميم حيث تلاحقت أقرانه ولشأوه التقديم
ومن كلام الصاحب بن عباد تهنئةٌ ببنت:
أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، وأولاد الأطهار، والمبشرة بإخوةٍ
يتنافسون، ونجباء يتلاحقون.
فلو كان النساء كمثل هذي لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال
فادرع يا سيدي اغتباطاً، واستأنف نشاطاً، فالدنيا مؤنثةٌ والرجال يخدمونها، والذكور
يعبدونها، والأرض مؤنثةٌ ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية، والسماء مؤنثةٌ وقد
تزينت بالكواكب، وحليت بالنجم الثاقب، والنفس مؤنثةٌ وهي قوام الأبدان، وملاك
الحيوان، والجنة مؤنثةٌ وبها وعد المتقون، وفيها ينعم المرسلون. فهنيئاً هنيئاً ما أوليت،
وأوزعك الله شكر ما أعطيت، وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد، وما بقي الأبد، وكما
عمر لبد.
ومن كلام أبي المكارم بن عبد السلام من شعراء الخريدة:
هذا شعيبٌ النبي بابنته صفوراء استأجر موسى كليم الله. وهذا سيد المرسلين، أبقى
الله بفاطمة ابنته نسله إلى يوم الدين. وهذه أم الكتاب سميت الفاتحة، وهي لأبواب مناجاة
الرحمن فاتحة. وهذه محكمات القرآن، بها ثبتت شرائع الإيمان. وهذه سورة النساء
وسميت بهن وهي من الطوال، ولا سورة من القصار سميت بالرجال. على أن الدنيا
بأسرها مؤنثةٌ والملوك من خدامها، والشمس مؤنثةٌ والضياء والبهاء من تمامها، والنفس
تؤنث وبها فضل الناس، والحياة تؤنث وهي أساس الحواس، و العين تؤنث وبها يتوسل إلى

علم الدقائق، واليد تؤنث وهي المتصدية لتحبير الأشياء، والعضد تؤنث وبها استعانة سائر
الأعضاء، والسماء تؤنث وهي تجزي الأمطار، والأرض تؤنث وهي مجمع أطياب الثمار،
والجنة تؤنث وبها وعد الأبرار الأخيار، والعين - أعني الذهب - تؤنث وبها يدفع الهلك،
والقوس تؤنث وبها عز الملك.

مما هنئ به في المواسم والقدوم

قال ابن الرومي تهنئةً بعيد الفطر:

قد مضى الصوم صاحباً محموداً وأتى الفطر صاحباً مودوداً
ذهب الصوم وهو يحيك نسكاً وأتى الفطر وهو يحيك جودا

وقال آخر:

رأى العيد وجهك عيداً له وإن كنت زدت عله جمالا
وكبر حين رآك الهلال كفعلك حين رأيت الهلالا
رأى منك ما منه أبصرته هلالاً أضاء ووجهاً تلالا

وقال ابن الرومي يهنئ بعيد أضحى وهو يوم نوروز:

عيدان: أضحى ونوروز كأنهما يوما فعالك من بؤسٍ وإنعام
كذاك يوماك: يومٌ سبيه ديمٌ على العفاة، ويومُ سيفه دامي

وقال أبو إسحاق الصابي:

يا سيداً أضحى الزما ن بأنسه منه ربيعا
أيام دهرك لم تزل للناس أعياداً جميعاً
حتى لأوشك بينها عيد الحقيقة أن يضيعا

وقال الشريف الرضي تهنئةً بقدوم:

قدم السرور بقدمةٍ لك بشرت غرر العلا وعوالي التيجان
قلقت ظبا الأسياف منك بفرحةٍ فتكاد تنهضها من الأجفان
قد كان هذا الدهر يلحظ جانبي عن طرف ليثٍ ساغبٍ ظمآن
فالآن حين قدمت عدن صروفه يرمقني بنواظر الغزلان

من شواذ التهاني

وهي الجمع بين التهنئة والتعزية، والبشارة والتسلية

فمن ذلك ما قاله عبد الملك بن صالح للرشيد، وكان من يحسده قد قال للرشيد عنه: إنه
يعد كلامه. فأنكر الرشيد وقال: بل هو طبع. وجلس في بعض الأيام ودخل عبد الملك،
فقال الرشيد للفضل: قل له: ولد لأمير المؤمنين في هذه الليلة ابنٌ ومات له ابن. فقال الفضل
له ذلك. فدنا عبد الملك وقال: يا أمير المؤمنين، سرك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما
سرك، وجعلها واحدةً بواحدةٍ، ثواب الشاكر وأجر الصابر. فقال الرشيد: أهذا الذي
زعموا أنه يتصنع الكلام! ما رأى الناس أطبع من عبد الملك في الفصاحة.

ومن ذلك ما حكاه ثمامة بن أشرس قال: لما دخل المأمون بغداد بعد قتل الأمين دخلت
عليه زبيدة بنة جعفر أم الأمين، فجلست بين يديه وقالت: الحمد لله! إن أهنئك بالخلافة
فقد هنأت بها نفسي قبل أن أراك، وإن كنت فقدت ابناً خليفةً لقد اعتضدت ابناً
خليفةً. وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أمٌ ملأت عينها منك. وأنا أسأل الله
أجراً على ما أخذ، وإمتاعاً بما وهب . فقال المأمون: ما تلد النساء مثل هذه، ما تراها
أبقت في الكلام لبلغاء الرجال!
وقال عبد الله بن الحسن الجعفري السمرقندي يهنئ العزيز بخلافة مصر ويرثي أباه المعز:

قد أصبح الجوهر العلوي منتقلاً في خير من كان خير الورى بدلا
يا منحةً كملت في منحةٍ عظمت لولاك في الدهر ما نال امرؤٌ أملا
صنعٌ من الله في خطبٍ أتيح لنا عم البلاد وعم السهل والجبلا
كان الزمان بمن أبقى ومن أخذت صروفه مذنباً طوراً ومنتصلا
قام العزيز بما أفضى المعز به إليه مضطلعاً بالعبء محتملا
فقام أحفظ مسترعًى رعى فكفى من بعد خير إمامٍ قوم الميلا
كالسيف منتصلاً والبحر مندفقاً والبدر مؤتلقاً والغيث محتفلا

ومنها:

في طلعة البدر من شمس الضحى عوضٌ وظلمة الليل يجلو جنحها ابن جلا
وما الأئمة إلا أنجمٌ زهرٌ يبدو لنا كوكبٌ إن كوكبٌ أفلا
إن المعز الذي لا خلق يشبهه إلا العزيز ابنه إن قال أو فعلا
ملكٌ وجدنا التقى والعدل عدته إذا الملوك استعدوا الكيد والحيلا
سمت إلى العالم النوري همته ففارق القتم الأرضي وانتقلا
وراجعت نفسه في القدس عنصرها ولم يزل بحبال الله متصلا
لم يرض خلقاً من الدنيا يجاوره إلا الملائك في الفردوس والرسلا
لولا نزارٌ وعين الله تحرسه كنا بفقد معدٍ أمةً هملا
فإن مضى كافل الدنيا وما ضمنت فذا ابنه كافلٌ عنه بما كفلا

وإن هوى الجبل الراسي فذا جبلٌ راسٍلنا بعده، أعظم به جبلا!
عمت خلافته الدنيا برونقها كأنه الشمس فيها حلت الحملا
ملكٌ أغر وأيامٌ محجلةٌ ودولةٌ كل وقتٍ فيها تقهر الدولا
أضحت ملوك بني الدنيا له خولاً وما حوت كل دارٍ منهم نفلا
يا أيها الملك والمأمول نائله ومن هو الغاية القصوى لنا أملا
كان السرير سرير الملك منخفضاً حتى ارتقيت ذراه فارتقى وعلا
ومن ذلك ما كتب عاملٌ إلى المصروف به:
قد قلدت العمل بناحيتك، فهنأك الله بتجدد ولايتك، فأنفذت خليفتي لخلافتك، فلا تخله
من هدايتك، إلى أن يمن الله بزيارتك.
فأجابه: ما انتقلت عني نعمةٌ صارت إليك، ولا خلوت من كرامةٍ اشتملت عليك. وإني
لأجد صرفي بك ولايةً ثانيةً وصلةً وافية، لما أرجو لمكانك من حسن الخاتمة ومحمود
العاقبة. والسلام.
وكتب إبراهيم بن عيسى الكاتب يهنئ إبراهيم بن المدبر بالعزل عن عملٍ:
ليهنئ أبا إسحاق أسباب نعمةٍ مجددةٍ بالعزل، والعزل أنبل
شهدت لقد منوا عليك وأحسنوا لأنك بعد العزل أعلى وأفضل
آخر:
إن الأمير هو الذي يضحي أميراً عند عزله
إن زال سلطان الولا يةِ فهو في سلطان فضله
وكتب أبو إسحاق الصابي إلى رجل زوج أمه:
قد جعلك الله - وله الحمد - من أهل التحصيل، والرأي الأصيل، وصحة الدين، وخلقٍ
ذي اليقين. فكما أنك لا تتبع الشهوة في محظورٍ تحله، فكذلك لا تطيع الأنفة في مباحٍ
تحظره. وتأدى إلي من اتصال الوالدة - يسر الله لها في مدتك، وأحسن بالبقية منها
إمتاعك - بأبي فلان، أعزه الله، ما علمت فيه أنك بين طاعةٍ للديانة توخيتها، ومشقةٍ
تجشمتها، وأنك جدعت أنف الغيرة بها، وأضرعت خد الحمية فيها، وأسخطت نفسك
بإرضائها، وعصيت هواك لرأيها. فنحن نهيك بعزيمة صبرك، ونعزيك عن فائت مرادك،
ونسأل الله الخيرة لك فيه، وان يجعلها أبداً معك فيما شئت وأبيت، وتجنبت وأتيت.
وقال كاتبٌ متقدمٌ في مثل ذلك:

الرضا بما يبيحه حكم الله أولى من الامتعاض فيما تحظره أنفة الحمية. ولا قبح فيما أحل
الله، كما لا جمال فيما حرم الله. فعرفك الله الخيرة فيما اختارته من طهارة العفاف ونبل
الحصانة، وعطفك من برها على ما تؤدي به حقها، وما لزمك المعروف في مصاحبتها.
وكتب الصاحب بن عباد تهنئةً بزواج أمٍ وتعزيةً بموت أب، فقال:
الأيام - أطال الله بقائك - تجري على أنحاءٍ مختلفةٍ، وشعبٍ متفرقة، وأحكامها تتفاوت
بيننا بما يسوء ويسر، وينفع ويضر. وبلغني من نفوذ قضاء الله في شيخك - رحمه الله –
ما أزعجني، وأبهم طرق السلوة دوني، وإن كان من خلفك غير خارجٍ عن مزية الأحياء،
ولا حاصلٍ في زمرة الأموات. والله يأسو كلمك، ويسد ثلمك.
وقد فعل ذلك بأن أتاح الله
لك بعد أبيك أباً لا يقصر عنه شفقةً عليك وحنواً، وإيثاراً لك وبراً.
وقد لعمري وفقت
حين وصلت بحبلك حبله، وأسكنت الكبيرة - حرسها الله تعالى - ظله، لئلا تفقد من
الماضي - عفا الله عنه - إلا شخصه. فالحمد لله الذي أرشدك لما يعيد الشمل مجتمعاً
بعد فراقه، والعدد موفوراً بعد انتقاصه، حمداً يقضي لك بالمسرة، ويحسم دونك مراد
الوحشة، ويلقيك ثواب ما قضيته من الحق، وتحملته فيه من الأوق، إنه فعالٌ لما يريد.
فهذه نبذةٌ كافيةٌ في التهاني الخالصة، فلنذكر العامة.
التهاني العامة والبشائر التامة
ولنبدأ من ذلك بما قيل في البشارة بوفاء النيل، لما فيه من عموم المنافع الشاملة، وشمول
النعم الكاملة، والخصب الذي يتساوى في الانتفاع به الغني والفقير، والمأمور والأمير.
فمن ذلك ما كتب به المولى الفاضل، الصدر الكبير الكامل، ذو المناقب والمآثر، والفضائل
والمفاخر، شهاب الدين محمود الحلبي:
وسره بنبأ النيل الذي عم نيلا، وجرى على وجه الأرض ملاءة ملأته، فشمر المحل للرحلة
ذيلا، وجرد على الجرد سيف خصبه فسال محمر دمه على وجه الصعيد سيلا، وجرى
وسرى في ضياء إشراقه وظلمة تراكمه إلى الأرض التي بارك بها حولها، فجعل من أجراه
نهاراً وسبحان من أسرى به ليلاً. صدرت هذه المكاتبة إليه - أعزه الله تعالى - ونعم

الله قد عمت، وآلاؤه مع تحقق المزيد قد تمت، ومواد فضله قد أمت الأقطار فقامت صلاة
الصلات إذ أمت، وكلمة الخصب قد نمت في الآفاق، فوشت بمكنون حديثها للأرض ونمت،
والخصب قد أقبل على الجدب فلم يكن له بمقاومته قبل، وطوفان الرحمة قد طبق الوهاد،
فلم يغن المحل أن قال: سآوى منه إلى جبل. والسيل قد بلغ في تتبع بقايا القحط الزبى،
والنيل قد عم بنيله الأرض حتى كلل مفارق الآكام وعمم رءوس الربا، وحمى الأرض من
تطرق المحول إليها فأصبحت منه في حرم، وظهرت به عجائب القدرة، ومنها أن ابن الستة
عشر بلغ إلى الهرم، وبث جوده في الوجود فلو صور نفسه لم يزدها على ما فيه من كرم،
وتلقت منه النفوس أبهج محبوب طرد ممقوتاً، ووثقت من حمرته بالغنى والمنى إذ لم تدر أيا
قوتاً تشاهد منه أم قوتاً. وجرى في الوفاء على أكمل ما ألف من عادته، وظهر بإشراقه
وعموم نفعه ظهور الشمس فألقى على الأرض أشعة سعادته، وأقبلت به على الخلق بوادر
الإقبال، وركب الناس منه في سفن النجاح والنجاة فهي تجري بهم في موجٍ كالجبال. وبلغ
الله به المنافع فزعزع الشم ولم يتجاسر على الجسور، وأمن الناس به طروق المحل الطرود به
عنهم فضرب بينهم بسور، وأقطع الخصب الأرض كلها فله في كل بقعةٍ مثالٌ مرئيٌ ومنشور
منشور، وبعث إلى كل عملٍ من سرايا جوده عارضاً مغضباً على المحل ما يخطر إلا وسيفه
مشهور، وأودع بطن الثري مواد ثرائه، واستقبل الورى بوجه ما تأمله امرؤٌ صادى الجوانح
إلا ارتوى من مائه، وأظهر الله به مثال ما سلف من كرامة أصفيائه، إذ جعل تحت كل نخلةٍ
من سراه سرايا، وجلا به عن الأمة ظلم الغمة إذ أطلع منه في أول مطالعه المرتقبة محياً
بدرياً. وذلك أنه لما كان في اليوم الفلاني وفي النيل المبارك ستة عشر ذراعاً، ومد بحسن
صنع الله إلى مصالح البلاد يداً صناعاً، وركبنا إلى المقياس الذي تعلم به مواقع الرحمة في
كل يومٍ ، وتهدى منه واردات السرور إلى كل قومٍ، ووقفنا به لابسين من رحمة الله تعالى
أحسن لباس، آنسين من أنوار الرحمة في التي أزالت اليأس وأذهبت الباس، ناظرين إلى أثر

رحمة الله التي أحيت الأرض بعد موتها، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس. وجرى
الأمر في التخليق على أجمل عادات البدور، وعلقت ستارة المقياس لا للإخفاء على عادة
الأستار، بل للإشاعة والظهور، واستقر حكم المسرة على السنن المعهود، وعاد للناس عيد
سرورهم إذ ذاك يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يومٌ مشهود. وركب مولانا السلطان إلى سد
الخليج والماء قد استطال عليه،وسرت سرايا أمواجه إليه، وصدمه بقوةٍ فاندفع منكسراً بين
يديه، فانجبرت القلوب بكسره، وساق الله به الماء إلى الأرض الجزر فأحياها وحياها، ورق
لوجهها المغبر فستر بردائه المحمر صفحة محياها. كل ذلك وهو - بحمد الله تعالى - آخذٌ
في الازدياد، جارٍ على وفق المراد إلى حده المعتاد، سالكٌ ببلاغه سبيل أهل البلاغة إذ
يهيمون في كل واد. وهاهو الآن يرتفع إلى كل ربوةٍ على جناح النجاح، ويخيف السبل وما
عليه حرجٌ ويقطع الطرق وليس عليه جناح. فليأخذ مولانا حظه من هذه البشرى التي عم
بشرها، ووجب على كل مؤمنٍ شكرها، ويتحقق أن هذه بوادر خيرٍ تسري إليه على
ركائب السحائب، وطلائع خصبٍ هي لديه أقرب غائبٍ وأسرع آئب. و الله تعالى يعز
أنصاره، ويوالي مباره، بمحمدٍ وآله.
وكتب أيضاً في مثل ذلك:
ضاعف الله نعمة المجلس العالي، وبشره بما أجرى الأمة عليه من عوائد كرمه، وسره بما
يسره من خصوص بره وعموم نعمه، وهناه بما سناه من هرب جيش المحل بعد قدم وثبات
قدمه، وأورد على سمعه من أنباء نصرة الخصب ما يتحقق به أن لم يبق في الأرض علمٌ إلا
تحت علمه، وأنه ذبح الجدب بسيفٍ مده الذي أنبأ بحمرة عندمه عن دمه، وبث سراياه في
الأقطار، على متون القطار، مرهفاً على بقايا المحل سيوف بروقه ونبال ديمه، وضرب قباب
موجه على المسالك، فلو هبت بينهما عاصفة جدبٍ تعثرت بأطناب خيمه، ولعب على
ما شمخ من الربا، فعجبٌ له من كاملٍ يلعب وقد بلغ إلى هرمه!
صدرت هذه المكاتبة
تقص عليه من نعم الله أحسن القصص، وتهدي إليه من مواد فضله ما يخص الشام وأهله

منه بأوفى الأقسام وأوفر الحصص، وتحثه على شكر الله تعالى الذي به ينتهز من مزيد بره
أعظم الحظوظ وأفضل الفرص، وتعلم أن الله نصر جيش الرخاء بمدد لطفه على اليأس
الذي تولى الشيطان أمره فلما تراءت الفئتان نكص، وأنعم على خلقه بما أرخصته عزائم
كرمه بهم، فوجب أن تقابل نعمه بعزائم الشكر دون الرخص، وذلك أن الله تعالى أجاب
دعوة المضطر، وأفاض بره العميم على الغني والفقير والقانع والمعتر، وأحيا الأرض بعد
موتها، وتدارك برحمته دنيا الدهماء بعد أن أشرفت على فوتها، وأجرى الخلق على عوائد
كرمه، وأجرى لهم بقدرته من حجب الغيب مواد نعمه، وأعلى لديهم موارد نيلهم حتى كاد
ما يشرب بفروق ساقه يتناول الماء بفمه، وأمر البحر فأقبل بالفرج القريب من الأمد البعيد،
وأذن له في الترفع من محله فسجد على الترب شكراً وتيمم الصعيد وإن لم يبق به الآن على
وجه الأرض صعيد، وأسرى منه ركائب السرور إلى الأقطار ففي كل نادٍ من هديره حادٍ
وفي كل برٍ من بروره بريد، وذكر بإحياء الأرض بعد موتها إحياء أمواتها، "إن في ذلك
لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد"، ونشر ألويته على الثرى لأهل الأرض
بشراً بين يدي رحمته، "وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي
الحميد"، وأقبل بعد نقص عامه الماضي بوجهٍ عليه حمرة الخجل، وعزمٍ سبق سيفه إلى
المحل العذل بل الأجل، وحزمٍ أدرك الجدب بوجهٍ قبل أن يقول: سآوى إلى جبلٍ، واستظهارٍ
على كل ما علاً من الأرض حتى إن الهرمين باتا منه على وجل، ومهد الأرض التي كانت
ترقبه فهو لها المنتظر على الحقيقة، ووطئ بطن القرى فنتج الخصب بينهما وذبح المحل في
العقيقة، وقطع الطرق فآمن بذلك كل حاضرٍ وبادٍ ورائحٍ وغاد، واتبعه الري لا الروي حتى
أضحى كالشعراء يهيم في كل واد، وعمت بركاته على الأرض فتركن كل قرارةٍ كالدرهم من
الخصب مرتعاً، وأربى على ريه فيما سلف من السنين، فأضحى كهوى ابن أبي ربيعة
"يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعا"، وتجعد على الآكام فخيل للعيون أنها تسيل، وشيب

مفارق الربا ببياض زبده، وعادة بياض الشيب أن يخضب بورق النيل. وكأن ما بقي من
المحل قد جعل بينه وبينه سداً، وتستر منه ورآه وهو يملي ويعد له عداً، فصدمه بقلبه
وجعله دكاً إذ جاء أمر ربه وأدركه وملكه، وسفك دمه فجرى مستطيلاً إذ سفكه، ووفى
بما وعد من ظفره، وأتى لنصرة الخصب من مكانٍ بعيدٍ فأسفر عن النجح وجه سفره،
وأسبل على مقياسه ستر السرور لإخفاره ذمة الجدب لا لخفره، وبشر مصره بنصرة سرايا
السحائب في أقطار الممالك لأنها من أشياعه ونفره. ولما كان اليوم الفلاني علق الستر
وخلق المقياس، وكسر الخليج فكان في كسره جبرٌ للخليقة ومنافع للناس، وذلك بعد أن
وفى النيل المبارك ستة عشر ذراعاً، وصرف في مصالح البلاد يداً تضن بالبذل خرقاً
وتكفي بحسن التدبير ضياعاً، وبث في أرجاء الأعمال بحاراً تحسب بتلاطم الأمواج ركاماً
وبمضاعفة الفجاج سراعاً. وهو بحمد الله آخذٌ في ازدياده إلى حده، جارٍ على اعتياده في
المشي على وجه الثرى وخده، يتتبع أدواء المحل تتبع طبيبٍ خبير، ويعكس بيت أبي
الطيب فتمسي وبسطها تراب، ويصبحها وبسطها حرير. وقد وثقت الأنفس بفضل الله
العميم، وأصبح الناس بعد قطوب اليأس تعرف في وجوههم نضرة النعيم، تيمناً ببركة أيامنا
التي أعادت إليهم الهجوع، وأعاذتهم مما ابتلي به غيرهم من الخوف والجوع. فليأخذ
المجلس العلي حظه من هذه البشرى التي خصت وعمت، ووثقت النفوس بمزيد النعمة إذ
قيل: تمت، ويذيعها في الأقطار، ويعرفهم قدر ما منح الله جيوش الإسلام من فضله الذي
يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، ويستقبل نعم الله التي سيسم الأرض وسميها ويولى النعم
وليها ويأتي بالبركات أتيها حتى تغص بالنعم تلك الرحاب، ويظن لعموم ري البلاد الشامية
أن نيل مصر وصل إليها على السحاب، ويقيم منار العدل الذي هو خيرٌ بالأرض من أن
تمطر، ويعفى آثار الظلم حتى لا تكاد تظهر.

التهاني بالفتوحات وهزيمة الأعداء

فمن ذلك ما كتب به المهلب بن أبي صفرة إلى الحجاج بن يوسف الثقفي في حرب

الأزارقة:
أما بعد فالحمد لله الذي لا تنقطع مواد نعمته من خلقه حتى تنقطع مواد الشكر. وإنا
وعدونا كنا على حالتين: يسرنا منهم أكثر ما يسوءنا ، ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم ، فلم
يزل الله عز وجل يزيدنا وينقصهم، ويعزنا ويذلهم، ويؤيدنا ويخذلهم، ويمحصنا ويمحقهم، حتى
بلغ الكتاب أجله، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.
وكتب الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة حين ولي العراق من قبل عبد الله ابن الزبير إليه
يخبره بهزيمة الخوارج: أما بعد، فإنا مذ خرجنا نؤم هذا العدو في نعمٍ من الله متصلةٍ علينا،
ونقمةٍ من الله متتابعةٍ عليهم، نقدم ويحجمون، ونجد ويرحلون، إلى أن حللنا بسوق
الأهواز. والحمد لله رب العالمين.
ثم كتب إليه بعد هذا الكتاب: أما بعد، فإنا لقينا الأزارقة بجدٍ وحد، وكانت في الناس
جولةٌ ثم ثاب أهل الحفاظ والصبر بنياتٍ صادقةٍ وأبدانٍ شداد وسيوفٍ حداد، فأعقب
الله خير عاقبة، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل، فصاروا دريئة رماحنا وضريبة سيوفنا، وقتل
الله أميرهم ابن الماحوز، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها. والسلام.
وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون لما فتح بغداد وقتل محمداً الأمين: أما بعد، فإن المخلوع
ولو كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، لقد فرق الله بينهما في الولاية والحرمة،
لمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين.
قال الله عز وجل: "يا نوح إنه
ليس من أهلك إنه عملٌ غير صالحٍ". ولا صلة لأحدٍ في معصية الله، ولا قطيعة في ذات
الله. وكتبت إلى أمير المؤمنين وقد قتل المخلوع ورداه الله رداء نكبة، وأحمد لأمير المؤمنين
أمره، وأنجز له ما كان ينتظر من صادق وعده. والحمد لله المتولي لأمير المؤمنين بنعمته،
والراجع إليه بمعلوم حقه، والكائد له ممن ختر عهده ونكث عقده، حتى رد له الألفة بعد
تفريقها، وأحيا الأعلام بعد دروس أثرها، ومكن له في الأرض بعد شتات أهلها.
ولما فتح المعتصم عمورية أكثر الشعراء من ذكر هذا الفتح، فمن ذلك قول أبي تمامٍ حبيب

بن أوسٍ الطائي من قصيدته التي يقول في أولها:
السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصفائح في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعةً بين الخميسين لا في السبعة الشهب
جاء منها:
فتح الفتوح تعالى أن يحط به نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطب
فتحٌ تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب
ومنها:
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها كسرى وصدت صدوداً عن أبي كرب
بكرٌ فما افترعتها كف حادثةٍ ولا ترقت إليها همة النوب
من عهد إسكندرٍ أو قبل ذاك فقد شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
حتى إذا مخض الله السنين لها مخض الحليبة كانت زبدة الحقب
أتتهم الكربة السوداء سادرةً منها وكان اسمها فراجة الكرب
لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب
أشار في هذا البيت إلى فتح أنقرة.
ومنها:
لبيت صوتاً زبطرياً هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
قيل: كانت الروم لما فتحت زبطرة صاحت امرأةٌ من المسلمين: وا محمداه! وا معتصماه!
فلما بلغه الخبر ركب لوقته يؤم الشام، وصاح: لبيك! لبيك! ولم يرجع إلى أن فتح أنقرة
وعمورية. ومنها:
خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
إن كان بين صروف الدهر من رحمٍ موصولةٍ أو ذمامٍ غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدرٍ أقرب النسب
وكتب أبو عبيد عبد الله البكري إلى المعتمد على الله المؤيد بنصر الله يهنئه بالفتح الذي
كان في سنة سبعٍ وسبعين وأربعمائة:
أطال الله بقاء سيدي ومولاي الجليل القدر، الجميل الذكر، ذي الأيادي الغر، والنعم الزهر،
وهنأه ما منحه من فتحٍ ونصر، واعتلاءٍ وقهر. بطالع السعد يا مولاي أبت، وبسانح اليمن

عدت، وبكنف الحرز عذت، وفي سبيل الظفر سرت، وبقدم البر سعيت، وبجنة العصمة
أتيت، وبسهم السداد رميت فأصميت. صدرٌ عن أكرم المقاصد وأشرف المشاهد،
وعودٌ بأجل ما ناله عائدٌ وآب به وارد، فتوحٌ أضحكت مبسم الدهر، وسفرت عن صفحة
البشر، وردت ماضي العمر، وأكبت واري الكفر، وهزت أعطاف الأيام طرباً، وسقت
أقداح السرور نخباً، وثنت آمال الشرك كذبا، وطوت أحشاء الطاغية رهباً، فذكرها زاد
الراكب، وراحة اللاغب، ومتعة الحاضر، ونقلة المسافر.
بها تنقض الأحلاس في كل منزلٍ وتعقد أطراف الحبال وتطلق
شملت النعمة وجبرت الأمة، وجلت الغمة، وشفت الملة، وبردت الغلة، وكشفت العلة.
كان داء الإشراك سيفك واشت دت شكاة الهدى وكان طبيبا
فغدا الدين جديداً، والإسلام سعيداً، والزمان حميداً، وعمود الدين قائماً، وكتب الله
حاكماً، ودعوة الإيمان منصورة، وعين الله قريرة. فهنأ الله مولانا وهنأنا هذه المنح البهية
مطالعها، الشهية مواقعها، وعضد حسامه فبالقسط يسل ويغمد، وأيد مذاهبه فبالتحزم
تسدى وتلحم، وأمر كتائبه ففي الله تسرج وتلجم. فكم فادحٍ خطب كفاه، وظلام كربٍ
جلاه، وميت حقٍ أحياه، وحي باطلٍ أرداه! وكم جاحم ضلالةٍ أطفأ ناره، وناجم فتنةٍ
قلم أظافره، ومفلول سنةٍ أرهف شفاره، ومستباح حرمةٍ حمى ذماره. فلله هذه المساعي
الكريمة والمنازع القويمة، المتبلجة عن ميمون النقيبة ومحمود العزيمة، فقد تمثل بها العهد
الأول والقرن الأفضل الذي أخرج للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والذي سطع
هذا السراج، وانتهج هذا المنهاج، فلا زالت الفتوح تتوالى عليه، وصنائع الله تتصل لديه،
إدالةً من مشاقيه وإذالةً لمحاربيه، وإبادةً لمناوئيه. وإن أجل هذه النعم في الصدور، وأحقها
بالشكر الموفور، ما من الله به من سلامة مولاي التي هي جامعةٌ لعز الدين وصلاح كافة
المسلمين، بعد أن صلى من الحرب نيرانها، فكان أثبت أركانها وأصبر أقرانها:
وقفت وما في الموت شكٌ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ وثغرك باسم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلا ووجهك والإسلام أنك سالم
فلله الحمد والإبداع والإلهام، وله المنة وعلينا متابعة الشكر والدوام. وقد فازت الكف
الكليم، بأعلى قداح المكلوم لدى المقام الكريم، وإنها لهي التالية للإصبع الدامية في المنزلة
العالية.
بصرت بالراحة العليا فلم ترها تنال إلا على جسرٍ من التعب
ومن كلام القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني جواب كتابٍ ورد إليه يخبر فيه بانتصار
المسلمين. ابتدأه بقوله عز وجل: "يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأن الله لا يضيع أجر
المؤمنين". وصلت بشرى المجلس السامي - أعلاه الله وشيده، وأسعده وأصعده، وشكر
مشهده وأنجح مقصده، وملأ بالحسنات أمسه ويومه وغده، وأهلك وعادى أعداءه
وحسده، واجتب بسيفه زرع الكفار وذراه وحصده - بما من الله سبحانه من نصرة
المسلمين عند لقاء عدوهم، وما وليهم الله من القوة والإظهار، وما قذف في قلوب الكفر من
الخوف والحذار، وشرح القضية شرحاً شرح الصدور، واستوى فيها الغياب مع الحضور،
فكانت البشارة منه وكانت المباشرة له، وما كل من بشر باشر، ولا كل من غار غاور، ولا
كل من خبر عن السيوف لقيها بوجهه، ولا كل من حدث عن الرماح عانقها بصدره. فنفعه
الله بالإسلام كما نفع الإسلام به، وأتم النعمة عليه كما أتمها فيه، وتقبل جهاده الذي جلا
فيه الكربات، وابتغى فيه القربات. ويتوقع إن هان العدو في العيون، وظهر منه غير ما كان
في الظنون، أن يكسر الله بكم مصافه، ويفتح عليكم بلاده، ويطهر بسيوفكم الشام، ويسر
بنصركم الإسلام، ويشرف بيوم نصركم الأيام. والخير يغتنم إذا عنت فرصه، ويصاد إذا
أمكن الصائد قنصه، والجهاد فرضٌ على المطيق تقتضيه عزائمه ولا تقتضيه رخصه. وقد
حضر المولى وحضر كل خير، وحضر من رأيه ما يكفي أمر العدو ولو لم يكن إلا رأيه لا
غير، فكيف وفي يده من العضب، مثل ما في صدره من القلب، كلاهما حديدٌ لا تكل

مضاربه، ولا تخونه ضرائبه، ولا تفنى إذا عددت عجائبه، فكم له من يومٍ أغر محجل
الأطرافً، وليلةٍ في سبيل الله دهماء الأهوال بيضاء الأوصاف، والنفوس واثقةٌ بأن الظفر
على يده يجري، والمبشر من جهته يسر ويسري. والله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين.
وكتب أيضاً في مثل ذلك: ورد كتاب المجلس - نصر الله عزمته، وشكر همته، وأتم عليه
نعمته، وصرف به وعنه صرف كل دهرٍ وملمته ومؤلمته، وأعان أولياءه على أن يؤدوا
خدمته، ويستوهبوا له فضل الله ورحمته، وأجزل قسمه من الخير الذي يحسن بين محبيه
قسمته - سافراً عن مثل الصباح السافر، متحدثاً عن روض أفعاله بلسان النسيم السحري
الساحر، حاملاً حديث بيضه وسمره حديث السامر. وهنأ بالفتح وهو المهنأ به، وكيف لا
يهنأ بالفتح من هو فاتحه! وكيف لا يشرح خبره من هو فاتح كل صدرٍ وشارحه! ولقد
دعا له لسان كل مسلمٍ وساعدت لسانه جوارحه، وعلم أنه باشر الحرب وتولى كبرها،
وأخمد جمرها، ولقى أقرانها، وافترس فرسانها، وجبن شجعانها، وشجع جبانها، وأنفق
الكريمين على النفس: النفس والمال، وحفظ على الإسلام الطرفين: الفاتحة والمآل. وإذا تأمل
المجلس الدنيا علم أن الذي يبقى بها أحاديث، وإذا نظر إلى المال علم أن الذي في الأيدي
منه مواريث، فالحازم من ورث ماله ولم يورثه لغيره، والسعيد من لم يرض لنفسه من الحديث
إلا بخيره. وما يخفى عن أحدٍ ما فعله، ولا ما بذله، ولا ما هان عليه، ولا ما أهان الله
كرائم المال بيديه، ولقد حلت نعمة الله في محلها لديه، وكان كفأها الكريم الذي أصدقها ما
في كفيه.
هذا ثنائي وهاتيكم مناقبكم يا أعين الناس ما أبعدت إسهادي
"ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمنٌ فلا يخاف ظلماً ولا هضماً"، بل هو سبحانه يوفي
عباده مثاقيل الذر، وللصابرين عنده الأجر بغير حسابٍ لجلالة قدر الصبر. والمجلس صبر
نفسه على المشقات فليبشر بثوابها، وكثر أعمال البر فهو يدخل الجنة بفضل الله من جميع

أبوابها. وكما يهنأ المجلس بالافتتاح فهو يهنأ بالجراح، ولا يغسل ثوب العمل إلا الدم المسفوح،
وكل جرحٍ إنما هو بابٌ إلى الجنة مفتوح. والحمد لله على أن أمتع الأمة بنفسه التي بذلها،
وقد باعها له وأبقاها لنا وقبلها. "وإن ربك لذو فضلٍ على الناس ولكن أكثرهم لا
يشكرون".
وكتب المرحوم علاء الدين علي بن القاضي محي الدين بن الزكي إلى أخيه بهاء الدين
مبشراً بفتح صفد، وكان هذا الفتح في يوم الجمعة ثامن عشر شوال سنة أربعٍ وستين
وستمائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار دولة الترك في أيام الملك الظاهر بيبرس:
يقبل اليد الكريمة، ويبث ما يعالجه من لواعج الأشواق التي تركته بين الأصحاب مدلها،
وسلبت لبه فلا أعلم عليه من دلها، وينهى أن المملوك فارق كريم جنابه وتوجه إلى صفد
المحروسة فوصل إليها في تاريخ كذا، ووافاها والحصن قد تزعزعت أركانه، والكفر قد انهدم
بنيانه، وشمر عن ساق الهزيمة شيطانه، وحماة الحرب قد وقفت في مراكزها، وكماة الهيجاء
قد استعدت لأخذ فرص النصر ومناهزها، والرماح قد اهتزت شوقاً إلى لقائهم، والسيوف
قد آلت أنها لا توافق على مقامهم، والمجانيق تزور حماهم وتلك الزيارة لشقائهم، وتدمر
بحجارتها عليهم تدميراً، وتريهم من بأسها يوماً عبوساً قمطريراً، وتصير بهم إلى الهلاك
وتعدهم جهنم وساءت مصيراً، والقسى ترسل إليهم المنايا في أجنحة السهام، وقد أحدقت
بهم كماة الترك كأنها ظباءٌ بأعلى الرقمتين قيام، فمن نازعٍ بقوسه وهو لمهج الكافرين منازع،
ومن متدرعٍ بنحره نحو المنايا يسارع، ومن وادٍ منهل المنية وآخر في إثره كارع، ومن متدرعٍ
وحاسرٍ علماً أن ليس لقضاء الله دافع، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، وما سلك بهم إلا
صراطاً مستقيماً، وما اشترى أنفسهم وأموالهم إلا بالجنة وأعد لهم أجراً كريماً. والسلطان
- عز نصره - قد شحذت شبوات عزمه، وفوق سديد سهمه ليفوز بجزيل سهمه، وهو
يرتب عساكره، ويهيئ ميامنه ومياسره، وينفذ أوائله ويقدم أواخره، ويحث صناديه، ويثبت

رعاديده، ويسعر همة مساعره، ويذكي نار الحرب في مجامره، ويقابل الأبراج ببروجٍ يهدمونها،
ويكل بالنقوب نقباءً يحفرونها، ويعد للمؤمنين مغانم كثيرةً يأخذونها، ويعد لكل مقامٍ رجلاً،
ويرتب لكل مقاتلٍ من المسلمين قتلاً، ويبسط لهم بقتل الكافرين آمالا، حتى قامت الحرب
على ساقٍ، وضاق بأهل الشقاق الخناق، وبلغت الأرواح منهم التراقي، ودارت عليهم
كؤوس المنايا فانتشى المسقي والساقي، وأحدقت بهم الجياد تصهل، وسحب القسى
تهطل، وكواذب الآمال تعدهم وتمطل، وخرصوا لأنفسهم الفرج فكذبتهم أسنة الخرصان،
ونظروا إلى الحياة بعين الطمع فكحلتهم بنات الحنية المرنان، فما أشرب العجز نفوسهم،
واستوى في الشورى مرءوسهم ورئيسهم، ومنوا بالمنايا من كل جانبٍ، وسمح كلٌ منهم بالمال
والذهب مذ علم أنه ذاهب، وتحققوا أن لا ملجأ من السيف إلا إليه، ولا معول بعد المعول
إلا عليه، وتيقنوا أن لا مقام لهم ولا مقر، وقال الكافر يومئذٍ أين المفر. والمسلمون مثابرون
على العمل الصالح يرفعونه، ومبادرون أجل عدوهم يمزقون منه كل ما يرقعونه، وإذا بصيحةٍ
كالصيحة التي تأخذهم وهم ينظرونها، أو الصعقة التي ينتظرونها، إذ أمرت السيوف على
رقابهم وهم يبصرونها، فارتجت أرجاء الحصن بالاصطخاب، ووقع الاختلاف بينهم
والاضطراب، وقيل: إن الكافر قد طلب الأمان، وإنه ركب ظهر المذلة مذ ناوله الجزع
العنان، وإن الكفر قد ذل للإيمان، وإن شيطانه قد نكص على عقبه لما تراءت الفئتان،
فأمسكت المجانيق عن ضربها، وكفت الحنايا عن إرسال شهبها، وأقصرت ليوث الحرب
الضارية عن وثبها. فما كان إلا هنيهةً وقد خرج رسولٌ منهم حيث لا تنفع الرسائل،
واخترق وشيج القنا وشوك النصال وظبا المناصل، ورأى كثرةً هالته فكادت تنقد تحت
الذعر منه المفاصل، ومشى إلى السلطان خاضعاً وأعيا على السماطين يقوم كلما عوجته
الأفاكل.

وأقبل كماً قبل التراب قبله وكل كميٍ واقفٌ متضائل

وأدى الرسالة وإذا هي كما قال أبو الطيب دروع، ورجع إلى أهله وفي قلبه من جيش

الإسلام - كثره الله - صدوع.
فأقبل من أصحابه وهو مرسلٌ وعاد إلى أصحابه وهو عاذل
فأبوا لنصيحته قبولاً، وقالوا: قاتلك الله رسولا، لقد خرجت عن سنة إخوانك، وألقيت
إلى المسلمين فاضل عنانك، ولم ترقب رضا أقستك ورهبانك. والرعب قد خرج به عن
قومه وآله، وهو يناشدكم الله في أموالهم وأنفسهم وينشدهم بلسان حاله:
أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما استحكمت مرة عصيانهم، وأبو مغالاةً إلا في طغيانهم، ولم يسمحوا بتسليم ذلك
الحصن الحصين، وقالوا: إنه على حفظ أرواحنا لقويٌ أمين، أرسلت عليهم من المجانيق
حجارةٌ كالمطر، إلا أنها ترمي بشررٍ كالقصر فتهدم قصوراً كالشرر، فزعزعت منها بروجاً
وبدنا، وقالت: هذا جزاؤكم وإن عدتم عدنا، ولنتبعن بعدها آثاركم ونقلع منكم قلاعاً
ومدنا. فلما أكذبهم الحصن في آمالهم، وأراهم الله قرب آجالهم، وكان ذلك في اليوم الأغر
يوم الجمعة والفتح، سلكوا في التسليم عادةً لم يسلكوها، ورأوا من الجزع خطةً ملكتهم ولم
يملكوها، فأجمعوا أمرهم وشركائهم إ لا أنه كان عيهم غمة، وطلبوا الذمام ومن قبلها كانوا
لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فألقوا إلى الإسلام يومئذٍ السلم، ورأوا نور الله الظاهر أشهر
من نارٍ على علم، فخرجوا من الحصن زارفاتٍ وأوزاعاً، مهطعين إلى الداعي كيوم يخرجون
من الأجداث سراعاً. فلو تراهم نحو المنايا يركضون، "كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعةً
أبصارهم ترهقهم ذلةٌ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون".
جرت الرياح على مقر ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
وصدق الله المؤمنين وعده، وكان بصدق وعده حقيقاً، "وأنزل الذين ظاهروهم من أهل
الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً". فلما كان يوم
السبت نادى فيهم السيف بالرحيل، ولم يتزودوا من متاع الدنيا إلا بقليل، وقام النصر على
منابر الهامات خطيباً، وكثر القتل فصار المهند الصقيل خضيباً، وأجرى أوديةً من دمائهم،
ولم يغادر بقيةً من ذمائهم، واستوى العبيد منهم والأرباب، وصار فرسانهم فرائس الذئاب،

واستمرءوا المرعى الوخيم فرعاهم الذباب، ووجدوا غب البغي علينا، وقلنا: "هذه
بضاعتنا ردت إلينا"، وآب المسلمون بخيرٍ عميم، وفتحٍ عظيمٍ وأجرٍ كريم، وجعل الله الجنة
جزاءً للسالمين منهم والذاهبين، "وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ
من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين". فليأخذ حظه من هذه البشرى فإن لها من
النصر العزيز ما بعدها، ومن المغانم الكثيرة ما ينجز للأمة المحمدية وعدها، ويثق بأن له إن
شاء الله من ثواب هذه الغزوة أوفر نصيبٍ، وان سهم عزمه في نحور الأعداء إن شاء الله
مصيب، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن بالمدينة قوماً ما سرتم
مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم". والله لا يخليه من أجرها، ولا يحرمه وافر برها،
ويتحفه من مقربات التهاني بما تكون له هذه بمنزلة العنوان في الكتاب، والآحاد في الحساب،
وركعة النافلة بالنسبة إلى الخمس، والفجر الأول قبل طلوع طلعة الشمس، وأن يديم على
الإسلام والمسلمين حياة مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين، ويؤيده بالملائكة
المقربين، ما دامت السماوات والأرضون، إن شاء الله تعالى.
ومن إنشاء المولى المرحوم محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر
كتابٌ كتبه عن السلطان
الملك الأشرف خليلٍ إلى الملك المظفر يوسف بن عمر صاحب اليمن قرين كتاب السلطان
الملك المنصور المسير إليه بالهناء بفتح طرابلس الشام:
أعز الله نصرة المقام وأوفد عليه كل بشرى أحسن من أختها، وكل تهنئةٍ لا يجليها إلا هو
لوقتها، وكل مبهجةٍ يعجز البيان والبنان عن ثبتها ونعتها، وتتبلج فتود الدرر والدراري لو
زفت هذه إلى تراقيها وسمت هذه إلى سمتها، وصبحه منها بكل هاتفةٍ أسجع من هواتف
الحمائم، وبكل عارفةٍ أسرع من عوارف الزهر عند عزائم النسائم، وبكل عاطفةٍ أعنة
الإتحاف بالإيجاف الذي شكرت الصفاح منه أعظم قادرٍ والصحائف أكرم قادم، والغزو
الذي لا تخص تهامة ببشراه بل جميع النجود والتهائم، وذوو الصوارم والصرائم، وألو القوى
والقوائم، وكل ثغرٍ عن ابتهاج أهل الإسلام باسم، وكل برٍ برٍ بتوصيل ما ترتب عليه من

ملاحم، وكل بحرٍ عذبٍ يمون كل غازٍ لا يحبس عن الجهاد الكفار في عقر الدار الشكائم،
وكل بحرٍ ملحٍ كم تغيظ من مجاورة أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه
المتلاطم. المملوك يجدد خدمةً يقتفي فيها أثر والده، ويجري في تبليغها على أجمل عوائده،
ويستفتح فيها استفتاحاً تحف به من هنا ومن هنا محامده، ويصف ولاءً قد جعله أجمل
عقوده وأكمل عقائده، ويشفعهما بإخلاصٍ قد جعل ميله أحسن وسائله وقلبه أزين
وسائده، ويطلع العلم الكريم أن من سجايا المتعرضين إلى الإعلان بشكر الله في كل ما
يعرض للمسلمين من نصر، ويفرض لهم من أجر غزوٍ كم قعد عنه ملكٌ فيما مضى من
عصر، أن يقدروا تلك النعمة حق قدرها من التحدث بنعمتها، والتنبيه لسماع نغمتها،
وإرسال أعنة الأقلام في ميادين الطروس، وإدارة حرباء وصف خير حربٍ إلى مواجهة خير
الشموس. ولما كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة الوالد - خلد الله سلطانه -
قد أصبحت ذكرى للبشر، ومواقفه للنصر فكم جاءت هي والقدر على قدر، وقد صارت
سيرها وسيرها هذه شدو الأسمار، وهذه جادةُ يستطيب منها حسن الحدو السفار، فكم
قاتلت من يليها من الكفار، وكم جعلت من يواليها وهو منصورها منصوراً بالمهاجرين
والأنصار. ولما أذل الله ببأسها طوائف التتار في أقاصي بلاد العجم ، وجعل حظ قلوبهم
الوجع من الخوف ونصيب وجوههم الوجم، وأخلى الله من نسورهم الأوكار ومن أسودهم
الأجم، وقصرت بهم هممهم حتى صاروا يخافون الصبح إذا هجم والظن إذا رجم،
وصارت رؤية الدماء تفزعهم فلو احتاج أحدهم لتنقيص دمٍ لمرضٍ لأحجم من خوفه وما
احتجم. وأباد الله الأرمن فحل بالنيل منهم الويل، وما شمر أحدٌ من الجنود الإسلامية عن
ساعدٍ إلا وشمر هو من الذل الذيل، ولا أثارت الجياد من الخيل عثيراً منعقداً إلا وظنوه
مساءً قد أقبل أو ليل. وانتهت نوبة القتل بهم والإسرار إلى التكفور ليفون ملك الأرمن الذي
كان يحمي سرحهم ويمرد صرحهم، ويستنطق هتف التتار ويسترجع صدحهم، وتعتز

طرابلس الشام بأنه خال إبرنسها الكافر، ولسان مشورته السفير ووجه تدبيره السافر،
وطالما غر وأغرى، وجر وأجرى، وضر وأضرى، فلما توكل مولانا السلطان وعزم وعزم
فتوكل، وتحقق أن البلاء به قد نزل، وما تشكك أن ذلك في ذهن القدر قد تصور وتشكل،
وأن يومه في الفتك سيكون أعظم من أمسه وأعظم منهما معاداة غده، وأن نصر الله لن
يخلفه صادق موعده، أكل يده ندامةً على ما فرط في جنب الله، وساق الحتف لنفسه بيده
فعمر الله بروحه الخبيثة الدرك الأسفل من النار، وسقاه الحتف كأساً بعد كأسٍ لم يكن لها
غير الهلك من خمار. وكانت طرابلس هي ضالة الإسلام الشريدة، وإحدى آبقاته من
الأعوام العديدة، وكلما مرت شمخت بأنفها، وتأنقت في تحسين منازهها وتزيين ريحانها
وعصفها، ومرت وهي لا تغازل ملكاً بطرفها وكلما تقادم عهدها تكثرت بالأفواج والأمواج
من بين يديها ومن خلفها، إذ البحر لها جلبابٌ والسحاب لها خمار، وليس بها من البر إلا
بمقدار ساحة الباب من الدار، كأنها في سيف ذلك البحر جبلٌ قد انحط، أو ميل استواءٍ
قد خرج عن الخط، وما قصد أحدٌ شطها بنكايةٍ إلا شط واشتط، قدر الله أن صرف
مولانا السلطان إليها العنان، وسبق جيشه إليها كل خبرٍ وليس الخبر كالعيان،وجاءها
بنفسه النفيسة والسعادة قد أحرسته عيونها وتلك المخاوف كلهن أمان، وقد اتخذ من
إقدامه عليها خير حبائل ومن مفاجأته لها أمد عنان، وفي خدمته جنودٌ لا تستبعد مفازة،
وكم راحت وغدت وفي نفوسها للأعداء حزازة، فامتطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجاناً لها
صاغتها الثلوج، ومعارج لا ترافق بها غير الرياح الهوج، وانحطت تلك الجيوش من تلك
الجنادل، انحطاط الأجدال، واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال، ولم يحفل أحدٌ منهم
بسربٍ لاصقٍ ولا بجبلٍ شاهقٍ فقال: هذا منخفضٌ أو عال، وشرعوا في التحصيل لما يوهي
ذلك التحصين، وابتناء كل سورٍ أمام أسوارها من التدبير الحسن والرأي الرصين، فما لبثوا
إلا مقدار ما قيل لهم: دونكم والاحتطاب، ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب، حتى

جروها بأسرع من جر النفس، وأجروها على الأرض سفائن وكم قالوا: السفينة لا تجري
على يبس.وفي الحال نقلت إليها فرأوا من متوقلها من يمشي بها على رجلين ومنهم من
يمشي على أربع، ووجهت سهامها وجوهها إلى منافذها فما شوهدت منها عينٌ إلا وكان
قدامها منها إصبع، وألقيت العداوة بين الحجارة من المجانيق وبين الحجارة من الأسوار، فكم
نقبت ونقبت من فلذة كبدها عن أسرار، وأوقدت نيران المكايد ثم فكم حولها من صافنٍ
ومن صافر، وكم رمتهم بشررٍ كالقصر فوقع الحافر كما يقال على الحافر. وما برحت سوق
أهل الإيمان في نفاقٍ على أهل النفاق، وأكابرهم تساق أرواحهم الخبيثة إلى السياق. وكان
أهل عكاء قد أنجدوهم من البحر بكل بر، ورموا الإسلام بكل شررٍ وكل شر، فكان
السهم الذي يخرج منها لا يخرج إلا مقترناً بسهام. وشرفات ذلك الثغر كالثنايا ولكنها لكثرة
من بها لا تفتر عن ابتسام، وما زالت جنود الإسلام كذاك، ومولانا السلطان لا ترى جماعةٌ
مقدمةٌ ولا متقدمةٌ إلا وهو يرى بين أولئك. وأستمر ذلك من مستهل شهر ربيعٍ الأول غلى
يوم الثلاثاء رابع شهر ربيعٍ الآخر، فزحف عليها في بكرة ذلك النهار زحفاً يقتحم كل لهضبةٍ
ووهدة، وكل صليةٍ وصلده، حتى أنجز الله وعده، وفتحها المسلمون مجازاً وفي الحقيقة
فتحها وحده، وطلعت سناجق الإسلام الصفر على أسوارها، ودخلت عليهم من
أقطارها، وجاست الكسابة خلال ديارها، فاحتازها مولانا السلطان لنفسه ملكاً، وما
كان يكون له في فتحها شريكٌ وقد نفا عنها شركاً، وكما قيل: هذه طرابلس فتحت قال
النصر بمن قتل فيها من النجد الواصلة وأكثر عكا وأهل عكا، وأعاد الله قوة الكفر بها
أنكاثاً، وكان أخذها من مائة سنةٍ وثمانين سنةٍ في يوم الثلاثاء واستردت في يوم الثلاثاء. ولما
عمت هذه البشائر ووكل بها مولانا السلطان إلى كل من يستجلي حسان هذه العرائس،
ويستحلي نفيس هذه النفائس، سير مولانا السلطان إلى مولانا بشرى فقعقع بها البريد، لتتلى
بأمر مولانا على كل من ألقى السمع وهو شهيد، وكما عم السرور بذلك كل قريبٍ قصد أن

يعم الهناء كل بعيد. وأصدر المملوك هذه الخدمة يتحجب بين يدي نجواها، ويتوئب بعد
هذه المفاتحة لكل سانحةٍ يحسن لدى المولى مستقرها ومثواها. لا برح المقام يستبشر لكماة
الإسلام بكل فضلٍ ونعمى، ويفرح لسرح الكفر إذا انتهك ولسفح الملك إذا يحمى، ولسمع
الشرك إذا يصم ولقلبه إذا يصمى.
وكتب المولى محي الدين أيضاً عن نفسه مطالعةً إلى السلطان الملك المنصور يهنئه بهذا
الفتح:
هنئت يا ملك البسيطة فتحاً به النعمى محيطه
وبقيت يا خير الملو ك بسيفك الدنيا محوطه
يقبل الأرض ويبتهل إلى دعاءٍ صالحٍ يقدمه بين يدي بشره وبشراه، وكل مقامٍ محمودٍ من
الإجابة يحوله في سره ونجواه، ويهنئ بهذا الفتح الذي كم مضى ملكٌ وفي قلبه منه حسرة،
وما ادخر الله إلا لمولانا السلطان أجره وفخره. فالحمد لله على هذا النصر العزيز وهذا
الفتح المبين، والظفر الذي أعطاه الله إياه في شهرٍ وقد أقامت جموع الكفر حتى حازت
بعضه في مدة سبع سنين. وله الشكر على أن جعل الكفر من بعد قوةٍ أنكاثاً، وجعل أخذ
مدينة طرابلس من الكفار في يوم الثلاثاء وكان أخذها من المسلمين في يوم الثلاثاء، وله المنة
في رد هذه الأخيذة، وجعلها بين مولانا السلطان منبوذة. ثم المنة على الله على أن سطر
في سيرة مولانا السلطان هذه السنة، وجعلها ما بين نومة عينٍ وانتباهها في أقرب من سنة،
ورد إباقها على المسلمين بعد أن أقامت هاربةً عند الكفار مائة سنةٍ وستاً وثمانين سنة،
والله يلحق بها في الفتح أخواتها من المدن، ولا يلبث إن شاء الله هادياً بها بعدها مثل
عكاء وصور وصيدا حتى يراهن إلى قبضته قد عدن، إن شاء الله تعالى.
وكتب الأمير حسام الدين طرنطاي عن الأمير بدر الدين بيدرا في ذلك:
المملوك يهنئ بهذا الفتح الذي كادت به هذه الغزوة تزهو على غيرها من الغزوات وتتيه،
وأشرقت الأرض بنور ربها ابتهاجاً بما أمضاه الله منه وما سيمضيه ، وبما سيعطيه حتى
يرضيه، وذلك أن فتح طرابلس التي طالما شمخت بأنفها على الملوك، وكم أبت على

مستفتح فما قال لغيره إباؤها: لله أبوك، وأخر الله مدتها إلى خير الأزمان، وفتحها على يد
سلطاننا الذي حقق الله به آمالاً تنفذ إلا منه بسلطان. فالحمد لله الذي عضد هذا الملك
من مولانا بخيرٍ من دبره، وحماه منه بأقطع حسامٍ جرده الله لنقض ما أمره، وما من فتوحٍ ولا
أمرٍ ممنوحٍ إلا ومولانا منضد عقوده، ومجهز بريده، ومطلع سعوده، ورافع علمه، وممضي سيفه
ومرضي قلمه. فأمتع الله الأمة من مولانا السلطان بسلطانٍ يسترد لهم الحقوق ويتقاضى لهم
الديون، وأمتع الله سلطانها من مولانا بمن آراؤه أقفال الممالك وسيوفه مفاتيح الحصون.
ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبي ما كتب به عن الأمير سيف الدين سلار نائب
السلطنة الشريفة إلى النائب بقلعة الجبل عند كسرة التتار بمرج الصفر في شهر رمضان سنة
اثنتين وسبعمائة:
وبشره بالفتح الذي أعاد الله به الأمة خلقاً جديداً، والنصر الذي أنزل الله فيه من الملائكة
أنصاراً وجنوداً، والظفر الذي أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن يرهب خموداً، والغزوة
التي زلزل الله بها جبال أهل الشرك وقد تدفقت على الأرض أمثال البحار عدداً وعديدا.
المملوك يقبل اليد العالية التي لها من هذه النصرة وإن لم تبلغها أجر الرامي المسدد سهمه،
المعجل من التهاني غنمه، الموفر من المحامد الجزيلة قسمه، ويهنئ المولى بهذا الفتح الذي مد
الله به على الأمة جناح رحمته وفضله، ومن على أيامنا الزاهرة فيه بالشام وأهله، وبرز فيه
الإسلام كله للشرك كله. ولله الحمد الذي أعز دينه ونصره، وحصد بسيوف الإسلام عدو
دينه بعد أن حصره، وأباد جيوش الشرك وهم مائة ألفٍ أو يزيدون، وأفنى أحزاب أهل
الكفر وكانوا أمثال الرمال لا يعدون، وينهي أن علمه الكريم قد أحاط بما كان من أمر هذا
العدو المخذول ودخوله إلى البلاد المحروسة بجيوشه وكتائبه وجموعه وجنوده من أشياع
أهل الكفر وأحزاب الشرك. ولما تواصلت الأخبار بقربه، واستعداده بحزبه ، ومهاجمته
البلاد، وإيقاع الرعب في قلوب أهلها بالتنوع في الفساد، ساق الركاب الشريف في طلبه يطوي

المراحل، ويقطع في كل يومٍ منزلتين بل منازل. ولما حل الركاب الشريف بمرج الصفر على
مرحلةٍ من دمشق المحروسة في يوم السبت مستهل شهر رمضان المعظم زينت العساكر
المنصورة للقاء حال وصولها، واستعدت للحرب دون تشاغلٍ بأسباب نزولها، فوافى العدو
المخذول في مائة ألفٍ من جيوشٍ تسيل كالرمال، وتعلو الجبال بأشد من الجبال، وحين
وصلوا حملوا على الميمنة بجملتهم، وقصدوا إزاحتها عن موقفها بحملتهم، فتلقتهم الجيوش
المنصورة بنفوسٍ قد بايعت الله على لقاء عدو الله وعدوها، ووثقت بما اعد الله لها من
الجزاء في رواحها في سبيله وغدوها، وصدمتهم صدمةٍ كسرت حدهم، وأوهنت شدتهم
وشدهم، وأزالت طمعهم، وأبانت ظلعهم، وسالت عليهم الجيوش المنصورة من كل جانبٍ،
وحميت الحرب بين الكتائب الإسلامية وبين تلك الكتائب، ودخل الليل ونار الحرب تشتعل،
والجياد من المحاجر تحفى وبالجماجم تنتعل، فأووا إلى جبالٍ واعتصموا بهضابها، واحتموا
بتوعر مسالكها وضيق عقابها، وأحاطت بهم الجيوش المنصورة لحوسهم لا لحفظهم، وتضم
أطرافهم لا لحبهم بل لبغضهم، فكانوا - بعد كثرة من قتل منهم في المعركة الأولى أو فر من
أول الليل - جمعاً يناهز الأربعين ألف فارسٍ، فاصبحوا يعاودون القتال، وينزلون إلى أطراف
الجبال للنزال، والجيوش المنصورة تلزمهم من كل جانب، وتحكم في أبطالهم القنا
والقواضب. وجرت في أثناء ذلك حملات ظهر في كلٍ منها خسارهم، وشهد عندهم بما
يكابدون قتلهم وإسارهم، وبعد ذلك نزلوا من جانبٍ واحدٍ يطلبون الفرار، ويتوقعون القتل
إن تعذر الإسار، فساقت خلفهم الجيوش المنصورة تتخطفهم رماحها، وتتلقفهم صفاحها،
وتقاذفت بمن نجا من الفلوات، وغرقتهم أمواج السراب قبل أمواج الفرات، فأخذوا قنصاً
باليد من بطون الأودية ورءوس الشعاب، ولم يحصل أحدٌ منهم على الغنيمة بالإياب، وقتل
أكثر مقدمي التمانات وفر كبيرهم وأنى له الفرار، وبين يديه مفاوز إن سلك منها تناولته
بأرماحٍ من العطش القفار. فيأخذ المولى حظه من هذه البشرى التي تنبئ عن الفتح العظيم

والفضل العميم، والنصرة التي حفظ الله بها على الإسلام البلاد والثغور والأموال والحريم،
ويكتب إلى البلاد بمضمونها، ويسر قلوب أهل الثغور بمكنونها، ويستنهض المولى الأمة
لشكر الله عليها، ومن ذا الذي يقوم بشكر ذلك! ويعرفهم مواقع هذه النصرة التي أنجد الله
فيها الإسلام بالملائك، ويتقدم أمره بضرب البشائر بكل مكان، ويشهر في جميع الثغور أن
عدو الله وعدو الإسلام دخل في خبر كان، وأن الله تعالى كسر جيوش التتار كسراً لا يجبر
صدعه، ولا يتأتى إن شاء الله جمعه. و الله تعالى يسمعه من التهاني كل ما يسر الإسلام
وأهله، ويشكر قوله في مصالح الإسلام وفعله، إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني

في المراثي والنوادب

والمراثي إنما جعلت تسليةً لمن عضته النوائب بأنيابها، وفرقت الحوادث بين نفسه
وأحبابها، وتأسيةً لمن سبق إلى هذا المصرع، ونهل من هذا المشرع، ووثوقاً باللحاق
بالماضي، وعلماً أن حادثة الموت من الديون التي لابد لها من التقاضي، وأنه لا سبيل إلى
الخلود والبقاء، ولا بد لكل نفسٍ من الذهاب ولكل جسدٍ من الفناء. قال الله تعالى في
محكم تنزيله مخاطبةً لرسوله: "وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد أفائن مت فهم الخالدون كل
نفسٍ ذائقةٌ الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا ترجعون". فليرض من فجع بخليله
وشقيقه، وصاحبه وصديقه، وأهله وولده، وجمعه وعدده، وماله ومدده، نفسه الجامحة في
ميادين أسفها وبكائها، الجانحة إلى طلب دوائها من مظان أدوائها، بزمام الصبر الجميل،
لينال الأجر الكريم والثواب الجزيل، فقد أثنى الله تعالى على قومٍ بقوله: "والصابرين على ما
أصابهم"، وقال تعالى إخباراً عن لقمان في وصيته لابنه: "واصبر على ما أصابك إن ذلك
من عزم الأمور". وليسترجع من أصابته مصيبةٌ أو نزلت به بلية، وطرقته حادثةٌ أو لمت به
رزية، لما جعل الله تعالى للمسترجع بفضله ومنته، من صلاته عليه ورحمته، قال الله عز
وجل: "الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلواتٌ من

ربهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون". وليتأس الفاقد برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد
جعل الله فيه أسوةً حسنةً لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر، وليقتد بأصحابه رضي الله
عنهم ليفوز بثواب الصابر ويحوز أجر الشاكر.
وباب الرثاء فهو بابٌ فسيح الرحاب والنوادي، فصيح اللسان في إجابة المنادي ذي القلب
الصادي، متباين الأسلوب، مختلف الأطراف متباعد الشعوب، منه ما يصمى القلوب بنباله،
ومنه ما يسليها بلطيف مقاله، ومنه ما يبعثها على الأسف، ومنه ما يصرفها عن موارد
التلف. وقد أكثر الشعراء القول في هذا الباب، وارتقوا الذروة العلياء من هذه الهضاب،
ووجدوا مكان القول ذا سعةٍ فقالوا، وأصابهم هجير اللوعة فمالوا إلى ظله وقالوا. قال
الأصمعي: قلت لأعرابي: ما بال المراثي أشرف أشعاركم؟ قال: لأنا نقولها وقلوبنا محترقةٌ.
معلى الجملة فالموت هو المصيبة التي لا تدفع، والزرية التي لا ترد بكثرة الجموع ولا تمنع،
والحادثة التي لا تنصرف بالفداء وإن جل مقداره، والنازلة التي لا تتأخر عن وقتها بالدعاء
وإن عظمت في غيرها آثاره، وهو أبعد الأربعة التي فرغ منها، وصرفت وجوه المطامع
عنها. وقد قالت الحكماء: أعظم المصائب كلها انقطاع الرجاء. وقالوا: كل شيءٍ يبدو
صغيراً ثم يعظم إلا المصيبة فإنها تبدو عظيمةً ثم تصغر. وقالوا: لا يكون البكاء إلا من
فضل، فإذا اشتد الحزن ذهب البكاء. قال الشاعر:

فلئن بكيناه لحق لنا ولئن تركنا ذاك للصبر
فلمثله جرت العيون دماً ولمثله جمدت فلم تجر

وقيل: مر الأحنف بامرأةٍ تبكي ميتاً ورجلٌ ينهاها، فقال: دعها فإنها تندب عهداً وسفراً
بعيداً. وقيل لأعرابيةٍ مات ابنها: ما أحسن عزاءك؟ قالت:إن فقدي إياه آمنني كل فقدٍ
سواه، وإن مصيبتي به هونت علي المصائب بعده، ثم أنشأت تقول:

كنت السواد لمقلتي فعمى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر
ليت المنازل والديا ر حفائرٌ ومقابر
إني وغيري لا محا لة حيث صرت لصائر

وقد نقل أبو الفرج الأصفهاني: أن بعض هذا الشعر لإبراهيم بن العباس بن محمدٍ بن صولٍ

يرثي ابناً له فقال:
أنت السواد لمقلةٍ تبكي عليك وناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر
ولم يزد على هذين البيتين شيئاً. أخذ الحسن بن هانئ معنى البيت الأول فقال في الأمين:
طوى الموت ما بيني وبين محمدٍ وليس لما تطوي المنية ناشر
وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لي شيءٌ عله أحاذر
لئن عمرت دوراً بمن لا نحبه لقد عمرت ممن نحب المقابر
وقيل: من أحسن ما قيل في التعازي أن أعرابياً مات له ثلاثة بنين في يوم واحدٍ فدفنهم
وعاد إلى مجلسه، فجعل يتحدث كان لم يفقد أحداً، فليم على ذلك، فقال: ليسوا في الموت
ببديع، ولا أنا في المصيبة بأوحد، ولا جدوى للجزع، فعلام تلومونني، وهذه ثلاثة الأقسام لا
رابع لها!. وعزى أعرابيٌ رجلٌ فقال: لما دفن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فاطمة
رضي الله عنها تمثل على قبرها بهذين البيتين:
لكل اجتماعٍ من خليلين فرقةٌ وكل الذي دون الممات قليل
وغن افتقادي واحداً بعد واحدٍ دليلٌ على ألا يدوم خليل
وعزى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأشعث بن قيس عن ابنه فقال:
إن تحزن فقد استحقت ذلك منك الرحم، وغن تصبر ففي الله خلفٌ من كل هالك، مع
انك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت
موزور، سرك الله وهو بلاءٌ وفتنةٌ، وحزنك وهو ثوابٌ ورحمةٌ.
وعزى أكثم بن صيفي حكيم العرب عمرو بن هند الملك عن أخيه فقال: أيها الملك، إن
أهل هذه الدار سفرٌ لا يحلون عقد الرحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردودٍ عنك،
وارتحل عنك ما ليس براجعٍ إليك، وأقام معك من سيظعن ويدعك، فما أحسن الشكر
للمنعم والتسليم للقادر! وقد مضت لنا أصولٌ نحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد أصله!
واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخيرٌ من الخير معطيه، وشرق من الشر
فاعله.
وقال ابن السماك: المصيبة واحدةٌ، فإن كان فيها جزعٌ فهي اثنتان. وقال أبو علي الرازي:
صحبت الفضيل بن عياض ثلاثين سنةً ما رأيته ضاحكاً ولا مبتسماً إلا يوم مات ابنه

علي، فقلت له في ذلك، فقال: إن الله أحب أمراً فأحببت ما أحب الله. وقال صالح
المري: إن تكن مصيبتك في أخيك أحدثت لك خشيةً فنعم المصيبة مصيبتك، وإن تكن
مصيبتك بأخيك أحدثت لك جزعاً فبئست المصيبة مصيبتك، وقال علي بن موسى
للفضل بن سهلٍ يعزيه: التهنئة بآجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة. وعزى
الرشيد رجلٌ فقال: كان لك الأجر يا أمير المؤمنين لا بك، وكان العزاء لك لا عنك. أخذه
الآخر فقال:

كن المعزى لا المعزى به إن كان لابد من الواحد

وقال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك وقد اشتد به الألم: كيف تجدك يا بني؟ قال:
أجدني في الموت، فاحتسبني، فإن ثواب الله خيرٌ لك مني. قال: والله يا بني لأن تكون في
ميزاني أحب إلي من أكون في ميزانك. قال: وأنا والله لأن يكون ما تحب أحب إلى من
يكون ما أحب.
وعزى شبيب بن شبة أبا جعفر المنصور بأخيه أبي العباس السفاح فقال: جعل الله
ثواب ما رزئت لك أجراً، وأعقبك عليه صبراً، وختم لك بعافيةٍ تامةٍ، ونعمةٍ عامةٍ، فثواب
الله خيرٌ لك منه، وأحق ما صبر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل.
ودخل البلاذري عل علي بن موسى الرضا يعزيه بابنه فقال: أنت تجل عن وصنا، ونحن
نقصر عن عظتك، وفي علمك ما كفاك، وفي ثواب الله ما عزاك.
فهذه نبذةٌ في التعازي كافيةٌ، وجنةٌ لمن تحصن بها من ذوي الفجائع واقية. فلنذكر
المراثي.

من المراثي والنوادب

ولنبدأ من ذلك بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبشيءٍ مما قيل عند وفاة رسول
الله صلى الله عليه وسلم. فمن ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم وفاة ولده
إبراهيم عليه السلام: "يا إبراهيم لو لا أنه أمرٌ حقٌ ووعدٌ صدقٌ وأن آخرنا سيلحق أولنا
لحزنا عليك حزناً هو أشد من هذا وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون تبكي العين ويحزن القلب
ولا نقول ما يسخط الرب". ذكره الجواني النسابة في شجرة الأنساب، وذكره غيره مختصراً.

ومنه ما روي أن فاطمة رضي الله عنها وقفت على قبره صلى الله عليه وسلم وقالت:

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا لما نعيت وحالت دونك الكثب

ووقف على رضى الله عنه على قبره صلى الله عليه وسلم ساعة دفن وقال: الصبر لجميلٌ إلا عنك، وإن الجزع لقبيحٌ إلا عليك، وإن المصاب بك لجليل، وإنه قبلك وبعدك لجلل. وقد ألم الشعراء بهذا المعنى، فقال إبراهيم بن إسماعيل في علي ابن موسى الرضا:

إن الرزية يا ابن موسى لم تدع في العين بعدك للمصائب مدمعا

والصبر يحمد في المواطن كلها والصبر أن نبكي عليك ونجزعا

ووفق أعرابيٌ على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قلت فقبلنا، وأمرت فحفظنا، وقلت عن ربك فسمعنا: "ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفرهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً"، وقد ظلمنا أنفسنا وجئناك فاستغفر لنا، فما بقيت عينٌ إلا سالت.

ودخل عمر بن الخطاب على أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنهما في مرض موته، فقال: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كلفت القوم بعدك تعباً، ووليتهم نصباً، فهيهات من شق غبارك! وكيف باللحاق بك!.

وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وأبوها يغمض:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمةٌ للأرامل

فنظر إليها وقال: ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم أغمي عليه، فقالت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فنظر إليها كالغضبان وقال: قولي: "وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد".

ثم قال: انظروا ملاءتي فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت.

ووقفت رضي الله عنها على قبره رضي الله عنه فقالت: نضر الله وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلاً عنها بإدبارك عنها، وكنت للآخرة معزاً بإقبالك

عليها، ولئن كان أجل الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزءك، وأعظم
المصائب بعده فقدك، إن كتاب الله ليعد بحسن الصبر فيك وحسن العوض منك، فإنا
لنتنجز موعود الله بحسن العزاء عليك، واستعيضه منك بالاستغفار لك. أما لئن كانوا
أقاموا بأمور الدنيا لقد قمت بأمر الدين حين وهى شعبه، وتفاقم صدعه، ورجفت
جوانبه. فعليك السلام ورحمة الله توديع غير قاليةٍ لك، ولا زاريةٍ على القضاء فيك. ثم
انصرفت.
ولما قبض رضي الله عنه سجي عليه بالثوب، فارتجت المدينة بالبكاء ودهش القوم كيوم
قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه باكياً
مسرعاً مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول: رحمك الله يا أبا بكر، كنت والله أول القوم
إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأعظمهم غناءً، وأحفظهم على رسول الله صلى
الله عليه وسلم، وأحدبهم على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبههم برسول الله صلى
الله عليه وسلم خلقاً وفضلاً وهدياً وسمتاً، فجزاك الله عن الإسلام وعن الرسول الله صلى
الله عليه وسلم خيراً، صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس،
وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وأسماك الله في كتابه صديقاً فقال: "والذي
جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون"، يريد محمداً ويريدك. كنت والله للإسلام
حصناً وعلى الكافرين عذاباً، ولم تفلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك.
كنت كالجبل الذي لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف. كنت كما قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله
جليلاً في الأرض، كبيراً عند المؤمنين. لم يكن لأحدٍ عندك مطمعٌ ولا لأجد عندك هوادة،
فالقوي عندك ضعيفٌ حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عنك قويٌ حتى تأخذ الحق له.
فلا حرمنا الله أجرك، ولا أضلنا بعدك.
فانظر إلى هذا الأسلوب العجيب، وتأمل هذا النمط الغريب، الذي جمع بين سلاسة

الألفاظ وإيجازها، وإصابة المعنى وإعجازها. ولا يستكثر على من أنزل القرآن بلغتهم، أن
يكون هذا القول من بديهتهم.
ولنذكر لمعةً من رسائل البلغاء والفضلاء، ولمحةً من أشعار الأدباء والشعراء. فمن ذلك
رسالةٌ كتبها الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد، إلى الوزير الفقيه
أبي القاسم الهوريني يعزيه عن أخيه، ابتدأها بأن قال:

لابد من فقدٍ ومن فاقدٍ هيهات ما في الناس من خالد
كن المعزى لا المعزى به إن كان لا بد من الواحد

إذا لم يكن بدٌ من ترجع الحمام، وتشتت النظام، وانصداع شمل الكرام، فمن الاتفاق
السعيد والقدر الحميد أن يرث أعمار البنية الكريمة مشيد علاها، وتسلم من القلادة
وسطاها، فمدار الكنانة على معلاها، وفخار الحلبة بمحرز مداها. وفي هذه النبذة إشارةٌ
إلى ما فرط من الإخوة النبلاء، ودرج من السادة النجباء، فإنهم وإن كانوا في رتبة الفضل
صدوراً، وغدوا في سماء النبل بدوراً، فإن شمس علائك أبهر أضواءً وأزهر أنواراً، وظل
جنابك على بنيهم ومخلفيهم أندى آصالاً وأبرد أسحاراً. نعي إلي - أوشك الله سلوانك،
ولا أخلى من شخصك الكريم مكانك! - الوزير أبو فلان، برد الله ثراه، وكرم مثواه،
فكأنما طعن ناعيه في كبدي، وظعن باكيه بذخيرة جلدي. لا جرم أني دفعت إلى غمرةٍ من
التلدد ولو صدم بها النجم لحار، أو دهم بها الحزم لخار، ثم ثابت إلى نفسي وقد وقذها
الجزع، وعضها الوجع، فأطلت الاسترجاع، وجمعت الجلد الشعاع، وها أنا عند الله
أحتسبه جماع فضائل، وجمال محافل، وحديقة مكارمٍ صوحت، وصحيفة محاسنٍ درست
وانمحت. وما اقتصرت من رسم التعزية المألوف، على القليل المحذوف، فبك يقتدي
اللبيب، وعلى مثالك يحتذي الأديب، وإلى غرضك من كل موطنٍ يوفى المصيب، وفي تجافي
الأقدار عن حوبائك، وسقوطها دون فنائك، ما يدعوا إلى التعزية. لا صدع الله جمعك، ولا
قرع بنبأة المكروه سمعك.

ومن إنشاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني:

ورد الخبر بمصرع فلان الذي عز على المعالي، وعزيت به الليالي، وسقط به نجم الشرف

وهوى، وجف به روض الكرم وذوى، ونقصت الأرض من أطرافها، ورجفت الجبال من
أعرافها، وبكيت عليه السماء فإن يده كانت من سحبها، وتناثرت له النجوم فإن عزمه كان
من شهبها، وأظلمت في عيني الدنيا الظالمة، وتجرعت منها كأساً لا تسيغها النفس كاظمة،
وتقسمت الأيام فريقين في مودتي وعداوتي، فآهاً على السفالة ولا مرحباً بالقادمة،
وأصبحت أخوض الماء وأحشائي تتقطع غليلاً، وارى الناس كثيراً بعيني وبقلبي قليلاً.
وما الناس في عيني إلا حجارةً لبينك والأعراس إلا مآتم
فقد استوحشت الدنيا لفقده، وارتابت بنفسها من بعده، وعلمت حلاوة قربه بمرارة بعده،
وانصرف ذوو الألباب عن بابه، واجتنبت الآمال مغنى جنابه، وبكت الرياض على آثار
سحابه.
فإن يمس وحشاً بابه فلربما تناطح أفواجاً عليه المواكب
ومن إنشائه رحمه الله تعالى: ما شككت - أطال الله بقائك - حين ورد النعي بالمصائب
التي قصمت الظهور بمكروهها، وحسرت فيها الحسرات عن وجوهها، أن السماء على
الأرض قد انطبقت، وأن الأيام ما أبقت والسعادة قد أبقت، والحياة لم يبق في طولها طائل،
والصبر بهجير اللوعة ظلٌ منسوخٌ زائل، وشمس الفضائل قد غربت وكيف بطلوعها، ونفس
المكارم قد نزعت من بين ضلوعها، وغاب الإسلام قد غاب منه أي ليث، ورياض الآمال
قد أقلع عن سقياها أي غيثٍ. فإنا لله وإنا إليه راجعون، رضاً بحكمه، وتجلداً علة ما
رمى به الحادث من سهمه، وطباً للقلوب على مضض البلاء وكلمه، وفراراً من الجمع بين
مصيبة الفاقد وإثمه. وسقى الله ذلك الضريح ما شاء أن يسقيه من سحابٍ كصوب يديه،
ورحمه رحمً تحف بجانبيه. وآهاً للماء العذب كيف ارتشفته النوازل وأبقت الملح، ثم آهاً
للصباح الطلق كيف اغتالته الأصائل وأطلقت الجنح، ووا أسفا لتلك الذخيرة التي فذلكت
بها الأيام ذخائري، والسريرة التي طالما صنتها أن تمر بسرائري، شفقاً عليها من سهام دهرٍ
بالذخائر مولعةً، وستراً لها من عين الزمان على السرائر موقعة.
ولئن صحب قلبي بعد

أضلعي، وتحملت بعد فقده على ظلعي، فإنا غداً على أثره، وإن كنا اليوم على خبره.
وقصر الحياة إلى قصور، كما أن محصول غرورها غرور.
والتأدب بأدب الله أولى ما خفف
به المسلوب عن مناكبه، وطريق السلوان لابد أن يراجعه عزم منكبه. فأنشدها الله إلا
جعلت مصيبتها مصيبةً على الشامت بما تلبسه من صبرٍ يلبس عليه المصيبة فيشبهها
بنعمة، وبما تستشعره من تجلدٍ في النازلة ينزل عليها صلواتٍ من ربها ورحمة. ولن ترى
أعجب من مصابٍ لا ترى به إلا مصاباً، وساكن تربٍ لم يبق بعده إلا من سقى بدمعه تراباً،
اشترك فيه الأمتان العرب والعجم، وعزي به العزيزان المجد والكرم، واستباح الدهر به
الصيد في الحرم.
وتشابه به الباكون فلم يبن دمع المحق لنا من المتعمل
وكتب أيضاً في مثل ذلك: أخرت مكاتبة الحضرة - مد الله في عمرها في صبرها وفي
أجرها، وألهمها التسليم لحكم من هو غلبٌ على أمرها - إلى أن تنقضي نبوة الخطب،
وتضع الأنفاس أوزارها للحرب، ويخرج ماء الجفن نار القلب، وتراجع الخواطر إلى عاداتها،
وتنظر في الدنيا التي ما صبحت إلا على عادياتها ومعاداتها، فتكون الحضرة عرفت من
غير تعريف، ووقفت على الحزم من غير توقيف، وتوفر عليها الثواب من غير مشاركٍ
ورجعت إلى فهمٍ مدركٍ وصوابٍ مدارك. وتأخير التعزية عن البادرة خلاف ما شرع فيه،
ولكن إنما يحتاج أن يثبت من صبره هاف، ويرم من تجلده عاف. وقد علم الله اهتمامي
واغتنامي بفقد شيخها رحمه الله وعدمها منه من لا عوض منه إلا ثواب الله الذي يهون
الوقائع، ويوطن على الروائع. وأسباب التعزية غير واحدة، منها أنه إنما درج في السن التي
هي معترك المنايا، ومنها أنه ما خرج عن الدنيا إلى أن رأى منها خلفاً يهون الرزايا، ومنها
أنه لقي الله بعملٍ صالحٍ هو بمشيئة الله نجاته، ومنها أنه فارقها على الرضا عنها ويكفيها
مرضاته، وعلى الدعاء المقبول لها ونعمت الجنن دعواته.
ولكن للألاف لابد حسرةً إذا جعلت أقرانها تنقطع
ومنها أن الحزن لو أطيع والحزم لو أضيع لما أفضى إلي مراد، ولا أعاد ميتاً قبل المعاد.

وأحق متروك ما يأثم طالبه، ويؤجر مجانبه.
عن الدهر فاصفح إنه غير متعب وفي غير من قد وارت الترب فاطمع
والحضرة تعلمني من لاحقة رجوعها إلى الله بعد الاسترجاع، ومن تسليم خاطر الحزن إلى
حكم الله ما يسر خاطر الاستطلاع، وحسبه - أبقاه الله تعالى - من كل هالك، ولا يجزه
المحاسب من فذلك، ومثله من أخذ بعزائم الله فيما هو آخذٌ وتارك. جبر الله مصابه،
وعظم ثوابه، وسقى الماضي وروى ترابه، ولا تذهب النفس حسرةً لما شهدت العين
ذهابه.
وتخطفته يد الردى في غيبتي هبني حضرت فكنت ماذا أصنع
ومن إنشاء الشيخ ضياء الدين أحمد بن محمد القرطبي ما كتب به إلى الصاحب شرف
الدين الفائزي يعزيه في مملوكٍ توفي له، وكان الصاحب قد جزع لفقده. ابتدأ كتابه بأن قال:
فديً لك من يقصر عن مداكا فلا أحدٌ إذا إلا فداكا
إنا لله وإنا إليه راجعون. لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة، وسنةٌ في الأسى
مستحسنة، وإنما الأنفس ودائع مستودعة، وعوارٍ مسترجعة، ومواهب بيد الفناء
مستنزعة.
فالعمر نومٌ والمنية يقظةٌ والمرء بينهما خيالٌ ساري
وما برح ذوو العزمات يتلقون واردات المصائب بصبرهم، وما كان لمؤمنٍ ولا لمؤمنةٍ إذا
قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم. وإن يد الله لمليةٌ بفيض المواهب،
وفي الله عوضٌ من كل بائنٍ وخلفٌ من كل ذاهب. وإذا سلم مولانا في نفسه وولده، فلاً
بأس إذا تطرقت يد الردى إلى ملك يده.
فأنت جوهر الأعناق، ما ملكت كفاك من طارفٍ أو تالد عرض
والحمد لله الذي جعل المصيبة عندك لا بك، والرزية لك لا فيك.
إذا سلمت فكل الناس قد سلموا
وإذا تخطتكما المنية فلها في سواكما الخيار، ولنا القدح المعلى إذا أروي زند هذا
الاختيار. ولا بد في مشرع المنية من مفقودٍ وفاقد.
كن المعزى لا المعزى به إن كان لا بد من الواحد
وهذا فقد وهب الله لمولانا من حيث إنه أخذه منه، وأبقاه من حيث رآه ذاهباً عنه، فهو

بالأمس عاريةٌ مردودة، واليوم ذخيرةٌ موجودة، وكان عطيةً مسلوبةً وهو الآن نعمةٌ موهوبة،
كنت له وهو الآن لك، وفزت به والسعيد من فاز بما ملك. وهذه دارُ دواؤها داؤها،
وبقاؤها فناؤها، طالبها مطلوب، وسالبها مسلوب، وإن لنا فيمن سلف لعزاء، ولنا برسول
الله صلى الله عليه وسلم اقتداء، ولا بد من ورود هذا المشرع، وملاقاة هذا المصرع.
ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبي ما كتب به عن بعض النواب إلى الأمير عز
الدين الحموي النائب - كان بدمشق - تعزيةً بولده:
أعز الله أنصار المقر الكريم العالي، ولا هدمت له الخطوب ركناً، ولا فجأت له الحوادث
حمًى ولا طلبت عليه إذناً، ولا هصرت أيدي الأقدار من عروشه الناضرة غصناً، ولا
أذاقته الأيام بعد ما مر أسفاً على من يحب ولا حزناً، ولا سلبه الجزع رداء الصبر الذي لا
يخصه بجزيل الأجر وإن شركه في الأسى والأسف كلٌ منا.
المملوك يقبل اليد الكريمة، ويهنئ أنه اتصل به النبأ الذي صدع قلبه، وشغل بالبكاء طرفه
وبالأسف لسانه وبالحزن لبه، وهو ما قدره الله تعالى من وفاة المولى الأمير ركن الدين عمر
- تغمده الله برضوانه - الذي اختار الله له ما لديه، وارتضى له البقاء الدائم على الفاني
فنقله إليه، على أن الدين فقد منه ركناً شديداً، ورأياً سديداً، وعزماً وحزماً معيناً مفيداً،
وأميراً أردنا أن يعيش سعيداً، فأبى الله إلا أن يموت شهيداً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.
لقد كان للرجاء في اعتضاد الدولة القاهرة به أي مجال، وللآمال في الانتظار ببأسه ظنونٌ
تحقق أن الغلبة للدين دائماً مع أن الحروب سجال، وللمواكب بطلوع طلعته أي إشراق،
وللعيون عن مشاهدة كماله وأبهة جلاله أي إغضاءٍ ورأي إطراق. ولله أي بدرٍ هوى من
أفق بروجه عن فلك، وأي شمسٍ ما رأته الجواري الكنس إلا قلن: حاش لله ما هذا بشراً
إن هذا إلا ملك، وأي حصنٍ كانت منه ثمار الشجاعة تجتنى، وأي أسدٍ براثنه الصوارم
وأجماته القنا. لقد فت في عضد الدين مصابه، وأذهب صحة الأنس به وحلاوة وجوده
أوصاب فقده وصابه، وكادت الصوارم أن تشق عليه غمودها، والرايات أن تقطع عليه

ذوائبها وتغير بنودها ، والرماح أن تعرض على النار لتقصف لا لتثقف قدودها، والجياد أن
تتعثر للحزن بذيولها، وتعتاض بالنوح عن صهيلها. ولو أنصف لأكنته القلوب في ضمائرها،
ولو قبل الفداء لسمحت فيه النفوس بالنفائس ولو كانت الحياة من ذخائرها، أو لو كان
الحتف مما يدافع بالجنود تحطمت دونه القنا في دروع عساكرها، ولكنه السبيل الذي لا
محيد عن طريقه، والمعرس الذي لابد لكل حيٍ من النزول على فريقه، وهو الغاية التي تستن
إليها النفوس استنان الجياد، والحلبة التي كنا نحن وهذا الدارج نركض إليها ولكن السابق
كان الجواد، على أن المتأخر لابد له من اللحاق، وماذا عسى يسر البدر بكماله وهو يعلم
أن وراءه المحاق! وفي رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يعلم أن كل رزءٍ بعده جلل، وإذا
انتقل العبد إلى الله تعالى غير مفتونٍ في دينه ولا مثقل الظهر من الأوزار حمد في غدٍ ما فعل،
وغبط بقدومه على أكرم الأكرمين مسروراً، ولقي الله وقد جعل في قلبه نوراً وفي سمعه نوراً
وفي بصره نوراً. والمولى أعزه الله تعالى أولى من تلقى أمر الله بالتسليم والرضا، وقابل
أقداره بأن الخيرة فيما قدر وقضى، وحمد الله على ما وهب من بقاء إخوته الذين فيهم
أعظم خلف، وأجمل عوضٌ يقال به للدهر الذي اعتذر بدوام المسرة فيهم: عفا الله عما
سلف، وعلم أن الخطب الذي هد ركن الدين باحترابه واجتراحه، قد صرفه إلى الأمد عن
الإلمام بساحة شهابه والتعرض إلى حمى فخره والنظر إلى حي صلاحه، ففي بقائهم ما يرغم
العدا، ويعز حزب الهدى، ويقيم كلاً منهم في خدمة الدولة القاهرة بين يدي المولى مقام
الشبل المنتمي للأسد، وينهضهم من مصالح الإسلام مع ما يعلمه منهم من حسن الثبات من
الوالد وسرعة الوثبات من الولد. والله تعالى يجزل له من الأجر أوفاه، ويحفظ عليه - وقد
فعل - أخراه، ويجعله للإسلام ذخراً، ولا يسمعه مع طول البقاء بعدها تعزيةً أخرى.
ومن أحسن الرثاء وأشجاه ما نطقت به الخنساء في رثائها لأخيها صخر، فمن ذلك قولها:

ألا يا صخر إن أبكيت عيني لقد أضحكتني دهراً طويلاً
دفعت بك الجليل وأنت حيٌ فمن ذا يدفع الخطب الجليلا

إذا قبح البكاء على قتيلٍ رأيت بكاءك الحسن الجميلا
وقالت أيضاً فيه:
ألا هبلت أم الذين غدوا به إلى القبر، ما ذا يحملون إلى القبر!
وماذا يواري القبر تحت ترابه من الجود! يابؤس الحوادث والدهر!
فشأن المنايا إذ أصابك ريبها لتغد على الفتيان بعدك أو تسري
وقالت:
يذكرني طلوع الشمس صخراً وأبكيه لكل غروب شمس
ولو لا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي
وقالوا: أرثى بيتٍ قالته العرب قول متمم بن نورية في أخيه مالك، وكان قد قتله خالد بن
الوليد في الردة. وكان متمم قدم العراق، فاقبل لا يرى قبراً إلا بكى، فقيل له: يموت أخوك
بالملا وتبكي على قبرٍ بالعراق! فقال:
لقد لامني عند القبورً على البكا رفيقي لتذارف الدموع السوافك
أمن أجل قبرٍ بالملا أنت نائحٌ على كل قبرٍ أو على كل هالك
وقال: أتبكيً كل قبرٍ رأيته لقبرٍ ثوى بينً اللوى فالدكادك
فقلت له: إن الشجا يبعث الشجا فدعني فهذا كله قبر مالك
معناه قد ملأ الأرض مصابه عظماً، فكأنه مدفونٌ بكل مكان. وهو أبلغ ما قيل في تعظيم
ميت. وقيل أرثى بيتٍ قالته العرب قول المحدث:
على قبره بين القبور مهابةٌ كما قبلها كانت على صاحب القبر
وقيل: بل قول الآخر:
أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر
وقالوا: بل بيتٌ غيره:
فما كان قيسٌ هلكله هلك واحدٍ ولكنه بنيان قومٍ تهدما
وقال الأصمعي: أرثي بيت قالته العرب قول الشاعرً:
ومن عجبٍ أن بت مستشعر الثرى وبت بما زودتني متمتعا
ولو أنني أنصفتك الود لم أبت خلافك حتى ننطوي في الثرى معا
ومن أحسن الرثاء قول الحسين بن مطير الأسدي:
ألما بمعنٍ ثم قولا لقبره: سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا
فنًى عيشً في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
أيا قبر معنٍ كنت أول حفرةً من الأرض خطت للسماحة مضجعا

ويا قبر معنٍ كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعا!
بلى قد وسعت الجود والجود ميتٌ ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا
ولما مضى معنٌ مضى الجود والندى وأصبح عرنين المكارم أجدعا
قال أبو هلال العسكري: هذه الأبيات أرثى ما قيل في الجاهلية والإسلام.
وقال بكر بن النطاح يرثي معقل بن عيسى:
وحدثني عن بعض ما قال أنه رأت عينه فيما ترى عين نائم
كأن الندى يبكي على قبر معقلٍ ولم تره يبكي على قبر حاتم
ولا قبر كعبٍ إذ يجود بنفسه ولا قبر حلف الجود قيس بن عاصم
فأيقنت أن الله فضل معقلاً على كل مذكورٍ بفضل المكارم
وقال آخر:
لعمرك ما وارى التراب فعاله ولكنما وارى ثياباً وأعظما
ومثله المنصور النمري:
فإن تك أفنته الليالي وأوشكت فإن له ذكراً سيبقى اللياليا
وقال التميمي في منصورٍ بن زياد:
أما القبور فإنهن أوانسٌ بفناء قبرك والديار قبور
عمت صنائعه فعم مصابه فالناس فيه كلهم مأجور
يثني عليك لسان من لم توله خيراً لأنك بالثناء جدير
ردت صنائعه إليه حياته فكأنه من نشرها منشور
فالناس مأتمهم عليه واحدٌ في كل دارٍ رنةٌ وزفير
وقال ابن القزاز المغربي:
سأبكيك لا أن البكا عدل لوعتي ولا أن وجدي فيك كفء تندمي
وقل لعيني أن تفيض دموعها عليك ولو أن الذي فاض من دمي
وقال الخريمي:
وأعددته ذخرً لكل ملمةٍ وسهم الرزايا بالذخائر مولع
وإني وإن أظهرت مني جلادةً وصانعت أعدائي عليه لموجع
ولو شئت أن أبكي دماً لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع
وقال أبو هلالٍ العسكري:
على الرغم من أنف المكارم والعلا غدت داره قفراً ومغناه بلقعا
ألم تر أن البأس أصبح بعده أشل وأن الجود أصبح أجدعا
فمرا على قبر المسود وانظرا إلى المجد العلياء كيف تخشعا
فإن يك واراه التراب فكبراً على الجود والمعروف والفضل أربعا

ولا تسأما نوحاً عليه مكرراً ونوحاً لفقد العارفات مرجعا
فما كان قيسٌ هلكه هلك واحدٍ ولكنه بنيان قومٍ تضعضعا
ولا تحسبا أني أواريه وحده ولكنني واريته والندى معا

وقال أيضاً:

ألست ترى موت العلا والفضائل وكيف غروب النجم بين الجنادل!
فما للمنايا أغفلت كل ناقصٍ ونقبن في الآفاق عن كل فاضل!
على الرغم من أنف العلا سيق للردى بكل كريم الفعل حر الشمائل
على أن من أبقته ليس بخالدٍ وليس امرؤٌ يرجو الخلود بعاقل
رأيت المنايا بين غادٍ ورائح فما للبرايا بين ساهٍ وغافل!
ولم أر كالدنيا حبيباً مضرةً ولم أر مثل الموت حقاً كباطل

وقال الرقاشي في البرامكة:

ألان استرحنا واستراحت ركابنا وقل الذي يحدى ومن كان يحتدي
فقل للمطايا: قد أمنت من السرى وطي الفيافي فدفداً بعد فدفد
وقل للمنايا: قد ظفرت بجعفرٍ ولن تظفري بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل: تعطلي وقل للرزايا كل يومٍ: تجددي
ودونك سيفاً برمكياً مهنداً أصيب بسيفٍ هاشميٍ مهند

وقال آخر:

سأبكيك للدنيا وللدين، إنني رأيت يد المعروف بعدك شلت
ربيعٌ إذا ظن الغمام بمائه وليثٌ إذا ما المشرفية سلت

وقال عبد الله بن المعتز:

ألست ترى موت العلا والمحامد وكيف دفنا الخلق في قبرٍ واحد
وللدهر أيامٌ يسئن عوامداً ويحسن إن أحسن غير عوامد

وقال أبو الطيب المتنبي:

إني لأعلم - واللبيب خبير - أن الحياة وإن حرصت غرور
ما كنت أعلم قبل دفنك في الثرى أن الكواكب في التراب تغور
خرجوا به ولكل باكٍ حوله صعقات موسى يوم دك الطور
حتى أتوا جدثاً كأن ضرحه في قلب كل موحدٍ محفور
نبكي عليه وما استقر قراره في اللحد حتى صافحته الحور

ومنها:

صبراً على المكروه فيه تكرماً إن العظيم على العظيم صبور
ولكل مفجوعٍ سواكم مشبهٌ ولكل مفقودٍ سواه نظير

وقال آخر:

كفى حزناً أني تخلقت بعده أدور مع الباكين في عرصاته

وصارت يميني ما حلفت بقبره وكانت يميني قبلها بحياته
وقال آخر:
وكنت أخاف الدهر ما كان باقياً فلما تولى مات خوفي على الدهر
وقال آخر:
ولما دعوت الصبر بعدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر
وإن ينقطع منك الرجاء فإنه سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر
وقال آخر:
فو الله لو أسطيع قاسمته الردى فمتنا جميعاً أو يقاسمني عمري
ولكنما أرواحنا ملك غيرنا فمالي في نفسي ولا فيه من أمر
أحمله ثقل التراب وإنني لأخشى عليه الثقل من موطئ الذر
وما أنا بالوافي وقد عشت بعده روب اعترافٍ كان أبلغ من عذر
وقال آخر:
يا راحلاً لم يبق لي من بعده في العيش نفعا
ضاقت على الأرض في ك وضقت بالإخوان ذرعا
ورعيت فيك النجم يا من كان يحفظني ويرعى
أبكيت بالشعر الذي قد رق حتى صار دمعا
وقال تاج الملوك بنو أيوبٍ يرثي أخاه:
لو كان يشفي الدعم غلة واجدٍ لشفي غليلي فيض دمعي الهامر
هيهات لا برد الغليل وقد ثوى من كان من عددي وخير ذخائري
يا للرجال لنكبةٍ قد أذهبت جلد الجليد وحسن صبر الصابر
طرقت فتى الملك المعظم فانثنى من بعد بهجته كربع طائر
ومنها:
جبلٌ هوى فارتجت الدنيا له فكأنما ركبت جناحي طائر
ومنها:
من للنوائب يوم تفترس الورى قسراً بأنيابٍ لها وأظافر
أضحى وحيداً في التراب كأنه ما سار بين مواكب وعساكر
قد كان لا تعصي البرية أمره فانقاد متمثلاً لأمر الآمر
مولاي دعوة والهٍ غادرته وقفاً على نوب الزمان الغادر
هل من سبيلٍ للزيارة عندها هيهات حال الموت دون الزائر
لو كان خصمك غير حادثة الردى لرددته بذوابلٍ وبواتر
أو كان يدرك ثأر من أودى به ريب المنون لكنت أول ثائر
لكنه الموت الذي قهر الورى من حيث لا تثنيه قدرة قادر

وقال كمال الدين بن النبيه يرثي علي ابن الخليفة الناصر لدين الله:

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد
والله لا يدعو إلى داره إلا من استصلح من ذي العباد
والموت نقاد، على كفه جواهرٌ يختار منها الجياد
والمرء كالظل ولا بد أن يزول ذلك الظل بعد امتداد
لا تصلح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجسام هذا الفساد
أرغمت يا موت أنوف القنا ودست أعناق السيوف الحداد
كيف تخيرت أميراً وما أنجده كل طويل النجاد
مصيبةٌ أذكت قلوب الورى كأنما في كل قلبٍ زناد
نازلةٌ عمت فمن أجلها سن بنو العباس لبس السواد
مأتمةٌ في الأرض لكن لها عرسٌ على السبع الطباق الشداد
طرقت يا موت كريماً فلم يقنع بغير النفس للضيف زاد
قصمته من سدرة المنتهى غصناً فشلت يد أهل العناد
يا ثالث السبطين خلفتني أهيم من همي في كل واد
يا نائماً في غمرات الردى كحلت أجفاني بميل السهاد
ويا ضحيع الترب أسقمتني كأنما فراشي شوك القتاد
دفنت في الترب ولو أنصفوا ما كنت إلا في صميم الفؤاد
خليفة الله اصطبر واحتسب فما وهى البيت وأنت العماد
في العلم والحكم بكم يقتدى إذا دجا الخطب وضل الرشاد
وأنت لج البحر ما ضره أن سأل من بعض نواحيه واد

ولما مات الإخشيد محمد بن طغج رثاه جماعةٌ من الشعراء منهم محمد بن الحسن ابن
زكريا فقال:

في الرزايا روائع الأوجال والبرايا دريئة الآجال
وكذا الليل والنهار اعتبارٌ للورى في تفكر الأحوال
كل شيءٍ وإن تمادى مداه قصره للفناء أو للزوال
وأرى كل عيشةٍ لأناسٍ كونها مؤذنٌ بوشك انتقال
كل ذي جدةٍ - إذا ما الجديدا ن ألحا عليه - مودٍ بال
ما لخلقٍ من المنون مفرٌ لا ولا دون بطشها من مآل
كان غيث الأيام إن أخلف الغي ث أطلت سحابه بانهمال
فجعتنا بواهبٍ لا نراه يخلق الوجه عنده بابتذال
فجعتنا ببهجة الأرض في الأر ض وشمس الضحى وبدر الليالي
فجعتنا بمن حمى حرمة الإس لام من حادثٍ ومن ختال
فجعتنا بالباسل البطل السا مي غداة الوغى إلى الأبطال
فجعتنا بالواهب المجزل المر تاح حين السؤال للسؤال
عجبٌ إذ دنت عليه المنايا وحمى عزه المنيع العالي
أين من يشتري المدائح والشك ر بأسنى وفرٍ وأوفى نوال
قطع الموت وصلنا منه كرهاً والردى قاطعٌ لكل اتصال
رحمة الله والسلام عليه في الضحى والعشاء والآصال
وسقى الله حفرةً ضمنته شكر واهٍ من الحيا هطال

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ابنه فقال:

إن خبا بدره فقد لاح للأم ة لما خبا طلوع الهلال
نوره مشرقٌ مضيءٌ مدى الده ر منيرٌ وليس ذا اضمحلال

وقال أبو الطيب المتنبي يرثيه:

هو الزمان مشتٌ بالذي جمعا في كل يومٍ نرى من صرفه بدعا
لو كان ممتنعٌ تغنيه منعته لم يصنع الدهر بالإخشيد ما صنعا
ذاق الحمام فلم تدفع كتائبه عنه القضاء ولا أغناه ما جمعا
لقد نعى كل من نعاه مفتخرٍ وكل جودٍ لأهل الأرض حين نعى
لله ما حل بالإسلام حين ثوى! لقد وهى شعب هذا الدين فانصدعا
فمن تراه يقود الخيل ساهمةً سد الفضاء وملء الأرض ما وسعا
ترى الحتوف غلوقاً في أسنته لدى الوغى وشهاب الموت قد لمعا
لو كان يسطيع قبرٌ ضمه لسعى إليه شوقاً ليلقاه وإن شسعا
فليعجب الناس من لحدٍ تضمن من تضمن الرزق بعد الله فاضطلعا
لو يعلم اللحد ما قد ضم من كرمٍ ومن فخارٍ ومن نعماء لاتسعا
يا لحده إن تضق عنه فلا عجبٌ فيه الحجا والنهى والبأس قد جمعا
يا لحد طل فإن البحر فيك محتبساً والليث منهصراً والجود مجتمعا
يا يومه لم تخص الفجع أسرته كل الورى بردى الإخشيد قد فجعا
يا يومه لم تدع صبراً لمصطبرٍ ولم تدع مدمعاً إلا وقد دمعا
أردى الرفاق ردى الإخشيد فانقرضوا فما ترى منهم في الأرض منتجعا
يأيها الملك المخلي مجالسه أحميت أعيننا الإغماض فامتنعا

ومنها:

لئن مضيت حميد الأمر متفقداً لقد تركت حميد الأمر متبعا

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ولد الإخشيد:

ثبت الجنان فلا نكسٌ ولا ورعٌ تلقاه مؤتزراً بالحزم مدرعا
أعطت أبي القاسم الأملاك بيعتها ولو أبت أخذت أسيافه البيعا
وانقاد أعداؤه ذلاً لهيبته وظل متبعوهم من خوفه تبعا
أضحت بهم همم الغلمان عاليةً كأن مولاهم الإخشيد قد رجعا

وقال مهلهل بن يموت يرثيه أيضاً:

أي عزٍ مضى من الإسلام! أي ركنٍ أضحى حديث انهدام!
ذاق موتاً محمد بن طغج هو ليث الشرى وغيث الغمام
فقد الناس مولى الإنعام فهم سائمون كالأنعام
مات رب العلا وراعي الرعايا والسرايا وكافل الأيتام
أين ما كنت فيه من عزك البا ذخ والمرتقى عزيز المرام!
أين ذاك الحجاب والملك والهي بة أين الزحام وقت الزحام!
من أميرٍ وقائدٍ وخطيرٍ ورئيسٍ وماجدٍ وهمام
كلهم مطرقٌ لديك من الهي بة خوف الإجلال والإعظام
أين تلك الخيام حولك إن عر ست والأسد حول تلك الخيام
من عديد وعدةٍ لك ما بي ن قعودٍ فيها وبين قيام
لم يطق جمعهم دفاع الردى عن ك ولم يمنعوك منع اعتصام
أسلمتك الخيول قسراً وقد كن ت عليها سوراً على الإسلام
خانك السيف وهو يصدر عن أم رك مستعدياً بغير احتجام
خذل الرمح وهو عونك لو حا ن لقاءٌ وثار نقع قتام
لم ترد القسى عنك سهام ال حتف والحتف عندها في السهام
ما وقتك الحراب حرب المنايا حين وافاك جيشها من أمام
لم يحصنك ما اقتنيت من الآ لات من جوشن ولا من لام
حكم الموت فيك من بعد ما كن ت ترى حاكماً على الحكام
فقدتك الفسطاط وجداً مدى الده ر ومن بعدها بلاد الشام
فجعت يثربٌ ومكة والبي ت إلى زمزمٍ أجل والمقام
عم فيك المصاب فاشترك العا لم في الرزء منه والآلام
حسبنا الله من عزٍ من حكمٍ يج ري على الحاكمين بالأحكام
كل شيءٍ إلى زوالٍ، ومن ذا نال ملك الدنيا بغير اختزام
أين أين الملوك في سالف الد هر دهتم حوادث الأيام
أين من قد كانوا يخافون في البأ س ويرجون للعطايا الجسام
ليس يبقى إلا الإله تعالى من له الملك ثابتاً بالدوام
أيهذا الأمير بل يا أبا القا سم يا بن السميدع القمقام
ارض حكم الإله في الحكم الما ضي وسلم لنافذ الأحكام
وهناك الذي بلغت من الأم ر وما حزته بحسن انتظام
ما كمثل الذي رزئت ولا مث ل الذي قد ملكت في ذا العام
أنت مثل الإخشيد فانهض بما مل كت بالجد منك والاعتزام

وقال بعض الشعراء يرثي الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بن المعز خليفة مصر:

إن التصبر في الأمور جميل إلا عليك فما إليه سبيل
يا حاملاً ثقل العلا وكأنه لعلو همته بها محمول
يا واهباً فوق المنى وكأنه لسخائه مما يجود بخيل

جاء منها:

يا ترب لا تأكل لساناً طالما والى به الحميد والتهليل
يل ترب لا تعنف بكف طالما قد كان يؤلم ظهرها التقبيل

ومنها:

يا دهر تعلم ما جنيت على الورى؟! خطبٌ لعمرك إن علمت جليل
ما كان ضرك لو مهلت بمثله يا دهر إنك بعدها لعجول
ومن المراثي المشهورة التي عني بها، واتصلت أسباب الشارحين بسببها، المرثية العبدونية
التي نظمها الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون يرثي بها بني مسلمة المعروفين
ببني الأفطس، وهي من أمهات القصائد ووسائط القلائد، فإنه ذكر فيها عدةً من مشاهير
الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا
جنةً تقيهم من وثباته، ودبت عليهم الأيام بصروفها، وسقتهم المنية بكأس حتوفها. وهانحن
نذكرها ونزيدها تبياناً بشرح من استبهمت أخباره، وخفيت على المطالع آثاره.
وأول القصيدة:
الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك معذرةً عن وقفةٍ بين ناب الليث والظفر
فالدهر حربٌ وإن أبدى مسالمةً فالبيض والسمر مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه يد الضارب وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي - أقل الله عثرتنا من الليالي وخانتها يد الغير -
في كل حينٍ لها في كل جارحةٍ منا جراحٌ وإن زاغت عن البصر
تسر بالشيء لكن كي تغر به كالأيم ثار إلى الجاني من الثمر
كم دولةٍ وليت بالنصر خدمتها لم تبق منها! وسل ذكراك من خبر
هوت بدارا وفلت غرب قاتله وكان عضباً على الأملاك ذا أثر
دارا الذي ذكره هو دارا بن دارا آخر ملوك الفرس، وقاتله الإسكندر.
وسنذكر إن شاه الله أخبارهما في فن التاريخ.
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ولم تدع لبني يونان من أثر
بنو ساسان هم الفرس الأخر ولهم دولةٌ مشهورةٌ انقرضت في الإسلام. وبنو يونان أيضاً من
الملوك أرباب الدول المشهورة، ومن مشاهير ملوكهم الإسكندر بن فيلبس. وسترد إن شاء
الله أخبارهم.
وأتبعت أختها طسماً، وعاد على عادٍ وجرهم منها ناقض المرر

أخت طسم جديس، وهما أبناء عمٍ كثر نسلهما وهم العرب العاربة. وسنذكر أخبارهما
إن شاء الله في وقائع العرب. وعاد هم قوم هود. وجرهم هو ابن عوف بن زهير بن أنس
بن الهميسع بن حمير بن سبأ الأكبر بن يشجب ابن يعرب بن قحطان، وقيل: إن العمالقة من
ولد جرهم. أراد بذكرهم أنهم كلهم أبادهم الموت.
وما أقالت ذوي الهيئات من يمنٍ ولا أجارت ذوي الغايات من مضر
اليمن كلهم باتفاق العلماء بالأنساب من ولد قحطان، ومنهم ملوكٌ نذكرهم إن شاء الله في
التاريخ. ومضر بن نزار بن معبد بن عدنان. وقد تقدم ذكرهم في الأنساب.
ومزقت سبأٌ في كل قاصيةٍ فما التقى رائحٌ منهم بمبتكر
سبأ الذي أشار إليه هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، واسمه عبد شمس، وإنما
قيل فيه سبأ لأنه أول من أدخل بلاد اليمن السبي. وكان له عشرة أولادٍ سكن الشام منهم
أربعةٌ وهم: لخم وغسان وجذام وعاملة، وسكن اليمن منهم ستةٌ: كندة ومذحج والأزد
وأنمار والأشعر وعمرو، وقد ذكر الله عز وجل تمزيقهم بقوله: "ومزقناهم كل ممزقٍ".
وسنذكر أخبار سيل العرم وسد مأرب.
وأنفذت في كليبٍ حكمها ورمت مهلهلاً بين سمع الأرض والبصر
كليب الذي ذكر هو كليب بن ربيعة بن الحارث الذي ضرب به المثل فقيل: "أعز من
كليب وائل". وأشار ابن عبدون إلى هذا البيت إلى ما كان من قتل جساس بن المرة كليباً
وما وقع بين بكرٍ وتغلب من الحروب التي نشرحها إن شاء الله في وقائع العرب. وقوله:
ورمت مهلهلاً بين سمع الأرض والبصر، كأنه أراد ما حكى أنه قتل في موضعٍ لم يطلع عليه
أحد، وهو مثلٌ، يقال: "فعل كذا وكذا بين سمع الأرض وبصرها إذا فعله خالياً".
ولم ترد على الضليل صحته ولا ثنت أسداً عن ربها حجر
الضليل الذي أشار إليه هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو، والحارث هو آكل المرار،
وسمي لمرؤ القيس بالضليل لأنه ترك ملكه وتوجه إلى قيصر يطلب منه جيشاً يأخذ به ثأر
أبيه من بني أسد. وإشارته إلى الصحة لقول امرئ القيس في قصيدته السينية:

وبدلت قرحاً دامياً بعد صحةٍ لعل منايانا تحولن أبؤساً
لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني من دائه محمد ما تلبسا
والطماح رجلٌ من بني أسدٍ أرسله قيصر إلى امرئ القيس بحلةٍ مسمومةٍ، فلم البسها تقطع
ومات بأنقرة. وإشارته إلى أسد لأن بني أسد كانوا قتلوا حجر ابن الحارث يوم ماقط.
ودوخت آل ذبيان وإخوتهم عبساً وعضت بني بدرٍ على النهر
أشار إلى ما كان بين عبسٍ وذبيان من الحروب بسبب داحسٍ والغبراء. وسيرد ذلك في
وقائع العرب إن شاء الله تعالى.
وألحقي بعدي بالعراق على يد ابنه أحمر العينين والشعر
أراد عدي بن أيوب بن زيد مناة بن تميم الشاعر. وأحمر العينين والشعر هو النعمان بن
المنذر. وكان عدي هذا ترجماناً لأبرويز وكاتبه بالعربية، فلما مات قابوس بن المنذر تلطف
عدي وتحيل على أبرويز حتى ولى النعمان إمرة العرب وقدمه على إخوته وكان أدمهم، ثم
اتهمه النعمان أنه وشى به فاحتال عليه حتى ظفر به وحبسه ثم قتله بالعراق، فتلطف ابنه
زيد بن عدي وتوصل حتى خدم أبويز على عادة أبيه، وأوقع بين أبرويز والنعمان حتى قتله
أبرويز، على ما يرد إن شاء الله تعالى في التاريخ. والله أعلم.
وأشرفت بخبيبٍ فوق فارعةٍ وألصقت طلحة الفياض بالعفر
أشار إلى خبيب بن عدي الأنصاري وهو بدري وأسر في السرية التي خرج فيها مرثد بن
أبي مرثد فانطلق به المشركون إلى مكة واشتراه حجر بن إهابٍ التميمي حليف بني نوفل
لعقبة بن الحارث بن نوفل ليقتله بأبيه، وكان خيب قتل الحارث أبا عقبة يوم بدر، فصلبه
عقبة على خشبةٍ بالتنعيم وقتله. وطلحة الفياض هو طلحة ابن عبد الله التميمي أحد
العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قتل يوم الجمل، على ما سنذكره إن شاء
الله تعالى.
ومزقت جعفراً بالبيض، واختلست من غيله حمزة الظلام للجزر
جعفر الذي 1ذكره هو جفعر بن أبي طالب أخو عليٍ رضي الله عنهما قلت في غزوة
مؤتة. حمزة هو ابن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل يوم أحدٍ قتله
وحشي غلام جبير بن مطعم، وجعله ظلاماً للجزر وصفه بالكرم.

وبلغت يزدجرد الصين واختزلت عنه سوى الفرس جمع الترك والخزر
لم ترد مواضي رستمٍ وقنا ذي حاجبٍ عنه سعداً في ابنة الغير
يزدجرد الذي ذكر هو ابن شهريار آخر ملوك الساسانية. ورسمت هو الأرمني وهو الذي
قاتل سعد بن أبي وقاص وقتل يوم القادسية، وعلى ما يأتي شرح ذلك في مواضعه إن شاء
الله تعالى.
وخضبت شيب عثمانٍ دماً، وخطت إلى الزبير، ولم تستحي من عمر
أشار في هذا البيت إلى مقتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والزبير بن العوام رضي
الله عنهم. وسترد إن شاء الله أخبارهم.
وما رعت لأبي اليقظان صحبته ولم تزوده إلا الضيح في الغمر
أبو يقظان هو عمر بن ياسر العنسي قتل بصفين وكان مع علي، وعنه قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم: "تقتل عماراً الفئة الباغية". ولما قتل كانت الراية يومئذٍ بيده فعطش فدعا
بشربةٍ من الماء فأتي بضحيةٍ فشربها ثم قال: أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن
اللبن آخر شربةٍ أشربها في الدنيا، فقتل يومئذٍ رضي الله عنه.
وأجزرت سيف أشقاها أبا حسنٍ وامكنت من حسينٍ راحتى شمر
أشقاها هو عبد الرحمن بن ملجم المرادي قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه لقوله
صلى الله عليه وسلم: "يا علي، أشقاها الذي يخضب هذه من هذه" وأشار إلى لحية علي
ورأسه. والحسين الذي ذكره هو الحسين بن علي. وشمر هو شمر لبن ذي الجوشن وهو
الذي أرسله عبيد الله بن زيادٍ إلى عمر بن سعد يحرضه على قتل الحسين، وقيل: إن شمراً
لم يباشر قتل الحسين، والذي قتله سنان بن أنس النخعي، وشمرٌ فهو المجهز والمحرض على
قتله، فلذلك ذكره.
وليتها إذ فدت عمراً بخارجةٍ فدت علياً بمن شاءت من البشر
عمرو الذي أشار إليه هو عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم ابن عمرو
بن هصيص بن كعب، أمير مصر لمعاوية ابن أبي سفيان.
وخارجة رجلٌ من سهم عمرو.

وكان من خبره أن الخوارج كانت قد اجتمعت على قتل علي ومعاوية وعمرو، فكان الذي
انتدب لقتل عمرو زادويه مولى بني العنبر، ورصده إلى ليلة المعاد التي اتفقوا على الفتك بهم
فيها، فاشتكى عمرو تلك الليلة من بطنه ولم يخرج للصلاة واستخلف خارجة ليصلي
بالناس، فلما قام في المحراب وثب عليه زادويه وهو يظن أنه عمرو بن العاص فقتله، وأخذ
زادويه وأدخل على عمرو، فسمع الناس يخاطبونه بالإمرة، فقال: أو ما قتلت عمراً؟ قيل
له: لا إنما قتلت خارجة، فقال: أردت عمراً وأراد الله خارجة. فلذلك قال:

وليتها إذ فدت عمرا بخارجة
وفي ابن هندٍ وفي ابن المصطفى حسنٍ أتت بمعضلة الألباب و الفكر
فبعضنا قائلٌ ما اغتاله أحدٌ وبعضنا ساكتٌ لم يؤت من حصر

ابن هند الذي أشار إليه هو معاوية بن أب سفيان، أراد ما كان بينه وبين الحسن بن علي
في أمر الخلافة. وأراد بالبيت الثاني ما وقع الاختلاف فيه من أن الحسن مات مسموماً وأن
معاوية وعد زوجة الحسن جعدة بنت قيسٍ الكندي بمائة ألف درهم ويزوجها لابنه يزيد
إن قتلت الحسن، ففعلت وسمته. ولما مات الحسن وفى لها بالمال وقال: حب حياة يزيد
منعني تزويجه منك، وقيل مات الحسن حتف أنفه. والله أعلم.

وعممت بالردى فودى أبي أنس ولم ترد الردى عنه قنا زفر

أبو أنس هو الضحاك بن قيس الفهري. يشير إلى ما وقع بينه وبين مروان ابن الحكم بمرج
راهط، وكان الضحاك يدعو لابن الزبير فقتل الضحاك، على ما نذكره إن شاء الله في أخبار
مروان. وكان زفر بن الحارث الكلابي مع الضحاك ففر عنه.

وأردت ابن زياد بالحسين فلم يبؤ بشسعٍ له قد طاح أو ظفر

أشار إلى عبيد الله بن زياد ابن أبيه عامل يزيد بن معاوية على العراق، وهو الذي جهز
عمر بن سعد لحرب الحسين بن علي رضي الله عنهما. وقوله يبؤ بشسعٍ له أخذه من قول
مهلهل حين قتل بجير بن الحارث وقال: بؤ بشسع نعل كليب.

وأنزلت مصعباً من رأس شاهقةٍ كانت به مهجة المختار في وزر

أشار إلى مصعب بن الزبير بن العوام وقتله. والشاهقة هي الكوفة. جعلها شاهقةً لمنعتها

وكثرة رجالها. وأراد ما كان بين مصعبٍ وعبد الملك بن مروان من الحرب التي قتل فيها
مصعب. والمختار الذي ذكره هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود ابن عمرو الثقفي.
أشار إلى ما كان بينه وبين مصعب من الحرب وقتل المختار. وسنورد كل هذه الوقائع إن
شاء الله في التاريخ.

ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا راعت عياذته بالبيت والحجر

أراد عبد الله بن الزبير، وكان يسمى العائذ لأنه كان يقول: أنا العائذ بالبيت، وقتله الحجاج
بن يوسف الثقفي لما وجهه عبد الملك لحربه.

ولم تدع لأبي الذبان قاضيه ليس اللطيم لها عمرُو بمنتصر

أبو الذبان هو عبد الملك بن مروان بن الحكم، سمي بذلك لبخره. وقوله قاضيه لأنه كان
مظفراً على أعدائه فإنه غلب على من كان يناوئه في سلطانه مثل عبد الله ومصعب ابني
الزبير، وعمرو بن سعيد، وعبد الحمن بن الأشعث، ما منهم إلا من قتل وحكم فيه قاضيه
وهو سيفه، ولم يغن ذلك عنه لما أتته منيته. وأما اللطيم فهو عمر بن سعيد الأشدق،
سمي بذلك لميلٍ كان في فمه فقيل له من أجله لطيم الشيطان، وقتله الملك بن عبد المروان.

وأظفرت بالوليد بن اليزيد ولم تبق الخلافة بين الكأس والوتر

الوليد هذا هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وهو الذي يقال له الجبار العنيد. أشار إلى
ظفر يزيد بن الوليد بن عبد الملك به وقتله. وقوله:
ولم تبق الخلافة بين الكأس والوتر
أراد بذلك ما كان عليه الوليد من الاشتهار باللهو واللعب.

ولم تعد قضب السفاح نابيةً عن رأس مروان أو أشياعه الفجر

السفاح هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو أول خلفاء
الدولة العباسية. يشير إلى ظفره بمروان بن محمد وقتله، وانقراض دولة بني أمية وقتلهم على
يديه.

وأسبلت عبراتٍ للعيون على دمٍ بفخٍ لآل المصطفى هدر

أشار في هذا البيت إلى ذكر من قتل بفخٍ وهم الحسين بن علي بن حسن بن حسن بن
علي، والحسن بن محمد بن الحسن بن الحسن بن علي، و عبد الله بن إسحاق ابن إبراهيم

بن الحسن بن الحسن، على ما نذكره في التاريخ إن شاء الله تعالى.
وأشرقت جعفراً والفضل ينظره والشيخ يحيى بريق الصارم الذكر
أشار في هذا البيت إلى قتل جعفر بن يحيى بن خالدٍ بن برمك ونكبة البرامكة في أيام
الرشيد.
وأخفرت في الأمين العهد، وانتدبت لجعفرٍ بابنه والأعبد الغدر
الأمين هو محمد بن هارون الرشيد. يشير إلى ما كان بينه وبين أخيه المأمون وإلى العهد
الذي كان الرشيد كتبه بينهما. وجعفر الذي أشار إليه هاهنا هو المتوكل ابن المعتصم.
أراد ما كان من قتل باغرٍ التركي له بمواطأةٍ من ابنه المنتصر، على ما نورده في أخباره.
وروعت كل مأمونٍ ومؤتمنٍ وأسلمت كل منصورٍ ومنتصر
المأمون هو عبد الله بن الرشيد وهو أول من لقب بالمأمون، ولقب به بعد ذلك ولدٌ من
أولاد المعتمد بن عباد ويحيى بن ذي النون صاحب طليطلة.
والمؤتمن فأول من لقب به
مروان بن الحكم على قول من يقول إنه كان لبني أمية ألقاب، ثم لقب به القاسم بن الرشيد.
وكان الرشيد لما كتب العهد بين الأمين والمأمون جعل ابنه المؤتمن بعد المأمون، وجعل أمر
المؤتمن إلى أخيه المأمون إذا أفضت الخلافة إليه إن شاء أمضاه وإن شاء خلعه، فلما
أفضت الخلافة إلى المأمون أزال المؤتمن فارتاع لذلك. وتلقب بالمؤتمن محمد بن ياقوت مولى
المعتضد صاحب فارس. وتلقب به سلامة الطولوني، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي
عامر ثم تسمى بالمنصور. وأما المنصور فأول من لقب به هشام بن عبد الملك بن مروان
على تلك الرواية، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله بن علي العباسي، ثم أبو طاهرٍ إسماعيل
ابن القائم بن المهديً صاحب إفريقية، ثم محمد بن أبي عامر بالأندلس، وتلقب به ابن زيرى
الصنهاجى، وتلقب به سابور صاحب بطليوس، وعبد الله بن محمد ابن مسلمة التجيبي،
وحفيده يحيى بن محمد بن عبد الله، وعبد العزيز بن أبي عامر، ثم تلقب به جماعةٌ من
الملوك بعد نظم هذه المرثية. وأما المنتصر فهو محمد ابن المتوكل، وممن تلقب بالمنتصر

مدرار بن اليسع صاحب سجلماسة. وكل هؤلاء أبادهم الموت.
وأعثرت آل عباسٍ - ولعاً لهم - بذيل زباء من بيضٍ ومن سمر
أشار في هذا البيت إلى مكان من تغلب الأتراك والديلم على خلفاء الدولة العباسية حتى
لم يبق لهم إلا اسم الخلافة، على ما سيرد في أخبارهم. وقوله: بذيل زباء من بيضٍ ومن سمر
تنبيهاً على كثرة عدد المتغلبين على الأمر وقدرتهم على السلاح.
ولا وفت بعهود المستعين ولا بما تأكد المعتز من مرر
المستعين هو أحمد بن المعتصم العباسي. أشار إلى ما كان من قيام المعتز على المستعين
وهرب المستعين من سامرا إلى بغداد. والمعتز هو أبو عبد الله محمد بن المتوكل، وسترد
أخبارهم إن شاء الله تعالى:
وأوثقت في عراها كل معتمدٍ وأرقت بقذاها كل
مقتدرالمعتمد هو أبو العباس بن المتوكل،#
وهو أول من لقب بهذا اللقب، وتلقب به محمد بن عباد بإشبيلية. والمقتدر هو أبو الفضل
جعفر بن المعتضد، وهو أول من لقب بالمقتدر، ثم لقب به أحمد بن سليمان بن هود
الجذامي بسرقسطة. ثم أخذ ابن عبدونٍ في رثاء بني الأفطس، فقال:
بني المظفر والأيام ما برحت مراحلاً والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت بمثله ليلةٌ في مقبل العمر
من للأسرة أو من للأعنة أو من للأسنة يهديها إلى الثغر
من للبراعة أو من لليراعة أو من للسماة أو للنف والضرر
أو رفع كارثةٍ أو دفع آزفةٍ أو قمع حادثةٍ تعيا على القدر
من للظبى وعوالي الخط قد عقدت أطراف ألسنها بالعي والحصر
وطوقت بالثنايا السود بيضهم أعجب بذاك وما منها سوى ذكر
ويح السماح وويح الجود لو سلما وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هاميةٌ تعزى إليهم سماحاً لا إلى مطر
ثلاثةٌ ما ارتقى النسران حيث رقوا وكل ما طار من نسرٍ ولم يطر
ثلاثةٌ ما رأى العصران مثلهم فضلاً ولو عززا بالشمس والقمر
ومر من كل شيءٍ فيه أطيبه حتى التمتع بالآصال والبكر

من للجلال الذي عمت مهابته قلوبنا وعيون الأنجم الزهر
أين الإباء الذي أرسوا قواعده على دائمٍ من عزٍ ومن ظفر
أين الوفاء الذي أصفوا مشاربه فلم يردَ أحدٌ منها على كدر
كانوا رواسي أرض الله مذ نأوا عنها استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابحيها فمذ خبوا غبرت هذي الخليقة يا لله في سدر
كانوا شجا الدهر فاستهوتهم خدعٌ منه بأحلام عادٍ في خطا الخضر
من لي ولا من بهم إن أطبقت محنٌ ولم يكن وردها بفضي إلى صدر
من لي ومن لا بهم إن أظلمت نوبٌ ولم يكن ليلها يفضي إلى سحر
من لي ولا بمن بهم إن عطلت سننٌ وأخفتت ألسن الأيام والسير
على الفضائل إلا الصبر يعدهم سلام مرتقبٍ للأجر منتظر
يرجو عسى، وله في أختها طمعٌ والدهر ذو عقبٍ شتى وذو غير
قرطت آذان من فيها بفاضحةٍ على الحسان حصى الياقوت والدرر
ومن أجود الرثاء وأصنعه وأتقنه وأبدعه مراثي أبي تمامٍ حبيب بن أوسٍ الطائي، فمن ذلك
ما قاله يرثي به غالب بن السعدي:
هو الدهر لا يشوي وهن المصائب وأكثر آمال الرجال كواذب
فيا غاباً لا غالبٌ لرزية بل الموت لا شك الذي هو غالب
وقالت: أخي، قالوا: أخٌ من قرابةٍ؟ فقلت لهم إن الشكول أقارب
نسيبي في رأيٍ وعزمٍ ومنصبٍ وإن باعدتنا في الأصول المناسب
كأن لم يقل يوماً: كأن، فتنثني إلى قوله الأسماع وهي رواغب
ولم يصدع النادي بلفظة فيصلٍ سنانيةٍ في صفيحتها التجارب
ومنها:
مضى صاحبي واستخلف البث والأسى علي، فلى من ذا وهذاك صاحب
عجبت لصبري بعده وهو ميتٌ وكنت امرأً أبكي دماً وهو غائب
على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب
وقال يرثي محمد بن الفضل الحميري:
ريب دهرٍ أصم دون العتاب مرصدٌ بالأوجال والأوصاب
جف در الدنيا فقد أصبحت تك تال أرواحنا بغير حساب

لو بدت سافراً أهينت ولكن شغف الخلق أنها في النقاب
إن ريب الزمان يحسن أن يه دي الرزايا إلى ذوي الحاسب
فلهذا يجف بعد اخضرارٍ قبل روض الوهاد روض الروابي
جاء منها:
ذهبت يا محمد الغر من أي امك الواضحات أي ذهاب
عبس اللحد منك والثرى منك وجهاً غير ما عابسٍ ولا قاطب
أطفأ اللحد والثرى لبك المس روج يسمى مقطع الأسباب
منزلاً موحشاً وإن كان معمو راً بجل الصديق والأحباب
يا شهاباً خبا لآل عبيد الله أعزز بفقد هذا الشهاب
ومنها:
أنزلته الأيام عن ظهرها من بعد إثبات رجله في الركاب
حين تم الشباب واغتدت الدن يا إليه مفتوحة الأبواب
وحكى الصارم المحلى سوى أ ن حلاه جواهر الآداب
قصدت نحوه المنية حتى وهبت حسن وجهه للتراب
وقال يرثي بن أبي ربعي:
أي ندًى بين الثرى والجيوب وسؤددٍ لدنٍ ورأيٍ صليب
يا ابن أبي ربعي استقبلت من يومك الدنيا بيومٍ عصيب
شق جيوباً من أناسٍ لو اس طاعوا لشقوا ما وراء الجيوب
كنت على البعد قريباً فقد صرت على قربك غير القريب
راحت وفود الأرض عن قبره فارغة الأيدي ملاء القلوب
قد علمت ما رزئت، إنما يعرف فقد الشمس بعد المغيب
إذا البعيد الوطن انتابه حل إلى نهيٍ ووادٍ خصيب
أدنته أيدي العيس من ساحةٍ كأنها مسقط رأس الغريب
أظلمت الآمال من بعده وعريت من كل حسنٍ وطيب
كانت خدوداً صقلت برهةً واليوم صارت مألفاً للشحوب
كم حاجةٍ صارت ركوباً به ولم تكن من قبله بالركوب
حل عقاليها كما أطلقت من عقد المزنة ريح الجنوب
إذا تيممناه في مطلبٍ كان قلبياً ورشاء القليب
ونعمةٍ منه تسربلتها كأنها طرة بردٍ قشيب
من اللواتي ونى شاكرٌ قامت لمسديها مقام الخطيب
متى تنخ ترحل بتفضيله أو غاب يوماً حضرت بالمغيب
فما لنا اليوم ولا للعلا من بعده غير الأسى والنحيب
وقال يرثي أحمد بن هارون القرشي:
دأب عيني البكاء، والحزن دابي فاتركيني - وقيت ما بي - لما بي
سأجزي بقاء أيام عمري بين بثي وعبرتي واكتئابي
فيك يا أحمد بن هارون خصت ثم عمت رزيتي ومصابي
فجعتني الأيام في الصادق النط ق فتى المكرمات والآداب
بخليلٍ دون الأخلاء لا بل صاحبي المصطفى على أصحابي
أفلماً تسربل المجد واجتا ب من الحمد أيما مجتاب
وتراءته أعين الناظريه قمراً باهراً ورئبال غاب
وعلا عارضيه ماء الندى الجا ري وماء الحجا وماء الشباب

أرسلت نحوه النية عيناً قطعت منه أوثق الأسباب
وقال يرثي أبا الصقر:
لو صح الدمع لي أو ناصح الكمد لقلما صحباني الروح والجسد
خان الصفاء أخٌ خان الزمان له أخاً فلم يتخون جسمه الكمد
تساقط الدمع أدنى ما بليت به للوجد إذ لم تساقط مهجةٌ ويد
فوالذي رتكت تطوي الفجاج له سفائن البر في خد الثرى تخد
لأنفدن أسًى إن لم أمت أسفاً وينفد العمر بي أو ينفد الأمد
عني إليك فإني عنك في شغلٍ لي منه يومٌ سيبلي مهجتي وغد
وإن بجرية نابت جأرت لها إلى ذرى جلدي فاستؤهل الجلد
هي النوائب فاشجي أوفعي عظةً فإنها شجرٌ أثمارها رشد
هبي ترى قلقاً من تحته أرقٌ يحدوهما كمدٌ يعنو له الجسد
صماء سم العدا في جنبها ضربٌ وشرب كأس الردى في ظلها شهد
هناك أم النهى لم تود من حزن ولم تجد لبني الدنيا بما تجد
لو يعلم الناس علمي بالزمان وما عانت يداه لما ربوا ولا ولدوا
لا يبعد الله ملحوداً أقام به شخص الحجا وسقاه الواحد الصمد
يا صاحب القبر، دعوى غير متئبٍ إن قال أودي الندى والبدر والأسد
بات الثرى بأخي جذلان مبتهجاً وبت يحكم في أجفاني السهد
لهفي عليك وما لهفي بمجديةٍ ما لم يزرك بنفسي حر ما أجد
أمسى أبو الصقر يعفو الترب أحسنه دوني ودلو الردى في مائه يرد
ويلٌ لأمك أقصر إنه حدثٌ لم يعتقد مثله قلبٌ ولا خلد
غال الزمان شقيق الجود لم يقه أهلٌ ولم يفده مالٌ ولا ولد
حين ارتوى الماء وافترت شبيبته عن مضحكٍ للمعالي ثغره برد
وقيل: أحمدها، بل قيل: أمجدها بل قيل: أنجدها إن فرت النجد
رؤد الشباب كنصل السيف لا جعدٌ في راحتيه ولا في عوده أود
سقى الحبيس ومحبوساً ببرزخه من السمي كغيث الودق يطرد
بحيث حل أبو صقرٍ فودعه صفو الحياة ومن لذاتها الرغد
بحيث حل فقيد المجد مغترباً ومورثٍ حسراتٍ ليس تفتقد

وقال يرثي عمير بن الوليد:

أعيدي النوح معولةً أعيدي وزيدي في بكائك ثم زيدي
وقومي حاسراً في حسراتٍ خوامش للنحور وللخدود
هو الخطب الذي ابتدأ الرزايا وقال لأعين الثقلين جودي
ألا رزئت خسران فتاها غداة ثوى عمير بن الوليد
ألا رزئت بمسئول منيلٍ ألا رزئت بمتلافٍ مفيد
ألا إن الندى والجود حلاً بحيث حللت من حفر الصعيد
بنفسي أنت من ملكٍ رمته منيته بسهم ردًى سديد
تجلت غمرة الهيجاء عنه خضيب الوجه من دمه الجسيد
فيا بحر المنون ذهبت منه ببحر الجود في السنة الصلود
ويا أسد المنون فرست منه غداة فرسته أسد الأسود
أبالبطل النجيد فتكت منه نعم وبقاتل البطل النجيد
تراءى للطعان وقد تراءت وجوه الموت من حمرٍ وسود
فيالك وقعةً جللاً أعادت أسًى وصبابةً جلد الجليدً
وبالك ساعةً أهدت غليلاً إلى أكبادنا أبد الأبيد
ألا أبلغ مقالتي الإمام ال خليفة والأمين بن الرشيد
بأن أميرنا لم يأل عدلاً ونصحاً في الرعايا والجنود
أفاض نوال راحته عليهم وسامح بالطريف وبالتليد
وأضحى دونهم للموت حتى سقاه الموت من مقرٍ هبيد
وما ظفروا به حتى قراهم قشاعم أنسرٍ وضباع بيد
بطعنٍ في نحورهم رشيقٍ وضربٍ في رءوسهم عتيد
فيا يوم الثلاثاء اصطبحنا غداةً منك هائلة الورود
ويا يوم الثلاثاء اعتمدنا بفقدٍ فيك للسند العميد
وكم أسخنت فينا من عيونٍ وكم أعثرت فينا من جدود
فما زجرت طيورك عن سنيحٍ ولا طلعت نجومك بالسعود
ألا أيها الملك المردى ردًاء الموت في جدثٍ جديد
حضرت فناء بابك واعتراني شجًى بين المخنق والوريد
رأيت به مطايا مهملاتٍ وأفراساً صوافن بالوصيد
فكنت عتاد إما فك عانٍ وإما قتل طاغيةٍ عنود
رأيت مؤمليك عدت عليهم عوادٍ صعدتهم في كؤود
وأضحت عند غيرك في هبوطٍ حظوظٌ كن عند في صعود
وأصبحت الوفود وقفاً على أن لا مفاد لمستفيد
فكلهم أعد اليأس وقفاً عليك ونص راحلة العقود
لقد سخنت عيون الجود لما ثويت وأقصدت غرر القصيد

وقال يرثي محمد بن حميد الطوسي:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعد محمدٍ وأصبح في شغلٍ عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر
وما كان يدري المجتدى جود كفه إذا ما استهلت أنه خلق العسر

ألا في سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الله واثغر الثغر
فتًى كلما فاضت عيون قبيلةٍ دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتًى دهره شطران فيما ينوبه ففي بأسه شطرٌ وفي جوده شطر
فتًى مات بين الضرب والطعن ميتةً تقوم مقام النصر إذا فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الشل واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلاً فرده عليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفسٌ تعاف العار حتى كأنه هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوةً والحمد نسج رداثه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندسٍ خضر
كأن بنيِ نبهان يوم وفاته نجوم سماءٍ خر من بينها البدر
يعزون عن ثاوٍ تعزى به العلا ويبكي عليه الجود والبأس والشعر
وأنى لهم صبرٌ قد مشى إلى الموت حتى استشهدا هو والصبر!
فتًى كان عذب الروح لاعن غضاضةٍ ولكن كبراً أن يكون له كبر
فتًى سلبته الحيل وهو حمًى لها وبزته نار الحرب وهو لها جمر
وقد كانت البيض المآثير في الوغى بواتر فهي الآن من بعده بتر
أمن بعد طي الحادثات مجمداً يكون لأثواب العلا أبداً نشر!
إذا شجرات العرف جذت أصولها ففي أي فرعٍ يوجد الورق النضر!
لئن أبغض الدهر الخؤون لفقده لعهدي به ممن يحب له الدهر
لئن غدرت في الروع أيامه به لما زالت الأيام شيمتها الغدر
لئن ألبست في المصيبة طيءٌ لما عريت منها تميمٌ ولا بكر
كذلك ما ننفك نفقد هالكاً يشاركنا في فقده البدو والحضر
سقى الغيث غيثاً وارت الأرض شخصه وإن لم يكن فيها سحابٌ ولا قطر
وكيف احتمالي للسحاب صنيعةً بإسقائها فبراً وفي لحده البحر
ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمر صرف الدهر نائله الغمر

مضى طاهر الأثواب لم تبق روضةٌ غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
عليك سلام الله وقفاً فإنني رأيت الكريم الحر ليس له عمر
وقال يرثي إدريس بن بدرٍ السامي:
دموعٌ أجابت داعي الحزن همع توصل منا عن قلوب تقطع
عفاءٌ على الدنيا طويلٌ فإنها تفرق من حيث ابتدت تتجمع
تبدلت الأشياء حتى خلتها ستثني غروب الشمس من حيث تطلع
لها صيحةٌ في كل روحٍ ومهجةٍ وليست لشيءٍ ما خلا القلب تسمع
أإدريس ضاع المجد بعدك كله ورأى الذي يرجوه بعدك أضيع
وغودر وجه العرف الأسود بعد ما يرى وهو كالبكر الكعاب تصنع
وأصبحت الأحزان لا لمبرةٍ تسلم شزراً والمعالي تودع
وضل بك المرتاد من حيث يهتدي وضرت بك الأيام من حيث تنفع
وأضحت قريحات القلوب من الجوى تقيظ ولكن المدامع تربع
عيونٌ حفظن الليل فيك محرماً وأعطينك الدمع الذي كان يمنع
وقد كان يدعى لابس الصبر حازماً فأصبح يدعى حازماً حين يجزع
وقالوا عزاءً: ليس للموت مدفعٌ فقلت: ولا للحزن للمرء مدفع
لإدريس يومٌ ما تزال لذكره دموعي وإن سكنتها تتفرع
ولما نضا ثوب الحياة وأوقعت به نائبات الدهر ما يتوقع
غدا ليس يدري كيف يصنع معدمٌ درى دمعه من وجده كيف يصنع
وماتت نفوس الغالبيين كلهم وإلا فصبر الغالبيين أجمع
غدوا في زوايا نعشه وكأنما قريشٌ قريشٌ حين مات مجمع
ولم أنس سعي الجود خلف سريره بأكسف بالٍ يستقيم ويظلع
وتكبيره خمساً عليه معالناً وإن اكن تكبير المصلين أربع
وما كنت أدري يعلم الله قبلها بأن الندى في أهله يتشيع
وقمنا فقلنا بعد أن أفرد الثرى به ما يقال في السحابة تقلع
- هذا مأخوذٌ من قول مسلمٍ:
فاذهب كما ذهبت غوادي مزنةٍ أثنى عليها السهل والأوعار -
ألم تك ترعانا من الدهر إن سطا وتحفظ من أموالنا ما نضيع
وتبسط كفاً في الحقوق كأنما أناملها في البأس والجود أذرع
وتلبس أخلاقاً كراماً كأنها على العرض من فرط الحصانة أدرع

وتربط جأشاً والكماة قلوبهم تزعزع خوفاً من قناً تتزعزع
وأمنية المرتاد يحضرك الندى فيشفع في مثل الفلا فيشفع
فأنطق فيه حامدٌ وهو فيه مفحمٌ وأفحم فيه حاسدٌ وهو فيه مصقع
ألا إن في ظفر المنية مهجةً تظل لها عين العلا وهي تدمع
هي النفس إن تبك المكارم فقدها فمن بين أحشاء المكارم تنزع
ألا إن أنفاً لم يعد وهو أجدع لفقدك عند المكرمات لأجدع
وإن امرأً لم يمس فيك مفجعاً بملحوده، في عقله لمفجع
وقال يرثي القاسم بن طوق بن مالك:
جوىً ساور الأحشاء والقلب واغله ودمعٌ يضيم العين والجفن هامله
وفاجع موت لا عدوٌ يخافه فيبقي، ولا يبقي صديقاً يجامله
وأي أخي عز وذي جبرية ينابذه أو أي رامٍ يناضله
إذا ما جرى مجرى دم المرء حكمه وبثت عَلى طرق النفوس حبائله!
فلو شاء هذا الدهر أقصر شره كما أقصرت عنا لهاه ونائله
سنشكوه إعلاناً وسراً ونيةً شكية من لا يستطيع يقاتله
فمن مبلغٌ عني ربيعة أنه تقشع طل الجود عنها ووابله
وأن الحجا منها استطارت صدوعه ولو لم يزايلنا لكنا نزايله
ولم يعلموا أن الزمان يريده بفجعٍ ولا أن المنايا تراسله
ومنها:
طواه الردي طي الرداء وغيبت فضائله عن قومه وفواضله
طوى شيماً كانت تروح وتغتدي وسائل من أعيت عليه وسائله
فيا عارضاً للعرف أقلع مزنه ويا وادياً للجود جفت مسايله
وقال يرثي محمد بن حميد وأخاه قحطبة:
بأبي وغير أبي - وذاك قليل - ثاوٍ عليه ثرى النباج مهيل
خذلته أسرته كأن سراتهم جهلو بأن الخاذل المخذول
أكال أشلاء الفوارس بالقنا أضحى بهن وشلوه مأكول
كفى، فقتل محمدٍ لي شاهدٌ أن العزيز مع القضاء ذليل
ومنها:
هيهات لا يأتي الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل
ما أنت بالمقتول صبراً إنما أملي غداة نعيك المقتول
ومنها:
من ذا يحدث البقاء ضميره! هيهات! أنت على الفناء دليل
يا ليت شعري بالمكارم كلها ماذا، وقد فقدت نداك، تقول؟
ومنها:
يا يوم قحطبةٍ لقد أبقيت لي حرقاً أرى أيامها ستطول
ليثٌ لو أن الليث قام مقامه لانصاع وهو يراعةٌ إجفيل
لما رأى جمعاً قليلاً في الوغى وأولو أميرا الحفاظ من القليل قليل

لاقى الكريهة وهو مغمد روعه فيها ولكن بأسه مسلول
ومشى إلى الموت الزؤام كأنما هو من محبته إليه خليل

ومنها:

أضحت عراص محمدٍ و محمدٍ وأخيهما وكأنهن طلول
أبني حميدٍ ليس أول ما عفا بعد الأسود من الأسود الغيل
مازال ذاك الصبر وهو عليكم بالموت في ظل السيوف كفيل
مستبسلون كأن مهجاتهم ليست لهم إلا غداة تسيل
ألفوا المنايا فالقتل لديهم من لم يخل العيش وهو قتيل
إن كان ريب الدهر أثكلنيكم فالموت أيضاً ميتٌ مثكول

وقال يعزي مالك بن طوقان:

أمالك إن الحزن أحلام حالم ومهما تدم فالحزن ليس بدائم
أمالك إفراط الصبابة تاركٌ حناً واعوجاجاً في قناة المكارم
تأمل رويداً هل عدن سالماً إلى آدمٍ أم هل تعد ابن سالم!
متى ترع هذا الموت عيناً بصيرةً نجدً عادلاً منه شبيهاً بظالم
فإن تك مفجوعاً بأبيض لم تكن تشد على جدواه عقد التمائم
بفارسٍ دغمي وهضبة وائلٍ وكوكب عتابٍ وحمزة هاشم
شجا الريح فازدادت لفقده وأحدث شجواً في بكاء الحمائم
فمن قبله ما قد أصيب نبينا أبو القاسم النور المبين بقاسم
وخبر قيسٌ بالجليلة في ابنه فلم يتغير وجه قيس بن عاصم
وقال عليٌ في التعازي لأشعثٍ وخاف عليه بعض تلك المآثم:
أتصبو للبلوى عزاءً وحسبةً فتؤجر، أم تسلو سلو البهائم؟
خلقنا رجالاً للتجلد والأسى وتلك الغواني للبكا والمآتم
وأي فتًى في الناس أحرض من فتًى غدا في خفارات الدموع السواجم
وهل من حكيمٍ ضيع الصبر بعدما رأى الحكماء الصبر ضربة لازم
فلا برحت تسطو ربيعة منكم بأرقم عطافٍ وراء الأراقم
فأنت وصنواك الشقيقان إخوةٌ خلقتم سعوطاً للأنوف الرواغم
ثلاثة أركانٍ، وما انهد سؤددٌ إذا ثبتت فيه ثلاث دعائم

وقال يرثي عمير بن الوليد:

كف الندى أمست بغير بنان وقناته أضحت بغير سنان
جبل الجبال غدت عليه ملمةٌ تركته وهو مهدم الأركان
أنعى عمير بن الوليد لغارةٍ بكرٍ من الغارات أو لعوان
أنعى فتى الفتيان غير مكذبٍ قولي، وأنعى فارس الفرسان
عثر الزمان ونائبات صروفه بمقيلنا عثرات كل زمان
لم يترك الحدثان يوم سطا به أحداً نصول به على الحدثان
قد كنت حشو الدرع ثم أراك قد أصبحت حشو اللحد والأكفان

شغلت قلوب الناس ثم عيونهم مذ مت بالخفقان والهملان
واستعذبوا الأحزان حتى إنهم يتحاسدون مضاضة الأحزان
ما يرعوي أحدٌ إلى أحدٍ ولا يشتاق إنسانٌ إلى إنسان
أأصاب منك الموت فرصة ساعةٍ فعدا عليك وأنتما أخوان!
فمن الذي أبقى ليوم تكرمٍ ومن الذي أبقى ليوم طعان!

وقال يرثي ابناً له:

كان الذي حفت أن يكونا إنا إلى الله راجعونا
أمسى المرجى أبو عليٍ موسداً في الثرى يمينا
حين استوى وانتهى شباباً وحقق الرأي والظنونا
أصبت فيه وكان عندي على المصيبات لي معينا
كنت كثيراً به عزيزاً وكنت صباً به ضنينا
دافعت إلا النون عنه والمرء لا يدفع المنونا
آخر عهدي به صريعاً للموت بالداء مستكينا
إذا شكا غصةً وكرباً يمنعه الموت أن يبينا
يشخص طوراً بناظريه وتارةً يطبق الجفونا
ثم قضى نحبه وأمسى في جدثٍ للثرى دفينا
باشر برد الثرى بوجهٍ قد كان من قبله مصونا
بعيد دارٍ قريب جارٍ قد فارق الإلف والقرينا
بني يا واحد البنيناً غادرتني مفرداً حزينا
هون رزئي بك الرزايا علي في الناس أجمعينا
آليت أنساك ما تجلى صبح نهارٍ لمصبحينا
وما دعا طائرٌ هديلاً ورجعت والهٌ حنينا
تصرف الدهر بي صروفاً وعاد لي شأنه شؤونا
وحز في اللحم بل براه واجتث من طلحتي فنونا
أصاب مني صميم قلبي وخفت أن يقطع الوتينا
والمرء رهنٌ بحالتيه فشدةً مرةً ولينا

شواذ المراثي

من ذلك ما قالته جليلة بنت مرة أخت جساس زوج كليبٍ لما قتل أخوها جساس
زوجها كليباً، وكان نساء الحي لما اجتمعن للمأتم قلن لأخت كليب: رحلي جليلة عنك
فإن قيامها فيه شماتةٌ وعارٌ علينا عند العرب، فقالت لها: أخرجي عن مأتمنا، فأنت أخت
واترنا وشقيقة قاتلنا، فخرجت وهي تجر أعطافها، فلقيها أبوها مرة فقال لها: ما وراءك يا
جليلة؟ فقالت: ثكل العدد، وحزن الأبد، وفقد خليلٍ، وقتل أخٍ عن قليل، وبين ذلك غرس
الأحقاد، وتفتت الأكباد. فقال لها: أو يكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات؟ فقالت
جليلة: أمنية مخدوع ورب الكعبة، أبالبدن تدع لك وائل دم ربها!
قال: ولما رحلت جليلة

قالت أخت كليب: رحلة المعتدي وفراق الشامت! ويلٌ غداً لآل مرة، من الكرة بعد
الكرة! وبلغ قولها جليلة فقالت: وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها! أسعد
الله أختي، ألا قالت: نفرة الحياء وخوف الأعداء ثم أنشأت تقول:

يا بنة الأقوام إن لمت فلا تعجلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنت تبينت الذي يوجب اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أخت امرئٍ ليمت على جزع منها عليه فافعلي
جل عندي فعل جساس فيا حسرتاً عما انجلت أو تنجلي
فعل جساس على ضني به قاطعٌ ظهري ومدنٍ أجلي
لو بعين فقئت عينٌ سوى أختها وانفقأت لم أحفل
تحمل العين قذى العين كما تحمل الأم أذى ما تفتلي
إنني قاتلةٌ مقتولةٌ فلعل الله أن يرتاح لي
يا قتيلاً قوض الدهر به سقف بيتي جميعاً من عل
ورماني فقده من كثبٍ رمي المصمى به المستأصل
هدم البيت الذي استحدثته وبدا في هدم بيتي الأول
يا نسائي دونكم اليوم قد خصني الدهر برزءٍ معضل
مسني فقد كليبٍ بلظى من ورائي ولظى مستقبلي
ليس من يبكي ليومين كمن إنما يبكي ليوم ينجلي
درك الثائر شافيه وفي دركي ثاري ثكل المثكل
ليته كان دمي فاحتلبوا درراً منه دماً من أكحلي

ولما مات معاوية بن أبي سفيان اجتمع الناس بباب يزيدٍ فلم يقدروا على الجمع بين التهنئة
والتعزية، حتى أتى عبد الله بن همام فقال: يا أمير المؤمنين، أجزل الله أجرك على الرزية.
وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية، فقد رزئت عظيماً، وأعطيت جسيماً، فاشكر
الله على ما أعطيت، واصبر على ما رزيت، فقد فقدت خليفة الله، ففارقت جليلاً،
وأعطيت جزيلاً، إذ قضى معاوية نحبه، ووليت الرياسة، فأورده الله موارد السرور، ووفقك
في جميع الأمور:

فاشكر يزيد فقد فارقت ذا مقةٍ واشكر حباء الذي بالملك حاباكا
أصبحت تملك هذا الخلق كلهم فأنت ترعاهم والله يرعاكا
لارزء في الأقوام قد علموا مما رزئت، ولا عقبى كعقباكا
وفي معاوية الباقي لنا خلفٌ إذا نعيت ولا نسمع بمنعاكا

ففتح للناس باب الرثاء وجروا على منواله.
وقال أبو نواسٍ الحسن بن هانئ يعزي الفضل بن ربيعٍ عن الرشيد ويهنئه بالأمين:

تعز أبا العباس عن خير هالكٍ بأكرم حيٍ كان أو هو كائن

حوادث أيامٍ تدور صروفها لهن مساوٍ مرةً ومحاسن
وفي الحي بالميت الذي غيب الثرى فلا أنت مغبونٌ ولا الموت غابن

وقال أبو تمامٍ يرثي المعتصم ويهنئ الواثق:

ما للدموع تروم كل مرام والجفن ثاكل هجعةٍ ومنام
يا حفرة المعصوم تربك مودعٌ ماء الحياة وقاتل الإعدام
إن الصفائح منك قد نضدت على ملقى عظامٍ لو علمت عظام
فتق المدامع أن لحدك حله سكن الزمان وممسك الأيام
ومصرف الملك الجموح كأنه قد زم معصبه له بزمام
هدمت صروف الدهر أرفع حائطٍ ضربت دعائمه على الإسلام
دخلت على ملك الملوك رواقه وتسربت لمقوم القوام
مفتاح كل مدينةٍ قد أبهمت غلقاً ومخلي كل دار مقام
ومعرف الخلفاء أن حظوظها في حيز الإسراج والإلجام
أخذ الخلافة عن أسنته التي منعت حمى الآباء والأعمام
فلسورة الأنفال في ميراثه آثارها ولسورة الأنعام
مادام هارون الخليفة فالهدى في غبطةٍ موصولةٍ بدوام
إنا رحلنا واثقين بواثق بالله شمس ضحًى وبدر تمام
لله أي حياةٍ انبعثت لنا يوم الخميس وبهد أي حمام
أودى بخير إمامٍ اضطربت به شعب الرجال وقام خير إمام
تلك الرزية لا رزية مثلها والقسم ليس كسائر الأقسام

جاء منها:

نقضٌ كرجع الطرف قد أبرمته يا بن الخلائف أي إبرام
ما إن رأى الأقوام شمساً قبلها أفلت فلم تعقبهم بظلام
أكرم بيومهم الذي ملكتهم في صدره وبعامهم من عام

ثم أخذ في مدح الواثق.

وفي هذه الواقعة يقول ابن الزيات:

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت عليك أيدٍ بالترب والطين
اذهب فنعم المعين كنت على الد نيا ونعم الظهير للدين
لن يجبر الله أمةً فقدت مثلك إلا بمثل هارون

ومن أشد الرثاء صعوبةً على الشاعر وأضيقه مجالاً أن يرثي امرأةً أو طفلاً.

وقد أخذ على المتنبي في قوله يرثي أم سيف الدولة بن حمدان:

سلام الله خالقنا حنوطٌ على الوجه المكفن بالجمال

وقالوا : ماله ومال هذه العجوز يصف جمالها! ووبخه الصاحب بن عباد في قوله فيها:

رواق العز فوقك مسبطرٌ وملك عليٍ ابنك في كمال

قال أبو الحسن علي بن رشيق الأزدي في كتابه المترجم بالعمدة وبالأغاني أيضاً: أشد ما هجن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدةٍ من الهجاء أنه قرنها بفوقك فجاء عملاً تاماً لم يبق

فيه إلا الإفضاء. وإن يكن المتنبي أخطأ في هذا فلقد أجاد في غيره، والفاضل من عدت
سقطاته، وحفظت هفواته وفلتاته، وانظر إلى قوله في أخت سيف الدولة:

يا أُخت خير أخٍ يا أخت خير أبٍ كنايةً بهما عن أشرف النسب
أجل قدرك أنّ تدعي مؤنثةً ومن يصفك فقد سماك للعرب

وقاله أيضاً:

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
مشى الأمراء حوليها حفاةً كأن المرو من زف الرئال

ومن جيد ما رثي النساء به وأشده تأثيراً في القلب وإثارةً للحزن قول عبد الملك ابن
الزيات في أم ولده:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تحثه بلابل قلبٍ دائم الخفقان

ومنها بعد أبيات.

ألا إن سجلاً واحداً قد أرقته من الدمع أو سجلين قد شفياني
فلا تلحياني إن بكيت فإنما أداوي بهذا الدمع ما تريان
وإن مكاناً في الثرى خط لحده لمن كان من قلبي بكل مكان
أحق مكانٍ بالزيارة والهوى، فهل أنتما إن عجت منتظران؟
فهبني عزمت الصبر عنها لأنني جليدٌ فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الأجر حسبةً ولا يأتسي بالناس الحدثان
ألا من أمنيه المنى وأعده لعثرة أيامٍ وصرف زمان
ألا من إذا جئت أكرم مجلسي وإن غبت عنه حاطني ورعاني
فلم أر كالأقدار كيف تصيبني ولا مثل هذا الدهر كيف رماني

وقال أبو تمام يرثي جاريةً له:

ألم ترني خليتُ عيني وشانها ولم أحفل الدنيا ولا حدثانها
لقد خوفتني النائبات صروفها ولو أمنتني ما قبلت أمانها
وكيف على نار الليالي معرسي إذا كان شيب العارضين دخانها
أصبت بخود سوف أغبر بعدها حليف أسًى أبكي زماني زمانها
عنانٌ من اللذات قد كان في يدي فلما مضى الإلف استردت عنانها
منحت الدمى هجري فلا محسناتها أود ولا يهوى فؤادي حسانها
يقولون: هل يبكي الفتى لخريدةٍ متى أراد اعتاض عشراً مكانها!
وهل يستعيض المرء من خمس كفه ولو صاغ من حر اللجين بنانها!

وقال أبو الفتح كشاجم يعزي بابنة:

تأس يا أبا بكر لموت الحرة البكر
فقد زوجتها القبر وما كالقبر من صهر
وعوضت بها الأجر وما كالأجر من مهر
زفافٌ أهديت فيه من الخدر إلى القبر
فتاةٌ أسبغ الله عليها أفضل الستر
ورزءٌ أشبه النعم ة في الموقع والقدر
وقد يختار في المكرو ه للمرء وما يدري
فقابل نعمة الله وما أولاك من شكر
وعز النفس عما فا ت بالتسليم والصبر

وقال أبو مروان بن أبي الخصال الأندلسي في مثل ذلك:

ألا يا موت كنت بنا رءوفاً فجددت الحياة لنا بزوره
حمدت لفعلك المأثور لما كفيت مؤونةً وسترت عوره
فأنكحنا الضريح بغير مهرٍ وجهزنا الفتاة بغير شوره

وقال أبو تام حبيب بن أوس الطائي في ابنين لعبد الله بن طاهرٍ ماتا صغيرين في يومٍ واحدٍ

من قصيدة:

نجمان شاء الله ألا يطلعا إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا
إن الفجيعة بالرياض نواضراً لأجل منها بالرياض ذوابلا
لو ينسآن لكان هذا غارباً للمكرمات وكان هذا كاهلا
لهفي على تلك الشواهد فيهما لو أمهلت حتى تكون شمائلا
لغدا سكونهما حجاً وصباهما حلماً وتلك الأريحية نائلا
إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيكون بدراً كاملا

وقال أبو الحسن الأنباري في محمد بن بقية وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة ابن بويه لما صلبه عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه عند خلع بختيار، وهي من نوادر المراثي:

علوٌ في الحياة وفي الممات لحقٌ أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائمٌ فيهم خطيباً وكلهم قيامٌ للصلاة
مددت يدك نحوهم جميعاً كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك في النفوس بقيت ترعى بحراسٍ وحفاظ ثقات
وتشعل عندك النيران ليلاً كذلك كنت أيامً الحياة
ولم أر قبل جذعك قط جذعاً تمكن من عناق المكرمات
ركبت مطيةً من قبل زيدٌ علاها في السنين الذاهبات

أشار في هذا البيت إلى زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب لما قتل وصلب في أيام هشام بن عبد الملك.

ومما يدخل في هذا الباب ويلتحق به ما يطرأ من الحوادث التي تعم بها البلية، وتشمل

بسببها الرزية، كاستيلاء أهل الكفر على بلدٍ من بلاد الإسلام، وهزيمتهم لجيشه اللهام، فمن
ذلك ما كتب به القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني إلى أمير عز الدين سامة لما استعاد
الفرنج - خذلهم الله تعالى - مدينة بيروت: ابتدأ كتابه بأن قال بعد البسملة: قال الله
سبحانه في كتابه العزيز مسلياً لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم: "وإن يريدوا خيانتك فقد
خانوا الله من قبل"، فإذا كان من الناس من خان الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم
فكيف لا يخون الناس الناس!وأين الموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأس
والضراء وحين الباس:

وقد كانوا إذا عدوا قليلاً فقد صاروا أقل من القليل

والمولى - أعزه الله بنصره، وعوضه أحسن العوض من أجره، وكتب له ثواب تسليمه إليه
وصبره - ليس بأول من وثق بمن وخان، وقضية بيروت بأول مقدورٍ قال الله له: كن فكان،
والقدرٍ السابق لا يدفعه الهم اللاحق، ومن الخجلات المستعارة خجلة الواثق، والموثوق به
لائقٌ به الخجل الصادق، ومعاذ الله أن ينكس المجلس رأسه حياء، أو أن يسخط لله
قضاء، أو أن يأسف على مالٍ نقله من مودعه الذي لا يؤمن من الآفات عليه، إلى مودع الله
الذي يحفظه إلى أن يأتيه به أحوج من كان إليه، والحمد لله الذي جعل مصائبنا في الدنيا
فوائدنا في الأخرى، ثم الحمد لله الذي جعل البادرة للعدوان والعاقبة للتقوى. وقد علم الله
أني مقاسمه ومساهمه، ومضمرٌ من الهم بما اتفق من هذا المقدور ما مقدره عالمه، غير أنه
لا حيلة لمن لا حيلة له إلا الصبر، وإن صبر جرى عليه القدر وجرى له الأجر، وإن لم
يصبر جرى عليه القدر وكتب عليه الوزر، وكل ما ذهب من صاحبه قبل أن يذهب
صاحبه فقد أنعم الله عليه، حيث أخرج ما في يديه وأبقى يديه، والمال غادٍ ورائح، والمال
بالحقيقة هو العمل الصالح، وإن اجتمع موصلها بحضرته فهو ينهى ما عندي، ويؤدي حقيقة
ودي، ورأيه الموفق.

وقال أبو المظفر الأبيوردي لما استولى الإفرنج على البيت المقدس في سنة اثنتين وتسعين
وأربعمائةٍ قصيدةً منها:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضةً للمراجم
وشر سلاح المرء دمعٌ يفيضه إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فإيهاً بني الإسلام! إن وراءكم وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمةً في ظل أمنٍ وغبطةً وعيشٍ كنوار الخميلة ناعم!
وكيف تنام العين ملئ جفونها على هبواتٍ أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماءٍ قد أبيحت، ومن دمًى تواري حيائها حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبى وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفةٌ تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروبٌ من يغب عن غمارها ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدي المسلمين قواضياً ستغمد منهم في الطلى والجماجم
يكاد بهن المستجن بطيبة ينادي بأعلى الصوت: يا آل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا رماجهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من العدا ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى وتغضي على ذلٍ كماة الأعاجم!
فليتهم إن لم يذودوا حميةً عن الدين ضنوا غيرةً بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذا حمي الوغى فهلا أتوه رغبةً في المغانم!
لئن أذعنت تلك الخياشيم للثرى فلا عطسوا إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحةً غلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارةً عربيةً تطيل عليها الروم عضد الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا عند هذه رمتنا إلى أعدائنا بالجرائم
وقال علاء الدين علي الأوتاري الدمشقي في مثل ذلك لما استولى التتار على دمشق في سنة تسعٍ وتسعين وستمائة:
لك علمٌ بما جرى يا سهادي من جفوني على افتقاد رقادي
لم أجد عند شدتي مؤنساً لي غير سهدي ملازماً لسوادي
وحبيب العين الرقاد جفاها مذ رآها خليفة الأنكاد
أحسن الله يا دمشق عزاك في مغانيك يا عماد البلاد
وبرستاق نير بيك مع الم زة مع رونقٍ بذاك الوادي

وبأنس بقاسيون وناسٍ أصبحوا مغنماً لأهل الفساد
طرقتهم حوادث الدهر بالق تل ونهب الأموال والأولاد
وبناتٍ محجباتٍ عن الشم إسحاق تناءت بهن أيدي الأعادي
وقصورٌ مشيداتٌ تقضت في ذراها الأيام كالأعياد
وبيوتٌ فيها التلاوة والذك ر وعالي الحديث بالإسناد
حرقوها وخربوها وبادت بقضاء الإله رب العباد
وكذا شارع العقيبة والقص ر وشاغورها وذاك النادي
أصبحوا اليوم مثل أمس تقضى وبكتهم سماؤهم والغوادي
ولكم سورها حوى من معنى مقرح القلب والحشى والفؤاد
إن بكى لا يفيده أو تشكي وجد المشتكي حليف سهاد
يشتكي فوق ما اشتكاه بأضعا فٍ فيغدو وهمه في ازدياد
فالغلا والجلا مع الجوع والعر ي ونهب الأقوات والأزواد
والحصار الشديد والحبس والخو ف مع السادة العراة المكادي
وبوزن الأموال من غير وجدٍ باعتساف الغتم الغلاظ الشداد
كاترآقجا كبرخوار أنت ياغيه لمحمود غازان قاآن البلاد
يا ترى هل لكربنا من مجيرٍ أم لتشديد أسرنا من مفادي
لهف نفسي على جيوشٍ تولت ثم ولت جريحة الأكباد
كل ندبٍ عضب حمًى كميٍ أمجدٍ أصيدٍ شجاعٍ جواد
إن سطا في هابته كان بحراً أو سطا خلته من الآساد
أو بدا حاملاً تخل عنترياً أو غدا سابق الجواد فغادي
إن أتاني مبشر بلقاهم حاز روحي ومهجتي وقيادي
ولثمت التراب شكراً وعفر ت خدودي على بلوغ مرادي
لست أرجو غير البشير شفيعاً عند ربي في المن بالإنجاد
غير أن الفساد يكسب ذلاً ويعمى الفساد طرق السداد
وارتكاب الفساد يورث فقراً وخراب البيوت عقبى الفساد
يا حبيب الإله لا تتخلى عن عصاةٍ غمرتهم بالأيادي
يا حبيب الإله قد مسنا الض ر فجد بالإسعاف والإسعاد
يا حبيب الإله تبنا إلى الله وأنت العماد حتى المعاد
من لأسرى كسرى حيارى دهتهم دهمتهم جياد أهل العناد
واضع اللقط في الحساب عناه - لو يعش - حصر كثرة الأعداد
منهم الطفل والصبية والشا ب ينادي، فمن يجيب المنادي!
وينادى عليهم برغيفٍ وبنزرٍ بخسٍ بسوق الكساد
عوضوا عن سرورهم بغرور وقصور البلاد سكنى البوادي
وبأهل الوداد شر أناسٍ وبلين المهاد شوك القتاد
أي عينٍ عليهم ليست تبكي أي قلبٍ عليهم غير صادي!
فلأنت الرحيم قلباً ولباً ولأنت الهادي لسبل الرشاد
ولأنت البديع خلقاً وخلقاً ولأنت السميع للإنشاد
ولأنت الطراز في كل معنًى ولسيف المقال شبه النجاد
ولأنت الحاوي فنون صفاتٍ دون حصرٍ لها فناء المداد
ولأنت الممدوح من فوق عرشٍ بعد ماذا يقول قس الإيادي

جل قصد الفصيح بالنظم معنًى نشر فضل الممدوح بين العباد
فإذا كان منشئ المدح ربي عاد مدح الفصيح جمع سواد
فعليك الصلاة يرجوا بها الأم ن عليٌ من سائر الأنكاد
وحيث انتهينا من المراثي والنوادب إلى هذه الغاية، فلنذكر نبذةً من الزهد والتوكل.
الباب الثالث
في الزهد والتوكل
وهذا الباب - وفقنا الله وإيانا لقصدنا، وألهمنا سلوك سبيل رشدنا، واستعملنا في
مراضيه، وجنبنا عن الالتفات بالقول والفعل إلى معاصيه - من هذا الفن هو واسطة
عقده، وعضد زنده، وقائم مرهفه وحد فرنده، وشبا سنانه، ومثنى عنانه، وإنسان حدقته،
وحدقة إنسانه، وكيف لا وهو للنفس درة تاجها، وطيب علاجها، وواضح منهاجها،
ودليلها المرشد إذا ضل الدليل، ومنجيها من الهول الأعظم إذا فر المرء من الأخ والأم والأب
والابن والصاحبة والخليل. فتأمله أيها المطالع بعين قلبك قبل ناظرك، واتخذه من أحصن
جنتك وأعدد عددك وأنفس ذخائرك، ورض به نفسك إذا جمحت، وسكن به آمالك إذا
مالت إلى المطامع وجنحت. واعلم أن الدنيا ظلٌ زائل، وعدوٌ قد نصب لك الشباك ومد
الحبائل، ولابد أنك مسئولٌ عما اكتسبته منها، فليت شعري ما أعددت لجواب المسائل؟
فهي العدو الذي أشبه بالصديق، والغادر الماكر الذي ما أخوفني أن مكره بي وبك
سيحيق. فاقتصر على القليل منها، واعلم أنك سترحل في غدٍ عنها، وان الموت نازلٌ بك
فلا ينفعك ما جمعته من مالٍ وخول، ولا يصحبك من الدنيا إلا ما قدمته لآخرتك من صالح
اعمل، وان مالك سيقتسمه من لعله لا يشكرك عليه، وما ذا ينفعك شكره لو أن فعل!
وغاية ما ينالك من دنياك، وغن بلغت منها مناك، وطال بها مداك، أن تتمتع بزهرتها، وتنال
من لذتها، وقد علمت بالمشاهدة من حالك وحال غيرك ما يؤول أمر ملاذها إليه في
العاجل، وما يتوقع لمن اقتصر من دنياه عليها في الآجل، فالمأكل والمشرب صائران إلى ما
عملته وإنما تحصل اللذة بهما قبل الازدراد، والمنكح والمركب فأنت وهما في الموت والفناء

على ميعاد، والملابس فستخلقها الأيام بعد الجدة، والمساكن فستعفى الليالي آثارها ولو بعد
مدة. فإذا علمت أن مآل الدنيا إلى الزوال، وقصارها إلى الانتقال، وملاذها إلى هذه الغاية،
والعمر فيها وإن طال سريع الناهية، فتقلل منها حسب طاقتك، واقتصر على ما تسد به
بعض خلتك وفاقتك، واعمل لآخرتك التي لا ينقضي أمدها، ولا يفنى من النعيم الدائم
مددها. وقد أمرتك الخير وليتني به لو ائتمرت، وأوضحت لك سبيل الرشاد وليتني به لو
مررت.
أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به وما استقمت فما قولي لك: استقم!
وسأورد إن شاء الله على سمعك من هذا الباب ما إن تمسكت به كان سبباً لإرشادك،
وذخيرةً تجدها في يوم معادك.
بيان حقيقة الزهد
قال الإمام الأوحد العالم زين الدين حجة المتكلمين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد
الغزالي الطوسي رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بإحياء علوم الدين: اعلم أن الزهد في
الدنيا مقامٌ شريفٌ من مقامات السالكين. وينتظم هذا المقام من علمٍ وحالٍ وعملٍ كسائر
المقامات، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقدٍ وقولٍ وعمل. وكأن القول
لظهوره أقيم مقام الحال، إذ به يظهر الحال الباطن، وإلا فليس القول مراداً بعينه، وإذا لم
يكن صادراً عن حالٍ سمي إسلاماً ولم يسم إيماناً. والعلم هو السبب في الحال يجري مجرى
المثمر، والعمل يجري مجرى الثمرة.
فأما الحال فنعني بها ما يسمى زهداً، وهو عبارةٌ عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما
هو خيرٌ منه، فكل من عدل عن شيءٍ إلى غيره بمعاوضةٍ وبيعٍ وغيره فإنما عدل عنه
لرغبته عنه، وإنما عدل لغيره لرغبته فيه. فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً،
وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبةً وحباً. فإذاً يستدعي حال الزهد مرغوباً عنه
ومرغوباً فيه هو خيرٌ من المرغوب عنه. وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً
فيه بوجهٍ من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً، فتارك التراب

والحجارة والحشرات لا يسمى زاهداً، لأن ذلك ليس في مظنة الرغبة، وإنما يسمى زاهداً
تاركِ الدراهم والدنانير. وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى
تغلب هذه الرغبة، فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشترى عنده خيرٌ من المبيع، فيكون
حاله بالإضافة إلى المبيع زهداً فيه، وبالإضافة إلى العوض رغبةً وحباً، ولذلك قال الله
تعالى: "وشروه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهدين" وشروه بمعنى باعوه،
ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم
أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعاً في العوض. فإذاً كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهدٌ
في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهدٌ في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا
فهو أيضاً زاهدٌ ولكن في الآخرة، ولكن العادة جاريةٌ بتخصيص اسم الزهد بمن وهد في
الدنيا، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة، وإن كان هو الميل في وضع
اللسان. قال: ولما كان الزهد رغبةً عن محبوبٍ بالجملة لم يتصور إلا بالعدول إلى شيءٍ هو
أحب منه، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال. والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى
فهو الزاهد المطلق. والذي يرغب عن كل حظٍ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ
في الآخرة بل طمع في الحور العين والقصور والفواكه والأنهار فهو أيضاً زاهدٌ ولكنه دون
الأول. والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض، كالذي يترك المال دون الجاه، أو
يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجمل في الزينة، فلا يستحق اسم الزهد مطلقاً، ودرجته في
الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين، وهو زهدٌ صحيحٌ كما أن التوبة عن
بعض المعاصي صحيحة، فإن التوبة عبارةٌ عن ترك المحظورات، والزهد عبارةٌ عن ترك
المباحات التي هي حظ النفس. والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً، وإن كان
زهد في المحظور وانصرف عنه، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بتارك المباحات. فإذاً
الزهد عبارةٌ عن رغبةٍ عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة أو عن غير الله عدولاً إلى الله، وهي

الدرجة العليا. وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده، فيشترط في المرغوب
عنه أن يكون مقدوراً عليه، فإن ترك مالا يقدر عليه محال، وبالترك يتبين زوال الرغبة،
ولذلك قيل لابن المبارك: يا زاهد، فقال: الزاهد عمرُ بن عبد العزيز، إذا جاءته الدنيا
راغمةً فتركها، وأما أنا ففيم زهدت!
وأما العلم الذي هو المثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ،
كعلم التاجر بأن العوض خيرٌ من المبيع فيرغب فيه، وما لم يتحقق هذا العلم لا يتصور أن
تزول الرغبة عن المبيع، فكذلك من عرف أن ما عند الله باقٍ وأن الآخرة خيرٌ وأبقى، أي
لذتها خيرٌ في نفسها وأبقى. فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى
الرغبة في البيع والمعاملة، حتى إن من قوي يقينه يبيع نفسه وماله، كما قال الله عز وجل:
"إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن الجنة لهم" الآية، ثم بين أن صفقتهم رابحةٌ
فقال الله تعالى: "فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به". فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا
إلى هذا القدر وهو أن الآخرة خيرٌ وأبقى، وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إما
لضعف علمه ويقينه، وإما لاستيلاء الدنيا والشهوة في الحال عليه ولكونه مقهوراً في يد
الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً فيوماً إلى أن يختطفه الموت، ولا
يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت. قال: وإلى التعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى:
"قل متاع الدنيا قليلٌ والآخرة خيرٌ لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً"، وإلى تعريف نفاسة الآخرة
والإشارة بقوله عز وجل: "وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ لمن آمن"، فنبه على
أن العلم بنفاسته هو المرغب عن عوضه. قال: ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضةٍ ورغبةٍ
عن محبوبٍ في أحب منه قال رجلٌ: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: "لا تقل هذا ولكن قل اللهم أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك".
وهذا لأن الله يراها حقيرةً كما هي، وكل مخلوقٍ بالإضافة إلى جلاله حقير، والعبد يراها

حقيرةً في حق نفسه بالإضافة إلى ما هو خيرٌ له، ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب
عن فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً، لأنه مستغنٍ عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً
عن الفرس، و الله تعالى غنيٌ بذاته عن كل ما سواه، فيرى الكل في درجةٍ واحدةٍ بالإضافة
إلى جلاله، ويراها متفاوتةً بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذي يرى تفاوتها بالإضافة إلى
نفسه لا إلى غيره.
وأما العمل الصادر عن حال الزاهد فهو تركٌ وأخذ، لأنه بيعٌ ومعاملةٌ واستبدال الذي هو
خيرٌ بالذي هو أدنى. فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه عن
اليد وأخذ العوض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع
أسبابها ومقدماتها وعلائقها، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات، وإلا كان كمن
سلم المبيع ولم يأخذ الثمن. فإذا وفى شرط الحالتين في الأخذ والترك فليستبشر ببيعه
الذي بايع به، فإن الذي بايعه بهذا البيع وفيٌ بالعهد، فمن سلم حاضراً في غائبٍ وسلم
الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد
ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد. ومادام ممسكاً للدنيا فلا يصح زهده أصلاً، ولذلك
لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا: "ليوسف وأخوه
أحب إلى أبينا منا"، وعزموا على إبعاده كما عزموا على إبعاد يوسف حتى شفع فيه
أحدهم فترك، ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه إلا عند
التسليم والبيع. فعلامة الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج. فإن أخرجت عن اليد
بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهدٌ فيما أخرجت فقط، ولست زاهداً مطلقاً، وإن لم يكن
لك مالٌ ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد، لأن ما لا تقدر عليه لا تقدر على تركه.
وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهدٌ فيها، فلا
ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثقٍ غليظٍ من الله تعالى، فإنك إذا

لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها، فكم من ظانٍ بنفسه كراهة
المعاصي عند تعذرها فلما تيسرت لها أسبابها منة غير مكدرو لا مخوف من الخلق وقع
فيها. وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فإياك أن تثق بوعدها في المباحات.
والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجربها مرةً بعد مرة في حال القدرة، فإذا وفت بما
وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق بها وثوقاً
ما، ولكن تكون من تغيرها على حذر، فإنها سريعة النقض للعهد، قريبة الرجوع إلى
مقتضى الطبع. وبالحملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما تركت فقط وذلك
عند القدرة. قال: وليس من الزهد بذل المال على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل
استمالة القلوب ولا على سبيل الطمع، فذلك كله من محاسن العادات ولا مدخل له في
العبادات، إنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة. فأما كل
نوعٍ من الترك فإنه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءةً وفتوةً وسخاءً وحسن
خلق، وحسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة، وهي ألذ وأهنأ من المال، بل
الزاهد من أتته الدنيا راغمةً عفواً وصفواً وهو قادرٌ على التنعم بها من غير نقصان جاهٍ
وقبح اسمٍ وفوات حظٍ للنفس، فتركها خوفاً من أن يأنس بها فيكون آنساً بغير الله ومحباً
لما سوى الله، ويكون مشركاً في حب الله غير الله، أو تركها طمعاً في ثوابٍ آخر فترك التمتع
بأشربة الدنيا طمعاً في أشربة الجنة، وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعاً في الحور العين،
وترك التفرج في البساتين طمعاً في بساتين الجنة وأشجارها، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا
طمعاً في زينة الجنة، وترك المطاعم اللذيذة طمعاً في فواكه الجنة وخوفاً من أن يقال له:
"أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا" فآثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر
له في الدنيا عفواً وصفواً، لعلمه بأن ما في الآخرة خيرٌ وأبقى، وما سوى هذه فعلاماتٌ
دنيويةٌ لا جدوى لها في الآخرة أصلاً. وحيث قدمنا هذه المقدمة من أحوال الزهد في

الحال والعلم فلنذكر بيان فضيلة الزهد وذم الدنيا.
فضيلة الزهد وبغض الدنيا
قال الله تعالى: "فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما
أوتي قارون إنه لذو حظٍ عظيم، وقال الذين أتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ لمن آمن وعمل
صالحاً"، فنسب الزهد للعلماء ووصف أهله بالعلم، وذلك غاية الثناء، وقال تعالى: "أولئك
يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا" جاء في التفسير: على الزهد في الدنيا. وقال تعالى: "إنا
جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً". قيل: معناه أيهم أزهد في
الدنيا، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال. وقال تعالى: "من كان يريد حرث الآخرة نزد
له في حرثه". وقال تعالى: "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم" إلى قوله: "ورزق
ربك خيرٌ وأبقى". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصبح وهمه الدنيا شتت
الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له
ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له أمره وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته
الدنيا وهي راغمةٌ". وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم العبد قد أوتي منطقاً وزهداً
في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة". وقال تعالى: "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً
كثيراً"، ولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأطلق
بها لسانه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أردت أن يحبك الله فازهد في
الدنيا" فجعل الزهد سبباً للمحبة، فمن أحبه الله فهو في أعلى الدرجات، فينبغي أن يكون
الزهد في أفضل المقامات. ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: "فمن
يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام" وقيل له: ما هذا الشرح؟ قال: "إن النور إذا دخل
القلب انشرح له الصدر وانفسح". قيل: يا رسول الله، هل لذلك من علامة؟ قال: "نعم
التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله". وقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: "استحيوا من الله حق الحياء" قالوا: إنا نستحي من الله، فقال:

"ليس كذلك تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون". فبين أن ذلك يناقض الحياء من
الله. وقدم وفدٌ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنا مؤمنون. قال: "وما علامة
إيمانكم؟" فذكروا الصبر على البلاء، والشكر على الرخاء، والرضا بمواقع القضاء، وترك
الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء. قال: "إن كنتم كذلك فلا تجمعوا مالا تأكلون ولا تبنوا
مالا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون"، فجعل الزهد تكملة إيمانهم. وروي أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم مر في أصحابه بإبل عشار حفل وهي الحوامل، وكانت من
أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم، لأنها تجمع بين اللحم واللبن والوبر والظهر، فأعرض
عنها
رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره. فقيل له: يا رسول الله، هذه أنفس أموالنا،
لم لا تنظر إليها؟ فقال: "قد نهاني الله عن ذلك"، ثم تلا قوله تعالى: "ولا تمدنّ عينيك إلى
ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خيرٌ وأبقى". وروى
مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تستطعم الله
فيطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع. فقال: "يا عائشة والذي نفسي بيده لو
سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض ولكن
اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها يا عائشة
إن الدنيا لا تنبغي لمحمدٍ ولا لآل محمدٍ يا عائشة إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلى
الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال:
"فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل" والله مالي بدٌ من طاعته وإني والله لأصبرن كما
صبروا جهدي ولا حول ولقوة إلا بالله".
وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته
حفصة: البس لين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومر بصنعة طعامٍ تطعمه
وتطعم من حضر. فقال: يا حفصة، ألست تعلمين بأن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟

قالت: بلى. قال: ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في
النبوة كذا وكذا سنةً لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوةً إلا جاعوا عشية، ولا شيعوا عشيةً
إلا جاعوا غدوة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة
كذا وكذا سنةً لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ وناشدتك الله، هل
تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قربتم إليه يوماً طعاماً على مائدةٍ فيها ارتفاعٌ
فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو
وضع على الأرض؟ ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام
على عباءةٍ مثنيةٍ فثنيت له ليلةً أربع طاقاتٍ فنام عليها، فلما استيقظ قال: "منعتموني قيام
هذه الليلة بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها"؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلالٌ فيؤذنه بالصلاة فما يجد
ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل
تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأةٌ من بني ظفر كساءين إزاراً
ورداءً وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتملٌ به ليس
عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك؟ فما زال يقول حتى أبكاها، وبكى عمر
رضي الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج. وفي بعض الروايات زيادةٌ من قول
عمر وهو أنه قال: كان لي صاحبان سلكا طريقاً، فإن سلكا غير طريقهما سلك بي طريقٌ
غير طريقهما، وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما
الرغيد. وعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
"لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة وإن كان أحدهم ليبتلى
بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم". عن ابن عباسٍ رضي
الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين

كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الهزال". وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه لما نزل
قوله تعالى: "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله" الآية، قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: "تباً للدنيا! تباً للدينار والدرهم!" فقلنا: نهانا الله عن كنز الذهب
والفضة فأي شيءٍ ندخر؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً
شاكراً وزوجةً صالحةً تعينه على أمر آخرته. وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم: "من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله تعالى بثلاثٍ: هماً لا يفارق قلبه
أبداً وفقراً لا يستغني أبداً وحرصاً لا يشبع أبداً". وقال صلى الله عليه وسلم: لا يستكمل
العبد الإيمان حتى يكون ألا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى تكون قلة الشيء أحب
إليه من كثرته". وقال المسيح عليه السلام: "الدنيا قنطرةٌ فاعبروها ولا تعمروها". وقيل له
يا نبي الله، لو أمرتنا أن نبتني بيتاً نعبد الله فيه! قال: "اذهبوا فابنوا بيوتاً على الماء".
فقالوا كيف يستقيم بنيانٌ على الماء! قال: "وكيف تستقيم عبادةٌ مع حب الدنيا!. وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن ربي عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً
فقلت لا يا رب ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك
وأدعوك وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك". وعن ابن عباسٍ رضي الله
عنهما قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يومٍ يمشي وجبريل معه فصعد على
الصفا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمدٍ كف
سويقٍ ولا سفه دقيق. فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدةً من السماء أفظعته، فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمر الله القيامة أن تقوم"؟ قال: لا، ولكن هذا إسرافيل
قد نزل إليك حين سمع كلامك. فأتاه إسرافيل فقال: إن الله عز وجل سمع ما ذكر، فبعثني
بمفاتيح الأرض وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرداً
وياقوتاً وذهباً وفضةً فعلت، وإن شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً. فأومأ إليه جبريل

أن تواضع لله. فقال: "نبياً عبداً" ثلاثاً. وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله بعبدٍ
خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه".
وقال صلى الله عليه وسلم:
"من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلمٍ وهدىً بغير هدايةٍ فليزهد في الدنيا". وقال صلى
الله عليه وسلم: "من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لهى عن
الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب".
والأحاديث في ذلك كثيرةٌ وفيما ذكرناه منها كفايةٌ. فلنذكر ما جاء من ذلك في الأثر.
قيل: جاء في الأثر: لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يسألوا ما نقص
من دنياهم. وفي لفظٍ آخر: ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا
إله إلا الله قال الله تعالى: "كذبتم لستم بها صادقين". وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم
أنه قال: تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد الدنيا. وقال بعض الصحابة
لصدر التابعين: أنتم أكثر أعملاً واجتهاداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وكانوا خيراً منكم. قيل: ولم ذاك؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا منكم. وقال عمر رضي الله
عنه: الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد. والآثار في ذلك كثيرةٌ فلا نطول بسردها.
ذم الدنيا وشيءٌ من المواعظ
والرقائق الداخلة في هذا الباب
فقد ورد في كتاب الله عز وجل كثيرٌ في ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى
الآخرة، وهو أيضاً مقصود الأنبياء ولذلك بعثوا، فلا حاجة إلى الاستشهاد بالآيات
لظهورها. فلنذكر نبذةً من الأخبار والآثار الواردة في ذلك، وذلك من جملة ما اختاره
الغزالي رحمه الله في كتابه المترجم بإحياء علوم الدين. فمن ذلك ما روي عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه مر على شاةٍ ميتةٍ فقال: "أترون أن الشاة هينةٌ على أهلها"؟ قالوا: من
هوانها عليهم ألقوها. قال: "والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على
أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شربة ماء". وقال

صلى الله عليه وسلم: "الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ما كان الله منها". وقال صلى الله
عليه وسلم: "حب الدنيا أسس كل خطيئة". وقال صلى الله عليه وسلم: "يا عجباً كل
العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور".
وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلةٍ فقال: "هلموا إلى الدنيا وأخذ
خرقاً قد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نخرت فقال هذه هي الدنيا" وهذه إشارةٌ إلى
أن زينتها ستخلق مثل تلك الخرق، وأن الأجسام التي ترى بها ستصير عظاماً بالية. وقال
عيسى بن مريم عليه السلام: "لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم عبيداً، اكنزوا كنزكم عند من
لا يضيعه، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه
الآفة". وقال أيضاً: "يا معشر الحواريين، إني قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها
بعدي، فإن من خبث الدنيا أن الله عصي فيها، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك
إلا بتركها. ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئةٍ حب الدنيا. ورب
شهوةٍ أورثت حزناً طويلاً. وعن
الرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله جل ثناؤه لم يخلق خلقاً أبغض إليه من
الدنيا وإنه منذ خلقها لم ينظر إليها". وقال صلى الله عليه وسلم: "ألهاكم التكاثر يقول ابن
آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت
فأبقيت!".وقال صلى الله عليه وسلم: "الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها
يجمع من لا عقل له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من
لا يقين له". وقال صلى الله عليه وسلم: من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في
شيءٍ وألزم الله قلبه أربع خصالٍ هماً لا ينقطع عنه أبداً وشغلاً لا يتفرغ منه أبداً وفقراً لا
يبلغ غناه أبداً وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً". وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال لي رسول الله
صلى الله عليه وسلم: "يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعاً بما فيها"؟ قلت: بلى يا رسول
الله. فأخذ بيدي وأتى بي وادياً من أودية المدينة، فإذا مزبلةٌ فيها رءوس ناسٍ وعذراتٌ

وخرقٌ وعظام، ثم قال: "يا أبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرص كحرصكم وتأمل آمالكم
هي اليوم عظامٌ بلا جلدٍ ثم هي صائرةٌ رماداً وهذه العذرات هي ألوانٌ أطعمتهم اكتسبوها
من حيث اكتسبوها ثم قذفوها في بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية
كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت الرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا
ينتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكياً على الدنيا فليبك".
قال: "فما برحنا حتى
اشتد بكاؤنا. وقال الله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا موقوفةٌ بين السماء والأرض منذ
خلقها الله تعالى لا ينظر إليها وتقول يوم القيامة: يا رب اجعلني لأدنى أوليائك نصيباً اليوم
فيقول اسكتي يا لا شيء إني لم أرضك لهم في الدنيا أأرضاك لهم اليوم"! وقال صلى الله
عليه وسلم: "ليجيئن أقوامٌ يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار". قالوا: يا
رسول الله، مصلين؟ قال: "نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنةً من الليل فإذا عرض
لهم من الدنيا شيءٌ وثبوا عليه". وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه: "المؤمن بين
مخافتين بين أجلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانعٌ فيه وبين أجلٍ قد بقى لا يدري ما الله
قاضٍ فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه
لهرمه فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة والذي نفسي بيده ما بعد الموت مستعتب
ولا بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنة أو النار".
قال صلى الله عليه وسلم: "احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت". وقال
صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله
بصيراً ألا إنه من رغب في الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ومن زهد
في الدنيا وقصر أمله فيها أعطاه الله علماً بغير تعلمٍ وهدًى بغير هدايةٍ ألا إنه سيكون
بعدكم قومٌ لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ولا الغنى إلا بالفخر والبخل ولا المحبة إلا
باتباع الهوى ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر للفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على

البغضاء وهو يقدر على المحبة وصبر للذل وهو يقدر على العز لا يريد بذلك إلا وجه الله
تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقاً".
وقال عيسى بن مريم عليه السلام: "ويلٌ لصاحب الدنيا! كيف يموت ويتركها ، ويأمنها
وتغره، ويثق بها وتخذله!، وويلٌ للمغترين! كيف أرتهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبون،
وجاءهم ما يوعدون! وويلٌ لمن الدنيا همه، والخطايا عمله كيف يفتضح غداً بذنبه!. وقيل
له: علمنا علماً واحداً يحبنا الله عليه، قال: "أبغضوا الدنيا يحبكم الله".
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً
ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة".
ومن الآثار في ذلك ما حكاه داود بن هلال قال: مكتوبٌ في صحف إبراهيم عليه السلام:
يا دنيا، ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم! إني قذفت في قلوبهم بغضك
والصدود عنك، وما خلقت خلقاً أهون علي منك، كل شأنك صغير، وإلى الفناء تصيرين،
قضيت عليك يوم خلقتك ألا تدومي لأحدٍ ولا يدوم أحدٌ لك وإن بخل بك صاحبك وشح
عليك. طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا، ومن ضميرهم على الصدق
والاستقامة! طوبى لهم! مالهم عندي من الخير إذا وفدوا إلى من قبورهم إلا النور يسعى
أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي.
وقال عمار بن سعيد: مر عيسى بن مريم عليه السلام بقريةٍ فإذا أهلها موتى في الأفنية
والطرق، فقال: "يا معشر الحواريين، إن هؤلاء ماتوا عن سخطةٍ، ولو ماتوا عن غير ذلك
لتدافنوا. فقالوا: يا روح الله، وددنا أنا علمنا خبرهم، فسأل الله تعالى فأوحى إليه: إذا
كان الليل فنادهم يجيبوك. فلما كان الليل أشرف على نشز، ثم نادى يا أهل القرية، فأجابه
مجيبٌ: لبيك يا روح الله. فقال: ما حالكم وما قصتكم. قال: بتنا في عافيةٍ وأصبحنا في
الهاوية. قال: وكيف ذلك؟ قال: لحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي. قال: وكيف كان
حبكم للدنيا؟ قال: حب الصبي لأمه، إذا أقبلت فرح بها، وإذا أدبرت حزن وبكى

عليها. قال: فما بال أصحابك لا يجيبونني؟ قال: لأنهم ملجمون بلجمٍ من نارٍ بأيدي ملائكةٍ
غلاظٍ شدادٍ. قال: فكيف أجبتني من بينهم؟ قال: لأني كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما
نزل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا معلقٌ على شفير جهنم لا أدري أنجو منها أم أكب
فيها. فقال المسيح للحواريين: "لأكل الخبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على
المزابل كثيرٌ مع عافية الدنيا والآخرة.
قيل: وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يا موسى لا تركنن إلى حب الدنيا فلن
تأتني بكبيرةٍ هي أشد منها.
وقال لقمان لابنه: يا بني، إن الدنيا بحرٌ عميقٌ وقد غرق فبه ناسٌ كثير، فلتكن فيها
سفينتك تقوى الله عز وجل، وحشوها الإيمان بالله تعالى، وشراعها التوكل على الله عز
وجل، لعلك تنجو وما أراك ناجياً.
وقال بعض الحكماء: إنك لن تصبح في شيءٍ من الدنيا إلا وقد كان له أهلٌ قبلك ويكون له
أهلٌ بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلةٍ وغداء يوم، فلا تهلك في أكلة، وصم عن
الدنيا وأفطر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار.
وقيل لبعضهم: كيف ترى الدهر؟ قال: يخلق الأبدان، ويجدد الآمال، ويقرب المنية، ويبعد
الأمنية. قيل: فما حال أهله؟ قال: من ظفر به تعب، ومن فاته نصب. وفي ذلك قيل:

ومن يحمد الدنيا لعيشٍ يسره فسوف لعمري عن قريبٍ يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرةً وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقال بعض الحكماء: كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فلا أسكن
إليها، فإن عيشها نكد، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل، إما بنعمةٍ زائلةٍ، أو بليةٍ
نازلة، أو منيةٍ قاضية.
وقال أبو حازم: إياكم والدنيا، فإنه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظماً للدنيا
فيقال: هذا عظم ما حقره الله.
وقال ابن مسعود: ما أصبح أحدٌ من الناس إلا وهو ضيفٌ وماله عارية، فالضيف يرتحل
والعارية مردودة. وفي ذلك قيل:

وما المال والأهلون إلا وديعةٌ ولا بد يوماً أن ترد الودائع
وزار رابعة العدوية أصحابها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها، فقالت: أمسكوا عن
ذكرها، فلو لا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألا من أحب شيئاً أكثر من ذكره.
وقال رجلٌ لعليٍ رضي الله عنه يا أمير المؤمنين، صف لنا الدنيا، فقال: وما أصف لكم
من دار من صح فيها ما أمن، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها
فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العذاب.
وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى "فلا تغرنكم الحياة الدنيا": من قال ذا؟ من خلقها من
هو أعلم بها. إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجلٌ على نفسه
باب شغلٍ إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب. وقال أيضاً: مسكينٌ ابن آدم
رضي بدارٍ حلالها حساب، وحرامها عذاب، إن أخذه من حله حوسب به، وإن أخذه
من حرامٍ عذب به. ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله، يفرح في مصيبته في دينه ويجزع من
مصيبته في دنياه.
وقال داود الطائي: يا بن آدم، فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء أجلك، ثم سوفت
بعملك، كأن منفعته لغيرك.
وقال بشر: من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه.
وقال أبو حازم: ما في الدنيا شيءٌ يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئاً يسوءك.
وقال الحسن: أهينوا الدنيا، فوالله ما هي لأحدٍ بأهنأ منها لمن أهانها. وقال أيضاً: إذا
أراد الله بعبدٍ خيراً أعطاه عطيةً من الدنيا ثم يمسك، فإذا نفذ أعاد عليه، وإذا هان عليه
عبدٌ بسط له الدنيا بسطاً.
قال الجنيد: كان الشافعي رحمه اله من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدين، وعظ أخاً
له في الله تعالى وخوفه بالله فقال: يا أخي، إن الدنيا دحض مزلة، ودار مذلة، عمرانها إلى
الخرائب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر
مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله وارض برزق الله. لا

تستسلف من دار بقائك في دار فنائك، فإن عيشك فيءٌ زائل، وجدارٌ مائل، أكثر من
عملك، وقصر من أملك. وهذا من أبلغ المواعظ والترغيب.
ومن المواعظ ما قاله أبو الدرداء رضي الله عنه: والله لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى
الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا راجع إليها إلا
ما لابد منه، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة وحضرها الأمل، فصارت الدنيا أملك
بأعمالكم وصرتم كالذين لا يعملون، فبعضكم شرٌ من البهائم التي لا تدع هواها مخافةً مما في
عاقبته. مالكم لا تحابون فبعضكم شرٌ من البهائم التي لا تدع هواها مخافةً مما في عاقبته.
ما لكم لا تحابون ولا تناصحون وأنمت إخوانٌ على دين الله، ما فرق بين أهوائكم إلا خبث
سرائركم، ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم. ما لكم تناصحون في أمر الدنيا ولا يملك
أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعنيه على أمر آخرته! ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم.
لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك
بأموركم. فإن قلتم: حب العاجلة غالب، فإنا نراكم تدعون العاجل من الدنيا للآجل مما
تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف في طلب أمرٍ لعلكم لا تدركونه. فبئس القوم أنتم! ما
حققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم. فإن كنتم في شكٍ مما جاء به محمدٌ صلى
الله عليه وسلم فأتوا لنبين لكم ونريكم من النور ما تطمئن إليه قلوبكم. والله ما أنتم
بالمنقوصة عقولكم فنعذركم، إنكم لتبينون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في
أموركم. مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه وتحزنون على اليسير منها يفوتكم، يتبن
ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم، وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المآتم، وعامتكم
قد تركوا كثيراً من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالٌ بكم!. إني لأرى الله
قد تبرأ منكم. يلقى بعضكم بعضاً بالسرور، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره
مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله، فاصطحبتم على الغل، ونبتت مراعيكم على الدمن،

وتصافيتم على رفض الأجل. ولوددت أن الله أراحني منكم وألحقني بمن أحب رؤيته، ولو
كان حياً لم يصابركم. فإن كان فيكم خيرٌ فقد أسمعتكم، وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه
يسيراً. والله أستعين على نفسي وعليكم.
وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله تعالى:
أما بعد، فإن الدنيا دار ظغن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها
عقوبةً، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها، لها في كل حينٍ
قتيل، تذل من أعزها، وتفقرٍ من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه. فكن
فيها كالمداوي جراحته، يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة
طول الداء. فاحذر هذه الدار الغدارة الختالة الخداعة التي قد تزينت بخدعها وفتنت
بغرورها، وحلت بآمالها، وسوفت بخطابها، فأصبحت كالعروس المجلوة، فالعيون إليها
ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قالية، فلا الباقي
بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر، والعارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مدكر،
فعاشقٌ لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسي المعاد، فشغل به لبه حتى زلت به
قدمه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه، وحسرات
الفوت بغصته، وراغبٌ فيها لم يدرك فيها ما طلب، ولم يروح نفسه من التعب، فخرج بغير
زاد، وقدم على غير مهاد. فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما
تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن إلى سرورٍ أشخصته إلى مكروهٍ، السار فيها
أهلها غار، والنافع فيها غدارٌ ضار، وقد وصل الرخاء فيها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى
فناء، فسرورها مشوبٌ بالأحزان. لا يرجع منها ما ولى وأدبر، ولا يدرى ما هو آتٍ
فينتظر، أمانيها كاذبةٌ، وآمالها باطلةٌ، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وابن آدم فيها على
خطر، ومن البلاء على الحذر. فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً، ولم يضرب لها مثلاً،

لكانت الدنيا أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجرٌ
وفيها واعظ! فما لها عند الله عز وجل ثناؤه قدر، وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد
عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله
جناح بعوضةٍ فأبى أن يقبلها إذ كره أن يخالف على الله أمره، أو يحب ما أبغض خالقه، أو
يرفع ما وضع مليكه. فزواها عن الصالحين اختباراً. وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظن
المغرور المقتدر عليها أنه أكرم بها، ونسي ما صنع الله عز وجل بمحمدٍ صلى الله عليه
وسلم حين شد الحجر على بطنه. ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل أنه قال
لموسى عليه السلام: "إذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنبٌ عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر
مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين". فإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى
بن مريم عليه السلام فإنه كان يقول: "إدامى الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصوف،
وصلائي في الشتاء مشارق الشمس، وسراجي القمر، ودابتي رجلاي، وطعامي وفاكهتي ما
تنبت الأرض، أبيت ليس لي شيءٌ وأصبح لي شيءٌ على الأرض أغنى مني.
وقال بعضهم لبعض الملوك: إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطي
حاجته منها، لأنه يتوقع آفةً تعدو على ماله فتجتاحه، أو على جمعه فتفرقه، أو تأتي سلطانه
فتهدمه من القواعد، أو تدب إلى جسمه فتسقمه، أو تفجعه بشيءٍ هو ضنينٌ به من
أحبابه. فالدنيا أحق بالذم، هي الآخذة لما تعطي، الراجعة فيما تهب. بينا هي تضحك
صاحبها إذا أضحكت منه غيره، وبينا هي تبكي له إذا أبكت عليه، وبينا هي تبسط
كفه بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد. تعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتعفره في التراب
غداً، سواءٌ عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقي، تجد في الباقي من الذاهب خلفاً،
وترضي بكل من كلٍ بدلاً.
وعن وهب ابن منبه أنه قال:
لما بعث الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال: لا يروعنكما لباسه

الذي لبس من الدنيا، فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذني، ولا
يعجبنكما ما متع به منها فإنما هي زهرة الدنيا وزينة المترفين. فلو شئت أن أزينكما بزينةٍ
من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت، ولكن أرغب بكما
عن ذلك فأزوي ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، إن لأذودهم عن نعيمها كما يذود
الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة، وما ذاك لهوانهم علي ولكن ليستكملوا نصيبهم
من كرامتي سالماً موفراً. إنما يتزين لي أوليائي بالذل والخضوع والخوف والتقوى تنبت في
قلوبهم فتظهر على أجسادهم، فهي ثيابهم التي يلبسون، ودثارهم الذي يظهرون، وضميرهم
الذي يستشعرون، ونجاتهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الذي إياه يأملون، ومجدهم الذي به
يفخرون، وسيماهم التي بها يعرفون. فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل لهم قلبك
ولسانك. واعلم أن من أخاف لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة.
وخطب علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه يوماً خطبةً فقال فيها:
اعلموا أنكم ميتون، ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها، فلا
تغرنكم الحياة الدنيا، فإنها بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها
إلى زوال، وهي بين أهلها دولٌ وسجال، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم من شر نزالها، بينا
أهلها في رخاءٍ وسرور، إذا هم منها في بلاءٍ وغرور، أحوالٌ مختلفة، وتارات متصرفة،
العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم. وإنما أهلها فيها أغراضٌ مستهدفةٌ ترميهم
بسهامها، وتقصيهم بحمامها، وكلٌ حتفه فيها مقدور، وحظه فيها موفور. واعلموا عباد الله
أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كانوا أطول منكم أعماراً،
وأشد منكم بطشاً وأعمر ديارا، وأبعد آثاراً، فأصبحت أصواتهم هامدةً وخامدةً من بعد
طول تقلبها، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، استبدلوا بالقصور
المشيدة، والسرر والنمارق الممهدة، الصخور والأحجار المسندة، في القبور اللاطئة الملحدة،

فمحلها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل عمارةٍ موحشين، وأهل محلةٍ متشاغلين، لا
يستأنسون بالعمران، ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان، على ما بينهم من قرب المكان
والجوار، ودنو الدار. وكيف يكون بينهم تواصلٌ وقد طحنهم بكلكله البلى، وأكلتهم
الجنادل والثرى، وأصبحوا بعد الحياة أمواتاً، وبعد غضارة العيش رفاتاً، فجع بهم
الأحباب، وسكنوا التراب، وظعنوا فليس لهم إياب. هيهات هيهات! كلا إنها كلمةٌ هو
قائلها ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يبعثون، فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلى
والوحدة في دار المثوى، وارتهنتم في ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو
قد عاينتم الأمور، وبعثرت القبور، وحصل ما في الصدور، ووقفتم للتحصيل، بين يدي الملك
الجليل، فطارت القلوب، لإشفاقها من سالف الذنوب، وهتكت عنكم الحجب والأستار،
وظهرت منكم العيوب والأسرار، هنالك تجزى كل نفسٍ ما كسبت. إن الله عز وجل يقول:
"ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى"، وقال تعالى: "ووضع
الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما هذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا
كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً".
جعلنا الله وإياكم
عاملين بكتابه، متبعين لأوليائه، حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله، إنه حميد مجيد.
ملحق لهذا الفصل
خطبة قطري بن الفجاءة وسترد في كلام البلغاء في باب الكتابة.
وقال بعضهم: يا أيها الناس، اعملوا على مهل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل
ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارةٌ خداعة، قد تزخرفت لكم بغرورها،
وفتنتكم بأمانيها، وتزينت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلوة، العيون إليها ناظرة، والقلوب
عليها عاكفة، والنفوس لها عاشقة. فكم من عاشقٍ لها قتلت، ومطمئنٍ إليها خذلت.
فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دارٌ كثرت بوائقها، وذمها خالقها، جديدها يبلى، وملكها

يفنى، وعزيزها يذل، وكثيرها يقل، وحيها يموت، وخيرها يفوت.
فاستيقظوا من غفلتكم،
وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال: فلانٌ عليل، أو مدنفٌ ثقيل،
فهل على الدواء من دليل، أو
على الطبيب من سبيل، فيدعى لك الأطباء، ولا يرجى لك
الشفاء، ثم يقال: فلانٌ أوصى،
ولماله أحصى، ثم يقال: قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه، ولا
يعرف جيرانه، وعرق عند ذلك
جبينك، وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت
ظنونك، وتلجلج
لسانك، وبكى إخوانك، وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك
فلان، ومنعت الكلام فلا
تنطق، ثم حل بك القضاء، وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عرج
بها إلى السماء، فاجتمع
عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك، فغسلوك وكفنوك، فانقطع
عوادك، واستراح
حسادك، وانصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مرتهناً بأعمالك.
وقال بعض الحكماء: الأيام سهام، والناس أغراض، والدهر
يرميك كل يومٍ بسهامه،
ويتخرمك بلياليه وأيامه، حتى يستغرق جميع أجزائك، فكم بقاء
سلامتك مع وقوع الأيام
بك، وسرعة الليالي في بدنك! لو كشفت لك عما أحدثت الأيام
فيك من النقص
لاستوحشت من كل يومٍ يأتي عليك، واستثقلت ممر الساعات
بك، ولكن تدبير الله فوق
تدبير الاعتبار، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها، وإنها
لأمر من العلقم إذا
عجمها الحكيم، وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها، وما
تأتي به من العجائب أكثر
مما يحيط به الواعظ. أللهم أرشدنا للصواب.
وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال: أيها الناس، إنكم
خلقتم لأمرٍ إن كنتم
تصدقون به فإنكم حمقى، وإن كنتم تكذبون به إنكم لهلكى، إنما
خلقتم للأبد، ولكنكم من
دارٍ إلى دارٍ تنقلون. عباد الله، إنكم في دارٍ لكم فيها من
طعامكم غصص، ومن شرابكم
شرق، لا تصفو نعمةٌ تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون
فراقها، فاعملوا لما أنتم صائرون
إليه خالدون فيه. ثم غلبه البكاء ونزل.
بيان الزهد وأقسامه وأحكامه
فأما درجاته فقد قال الغزالي رحمه الله : إنها تتفاوت بحسب
تفاوت قوته على ثلاث

درجاتٍ:
الأولى وهي السفلى منها: أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها
ملتفتةٌ ولكنه يجاهدها ويكفها، وهذا يسمى التزهد، وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى
درجة الزهد بالكسب والاجتهاد. والمتزهد يذيب أولاً نفسه ثم كسبه، والزاهد يذيب أولاً
كسبه ثم يذيب نفسه في الطاعة لا في الصبر على ما فارقه. والمتزهد على خطر، فإنه ربما
تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليلٍ أو كثير.
الثانية: الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك
درهماً لأجل درهمين فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظارٍ قليل. ولكن هذا
الزاهدً يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه، فيكاد يكون
معجباً بنفسه وزهده، ويظن بنفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، وهذا
أيضاً نقصان.
الثالثة وهي العليا: أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده، إذا لا يرى أنه ترك
شيئاً إذ عرف أن الدنيا لاشيء، فيكون كمن ترك خزفةً وأخذ جوهرةً فلا يرى ذلك
معاوضةً ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً. والدنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخس من
خزفةٍ بالإضافة إلى جوهرة، فهذا هو الكمال في الزهد، وسهبه كمال المعرفة. وأما أقسامه
فمنها ما هو مضافٌ إلى المرغوب فيه والمرغوب عنه، فأما المرغوب فيه فهو على ثلاث
درجات:
الأولى هي السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر
ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار.
وفي الخبر: "إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعيرٍ عطاشاً على عرقه
لصدرت رواءً"، فهذا زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا فإن الخلاص من الألم
يحصل بمجرد العدم.
الدرجة الثانية: أن يزهد رغبةً في ثواب الله ونعمه واللذات الموعودة في جنته من الحور

والقصور وغيره، وهذا زهد الراجين، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعةً بالعدم والخلاص من
الألم بل طمعوا في وجودٍ دائمٍ ونعيمٍ سرمدٍ لا آخر له.
الدرجة الثالثة وهي العليا: ألا يكون له رغبةٌ إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام
ليقصد الخلاص منها، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهم بالله
تعالى، وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى، لأن من طلب غير الله فقد
عبده، وكل مطلوبٍ معبود، وكل طالبٍ عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلب غير الله فمن
الشرك الخفي، وهذا زهد المحبين وهم العارفون، لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من
عرفه، وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا
الدينار، فلذلك من عرف الله تعالى وعرف للذة النظر إلى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع
بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير
ممكن، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره. قال: ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى
وجه الله تعالى يبقى للذة الحور القصور متسعٌ في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم
الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى
الاستيلاء على عصفورٍ واللعب به، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب
كالصبي الطالب للعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة
الخلق.
وأما المرغوب عنه، فقد كثرت فيه الأقاويل.
قال الغزالي رحمه الله: لعلها تزيد على مائة قولٍ، وأشار إلى كلام محيط بالتفاصيل فقال:
المرغوب عنه بالزهد له إجمالٌ وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام
وبعضها أجمع للجمل.
أما الإجمال في الدرجة الأولى: فهو كل ما سوى الله ينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في
نفسه أيضاً.
والإجمال في الدرجة الثانية: أن يزهد في كل صفةٍ للنفس فيها متعة، وهذا يتناول جميع

مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغير ذلك.
في الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما، إذ إليهما ترجع جميع حظوظ
النفس.
وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه، إذا الأموال وإن
كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم
والقدرة. قال: وأعني به كل علمٍ وقدرة مقصودهما ملك القلوب، إذ معنى الجاه هو ملك
القلوب والقدرة عليها، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها. قال: فإن جاوزت
هذا التفصيل إلى شرحٍ وتفصيلٍ أبلغ من هذا فتكاد تخرج ما فيه الزهد عن الحصر. وقد
ذكر الله تعالى في آيةٍ واحدةٍ سبعةً منها فقال: "زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين
والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة
الدنيا". ثم رده في آيةٍ أخرى إلى خمسةٍ فقال: "اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ
وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد". ثم رده في موضعٍ آخر إلى اثنين فقال: "وما
الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعبٌ". ثم رد الكل في موضعٍ آخر إلى واحدٍ فقال: "ونهى النفس عن
الهوى فإن الجنة هي المأوى"، فالهوى لفظٌ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن
يكون الزهد فيه.
قال: فالحاصل أن الزهد عبارةٌ عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها.
وقال أبو سليمان الداراني: سمعنا في الزهد كلاماً كثيراً، والزهد عندنا ترك كل شيءٍ
يشغلك عن الله عز وجل، وقرأ قوله تعالى: "إلا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ"، قال: هو القلب
الذي ليس فيه غير الله. فهذا بيان أقسامه بالإضافة إلى المرغوب فيه وعنه.
وأما أحكامه فتنقسم إلى فرضٍ ونفلٍ وسلامة. فالفرض هو الزهد في الحرام، والنفل هو
الزهد في الحلال، والسلامة هو الزهد في الشبهات. فهذه درجاته وأقسامه وأحكامه على
سبيل الاختصار.
بيان تفصيل الزهد

فيما هو من ضروريات الحياة
قال الغزالي رحمه الله: اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضولٍ وإلى مهم،
فالفضول كالخيل المسومة - إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادرٌ على المشي
- وغير ذلك مما لا ينحصر. ثم حصر المهم الضروي فتميز ما عداه انه فضولٌ. قال: والمهم
أيضاً يتطرق إليه فضولٌ في مقداره وجنسه وأوقاته على ما يشرحه من قوله. قال: والمهمات
ستة أمورٍ، وهي: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه يطلب
لأغراض.
فالمهم الأول المطعم. ولا بد للإنسان من قوتٍ حلالٍ يقيم صلبه، ولكن له طولٌ وعرضٌ
ووقت. فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه قد لا يقنع به، وهو لا
يقصر إلا بقصر الأمل، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدته
وخوف المرض. ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه، وهذه
الدرجة العليا.
والثانية: أن يدخر لشهرٍ أو أربعين يوماً.
والثالثة: أن يدخر لسنةٍ فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد. ومن ادخر لكثر من ذلك
فتسميته زاهداً محال، لأن من أمل بقاءً أكثر من سنةٍ فهو طويل الأمل جداً فلا يتم منه
الزهد إلا إذا لم يكن له كسبٌ ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس، كداود الطائي فإنه
ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقها عشرين سنةً، فهذا لا يضاد الزهد إلا عند من جعل
التوكل شرط الزهد.
وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار، وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطلٍ، وأوسطه
رطل، وأعلاه مد - وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المساكين في الكفارة - وما وراء ذلك
فهو اتساعٌ واشتغالٌ بالبطن. وممن لم يقدر على الاقتصار على مدٍ لم يكن له من الزهد في
البطن نصيب.
وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله ما يقوت وهو الخبز من النخالة، وأوسطه خبز الشعير
والذرة، وأعلاه خبز البر غير منخول، فإذا ميزت النخالة منه وصار حوارى فقد دخل في

التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلاً عن أوائله.
وأما الأدم، فأقله الملح أو البقل والخل، وأوسطه الزيت أو يسيرٌ من الأدهان، وأعلاه اللحم
وذلك في الأسبوع مرةً أو مرتين، فإن صار دائماً أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج من آخر
أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهداً في البطن أصلاً.
وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرةً وهو أن يكون صائماً ثم يفطر في وقت
الإفطار، وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلةً ولا يأكل، ويأكل ليلةً ولا يشرب، وأعلاه أن ينتهي
إلى أن يطوي ثلاثة أيامٍ وأسبوعاً وما زاد عليه. وانظر إلى أحوال رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأصحابه في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم واقتصارهم على ما
يمسك الرمق. قال عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: كانت تأتي علينا أربعون ليلةً وما
يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباحٌ ولا نار.
قيل لها: فبم كنتم
تعيشون؟ قالت: بالأسودين التمر والماء. وجاء أهل قباء إلى النبي صلى الله عليه وسلم
بشربةٍ من لبنٍ مشوبةٍ بعسل، فوضع القدح من يده وقال: "أما إني لست أحرمه ولكني أتركه
تواضعاً لله تعالى". وأتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشربةٍ من ماءٍ باردٍ وعسلٍ في يومٍ
صائفٍ فقال: اعزلوا عني حسابها. وقال يحيى بن معاذ الرازي.
الزاهد الصادق قوته ما
وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه، والقبر مضجعه، والخلوة
مجلسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والرب أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه،
والحزن شأنه، والحياء شعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى
زاده، والصمت غنيمته، الصبر معتمده، والتوكل حسبه، والعقل دليله، والعبادة حرفته،
والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى.
المهم الثاني الملبس. وأقل درجاته ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة، وهو كساءٌ يتغطى به،
وأوسطه قميصٌ وقلنسوة ونعلان، وأعلاه أن يكون معه منديلٌ وسراويل. وما جاوز هذا
من حيث المقدار فهو مجاوزٌ حد الزهد. وشرط الزهد ألا يكون له ثوبٌ يلبسه إذا غسل

بل يلزمه القعود في البيت، فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من
جميع أبواب الزهد. هذا من حيث المقدار. وأما الجنس، فأقله المسموح الخشنة،
وأوسطه الصوف الخشن، وأعلاه القطن الغليظ.
وأما من حيث الوقت، فأقصاه ما يستر سنةً، وأقله ما يبقى يوماً، وقد رقع بعضهم ثوبه
بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه، وأوسطه ما يتماسك عليه شهراً وما يقاربه.
فطلب ما يبقى أكثر من سنةٍ خروجٌ إلى طول الأمل، وهو مضادٌ للزهد إلا إذا كان المطلوب
خشونته وقد يتبع ذلك قوته ودوامه. فمن وجد زيادةً من ذلك فينبغي أن يتصدق به، فإن
أمسكه لم يكن زاهداً بل كان محباً للدنيا. ولينظر إلى أحوال الأنبياء صلى الله عليهم
والصحابة رضي الله عنهم كيف تركوا الملابس.قال أبو بردة: أخرجت لنا عائشةُ رضي
الله عنها كساءً ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في
هذين. وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي ما لبس".
وفي الخبر: "ما من عبدٍ لبس ثوب شهرةٍ إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده
حبيباً". واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم وكان إزاره أربعة
أذرع ونصفاً، واشترى سراويل بثلاثة دراهم، وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوفٍ
وكانت تسمى حلةً لأنهما ثوبان من جنسٍ واحد. وربما كان يلبس بردين يمانيين أو
سحوليين. ولبس صلى الله عليه وسلم يوماً واحداً ثوباً سيراء من سندسٍ قيمته مائتا
درهم، فكان أصحابه يلمسونه ويقولون: يا رسول الله، أنزل هذا عليك من الجنة! تعجباً،
وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية، فأراد أن يكرمه بلبسه ثم نزعه وأرسل به
إلى رجلٍ من المشركين وصله به، ثم حرم لبس الحرير والديباج. وقد صلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم في خميصةٍ لها علمٌ فلما سلم قال: "شغلني النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى
أبي جهمٍ وأتوني بأنبجانيته" يعني كساءه فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم. وكان

شراك نعله قد أخلق فأبدل بسيرٍ جديدٍ فصلى فيه، فلما سلم قال: "أعيدوا الشراك الخلق
وانزعوا هذا الجديد فإني نظرت إليه في الصلاة". وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: دخل
رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله عنها وهي تطحن بالرحا وعليها
كساءٌ من وبر الإبل، فلما نظر إليها بكى وقال: "يا فاطمة تجرعي مرارة الدنيا لنعيم الأبد".
فأنزل الله عليه "ولسوف يعطيك ربك فترضى". وقد أوصى أمته عامةً باتباعه إذ قال:
"من أحبني فليستن بسنتي". وقال: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي
عضوا عليها بالنواجذ". وقال الله تعالى: "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله".
وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها خاصةً وقال: "إن أردت
اللحوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعي ثوباً حتى ترقعيه". وعد على قميص عمر
رضي الله عنه اثنتان وعشرون رقعةٍ بعضها من أدم. وفي الخبر: "من ترك ثوب جمالٍ وهو
يقدر عليه تواضعاً لله تعالى وابتغاءً لوجهه كان حقاً على الله أن يدخر له من عبقري الجنة
في أتخات الياقوت". وقال عمر رضي الله عنه: اخلولقوا واخشوشنوا، وإياكم وزي العجم
كسرى وقيصر. وقال الثوري وغيره: البس من الثياب مالا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك
عند الجهال. وقال بعضهم: قومت ثوبي سفيان ونعليه بدرهمٍ وأربعة دوانيق. والأخبار في
التقلل من اللباس كثيرةٌ فلا نطول بسردها.
المهم الثالث المسكن. وللزهد فيه أيضاً ثلاث درجاتٍ، أعلاها ألا يطلب موضعاً خاصاً
لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة، وأوسطها أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه
مثل كوخٍ مبنيٍ من سعفٍ أو خصٍ أو ما يشبهه، وأدناها أن يطلب حجرةً مبنيةً إما بشراءٍ
أو إجارة. فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادةٍ ولم تكن فيه زينةٌ لم
يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد. فإن طلب التشييد و التجصيص والسعة
وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرعٍ فقد جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن. قال:

والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى. وأقل الدرجات فيه معلوم، وما
زاد عليه فهو من الفضول، والفضول كله من الدنيا، وطالب الفضول الساعي له بعيدٌ من
الزهد. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا أراد الله بعبدٍ شراً
أهلك ماله في الماء والطين". وقال الحسن: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع
لبنةً على لبنة ولا قصبةً على قصبة. وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: مر علينا
رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصاً فقال: "ما هذا" قلنا: خصٌ لنا قد
وهى، قال: "أرى الأمر أعجل من ذلك". واتخذ نوحٌ عليه السلام بيتاً من قصب، فقيل له:
لو بنيت! فقال: هذا كثيرٌ لمن يموت. وقال الحسن: دخلنا على صفوان بن محرز وهو في
بيتٍ من قصبٍ قد مال عليه، فقيل له: لو أصلحته! فقال: كم من رجلٍ قد مات وهذا قائمٌ
على حاله. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من بنى ما يكفيه كلف أن يحمله يوم
القيامة". وفي الخبر: "كل نفقةٍ للعبد يؤجر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين". وجاء في
تفسير قوله تعالى: "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً" أنه
الرياسة والتطاول في البنيان. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل بناءٍ وبالٌ على
صاحبه يوم القيامة إلا ما أكن من حرٍ وبرد". ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى
صرحٍ قد بني بجصٍ وآجرٍ، فكبر وقال: ما كنت أظن أن يكون في أمتي من يبني بنيان
هامان لفرعون. وكان ارتفاع بناء السلف قامةً وبسطة. قال الحسن: كنت إذا دخلت
بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف. وقال عمرو بن دينار: إذا
على العبد البناء فوق ستة أذرعٍ ناداه ملك: إلى أين يا أفسق الفاسقين. وقال الفضيلي: إنّي
لا أعجب ممن بنى وترك ولكني أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر. وقال ابن مسعود: يأتي قومٌ
يرفعون الطين، ويضعون الدين، ويستعملون البراذين، يصلون إلى قبلتكم، ويموتون على غير
دينكم.

المهم الرابع أثاث البيت. وللزهد فيه أيضاً درجات، أعلاها حال عيسى عليه السلام إذا
كان لا يصحبه إلا مشطٌ وكوز، فرأى إنساناً يمشط لحيته بأصابعه، فرمى بالمشط. ورأى
آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز. وهذا حكم كل أثاثٍ فإنه إنما يراد لمقصودٍ فإذا
استغني عنه فهو وبالٌ في الدنيا والآخرة. وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل
الدرجات وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف، ولا يبالي أن يكون مكسور الطرف إذا
كان المقصود يحصل به. وأوسطها أن يكون له أثاثٌ بقدر الحاجة صحيحٌ في نفسه، ولكن
يستعمل الآلة الواحدة في مقاصدٍ كالذي معه قصعةٌ يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع
فيها. وكان السلف يستحبون استعمال آلةٍ واحدةٍ في أشياء للتخفيف. وأعلاها أن يكون
له بعدد كل حاجةٍ آلةٌ من الجنس النازل الخسيس، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس
خرج من جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول. ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى
الله عليه وسلم وسيرة أصحابه رضي الله عنهم. قالت عائشة رضي الله عنها: كان
ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادةً من أدم حشوها ليف.
وقال الفضيل: ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءةً مثنيةً ووسادةً
حشوها ليف. وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو نائمٌ على سريرٍ مرمولٍ بشريط، فجلس فرأى أثر السرير في جنبه عليه
السلام فدمعت عينا عمر. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما الذي أبكاك يا بن
الخطاب"؟ قال: ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله
وصفيه ورسوله نائمٌ على سريرٍ مرمولٍ بالشريط! فقال صلى الله عليه وسلم: "أما ترضى
يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة"! قال: بلى يا رسول الله. قال: "فذلك كذلك".
ودخل رجلٌ على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال: يا أبا ذر، ما أرى في بيتك متاعاً
ولا غير ذلك من الأثاث! فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا. فقال: إنه لا بد لك من

متاعٍ ما دمت هاهنا. فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه. ولما قدم عمير بن سعدٍ أمير
حمص على عمرٍ قال له: ما معك من الدنيا؟ فقال: معي عصاي أتوكأ عليها وأقتل بها
حيةً إن لقيتها، ومعي جرابي أحمل فيه طعامي، ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل فيها
رأسي وثوبي، ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي ووضوئي للصلاة، فما كان بعد هذا من
الدنيا فهو تبعٌ لما معي. فقال عمر: صدقت، رحمك الله. وقدم رسول الله صلى الله عليه
وسلم من سفرٍ، فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها ستراً وفي يدها
قلبين من فضةٍ فرجع. فدخل عليها أبو رافعٍ وهي تبكي، فأخبرته برجوع رسول الله صلى
الله عليه وسلم. فسأله أبو رافعٍ فقال: "من أجل الستر والسوارين": فأرسلت بهما بلالاً إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى.فقال:
"اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة". فباع القلبين بدرهمين ونصفٍ وتصدق بهما عليهم.
فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "بأبي أنت قد أحسنت". وقال
الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه، وما وضع أحدهم بينه وبين
الأرض ثوباً قط، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.
المهم الخامس المنكح. قال الغزالي: وقد قال قائلون: لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في
كثرته، وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال: قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف
نزهد فيهن! ووافقه ابن عينية، وقال: كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالبٍ رضي الله
عنه وكان له أربع نسوةٍ وبضع عشرة سرية. قال الغزالي: والصحيح ما قاله أبو سليمان
الداراني إذ قال: كل ما شغلك عن الله من أهلٍ ومالٍ وولدٍ فهو عليك مشئوم. والمرأة قد
تكون شاغلاً عن الله. قال: وكشف الحق فيه أن قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال
فيكون ترك النكاح من الزهد. وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجبٌ
فكيف يكون تركه من الزهد! وإن لم يكن عليه آفةٌ في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح

احترازاً عن ميل القلب إليهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد.
وإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازاً من لذة النظر والمضاجعة
والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلاً، فإن الولد مقصودٌ لبقاء نسله، وتكثير أمة محمدٍ
صلى الله عليه وسلم من القربات. واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود
لا تضره إذا لم تكن هي المقصد والمطلب، وهكذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء
احترازاً من لذة الأكل والشرب، وليس ذلك من الزهد في شيء، لأن من ترك ذلك فوات
بدنه، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله، فلا يجوز أن يترك النكاح زهداً في لذته من غير
آفةٍ أخرى. قال: وأكثر الناس تشغلهم كثرة النسوان، فينبغي أن يترك الأصل إن كان
يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدةً
غير جميلةٍ وليراع قلبه في ذلك. قال أبو سليمان: الزهد في النساء أن تختار المرأة الدون أو
اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة. وقال الجنيد: أحب للمريد المبتدي ألا يشغل قلبه
بثلاثٍ وإلا تغير حاله: التكسب، وطلب الحديث، والتزوج. فقد ظهر أن لذة النكاح كلذة
الأكل والشرب، فما شغل عن الله تعالى فهو محذورٌ فيهما جميعاً.
المهم السادس: ما يكون وسيلةً إلى هذه الخمسة وهو المال والجاه. أما الجاه فمعناه ملك
القلوب بطلب محلٍ فيها ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال. وكل من لا يقدر
على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاهٍ لا محالة في قلب
خادمه، لأنه لم يكن عنده محلٌ وقدر لم يقم بخدمته. وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه.
قال: وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفعٍ أو لدفع ضررٍ أو لخلاصٍ من ظلم. فأما
النفع فيغني عنه المال، فإن من يخدم بأجرة خدمٍ وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر، وإنما
يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة. وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في
بلدٍ لا يكمل فيه العدل أو يكون بين جيرانٍ يظلمونه فلا يقدر على دفع شرهم إلا بمحلٍ له في

قلوبهم أو محلٍ له عند السلطان. وقدر الجاه فيه لا ينضبط. والخائض في طلب الجاه
سالكٌ طريق الهلاك. بل حق الزاهد ألا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلاً، فإن اشتغاله
بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين
المسلمين.
وأما التوهمات والتقديرات التي تحوج إلى زيادةٍ في الجاه على الحاصل بغير كسبٍ فهي أوهامٌ
كاذبة، إذ من طلب الجاه لم يخل عن أذى في بعض الأحوال، فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر
أولى من علاجه بطلب الجاه. فإذا طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلاً، واليسير منه
داعٍ إلى الكثير، وضراوته أشد من ضراوة الخمر، فليحترز من قليله وكثيره.
وأما المال، فهو ضروريٌ في المعيشة أعني القليل منه. فإن كان كسوباً، فإذا اكتسب
حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، هذا شرط الزهد، فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه
أكثر من سنةٍ فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعاً. وإن كانت له ضيعةٌ ولم
تكن له قوة يقينٍ في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنةٍ واحدةٍ فلا يخرج بهذا
القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنة، ولكن يكون من ضعفاء
الزهاد.
قال: وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل. وقد قال أبو سليمان: لا ينبغي أن
يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء.
قال: والذي يضطر إليه الإنسان من الجاه والمال ليس بمحدود، فالزائد منه على الحاجة سمٌ
قاتل، والاقتصار على قدر الضرورة دواءٌ نافع، وما بينهما درجاتٌ متشابه، فما يقرب من
الزيادة وإن لم يكن سماً قاتلاً فهو مضرٌ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواءً نافعاً
لكنه قليل الضرر. والسم محظورٌ شربه، والدواء فرضٌ تناوله، وما بينهما مشتبهٌ أمره.
فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينه
وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة

الناجية لا محالة. والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا، بل ذلك
القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين، والشرط من جملة المشروط.